الدكتور
طه حبيشي
أستاذ بجامعة الأزهر

رسالة من النبي إلى الأمة من خلال تعامله مع خيانات اليهود

الطبعة الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م



﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ﴾

صدق الله العظيم

المائدة الآية ٨٢



ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى

عدوا له ما من صداقته بد



إهـــــداء

إلى كل أم فقدت فلذة كبدها أمـــام عينيـــها بيـــد عـــدو الله وعدوها ٠

إلى كل أب احترقت أحشاؤها بحـــرارة دم ولـــدد الســـائل برصاصة العدو ٠

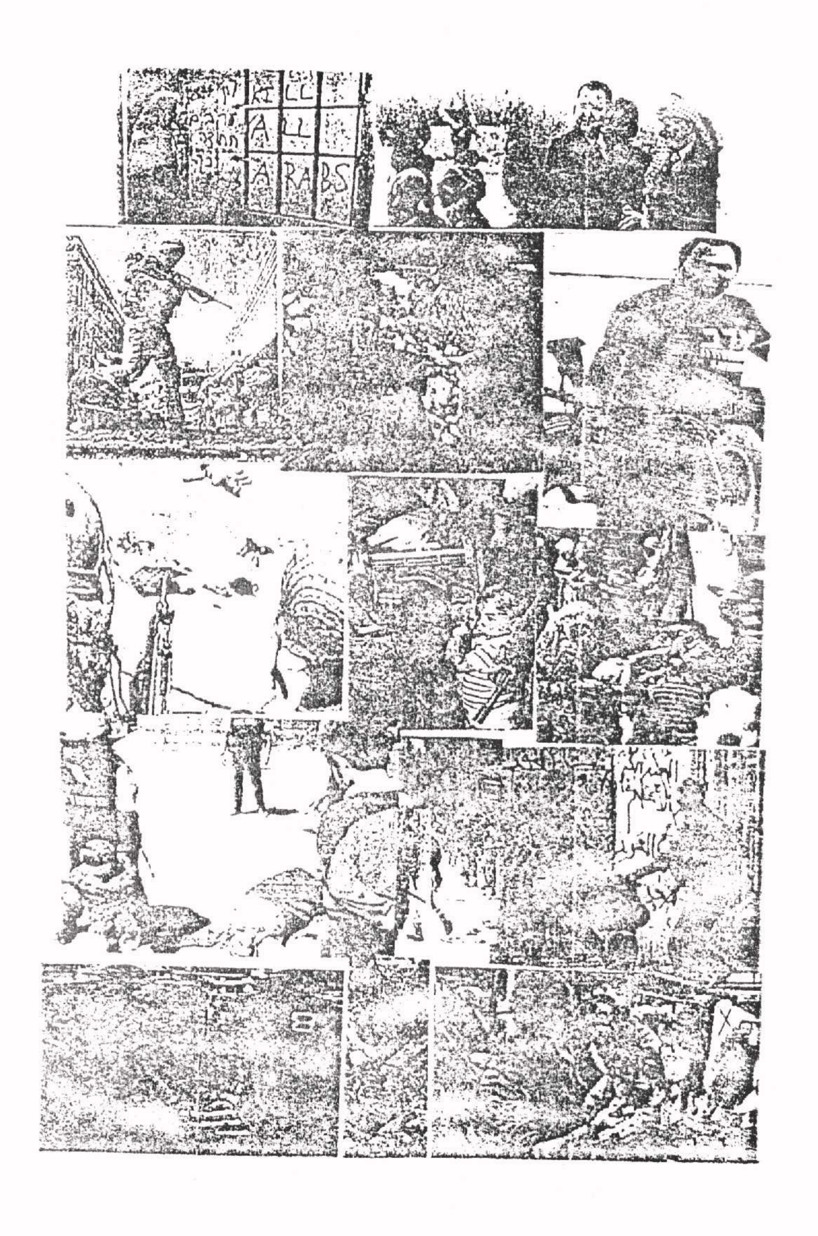
إلى كل أخ أو أخت فقدت أو فقد شقيقه بتفريق يـــد آثمـــة غادرة ٠

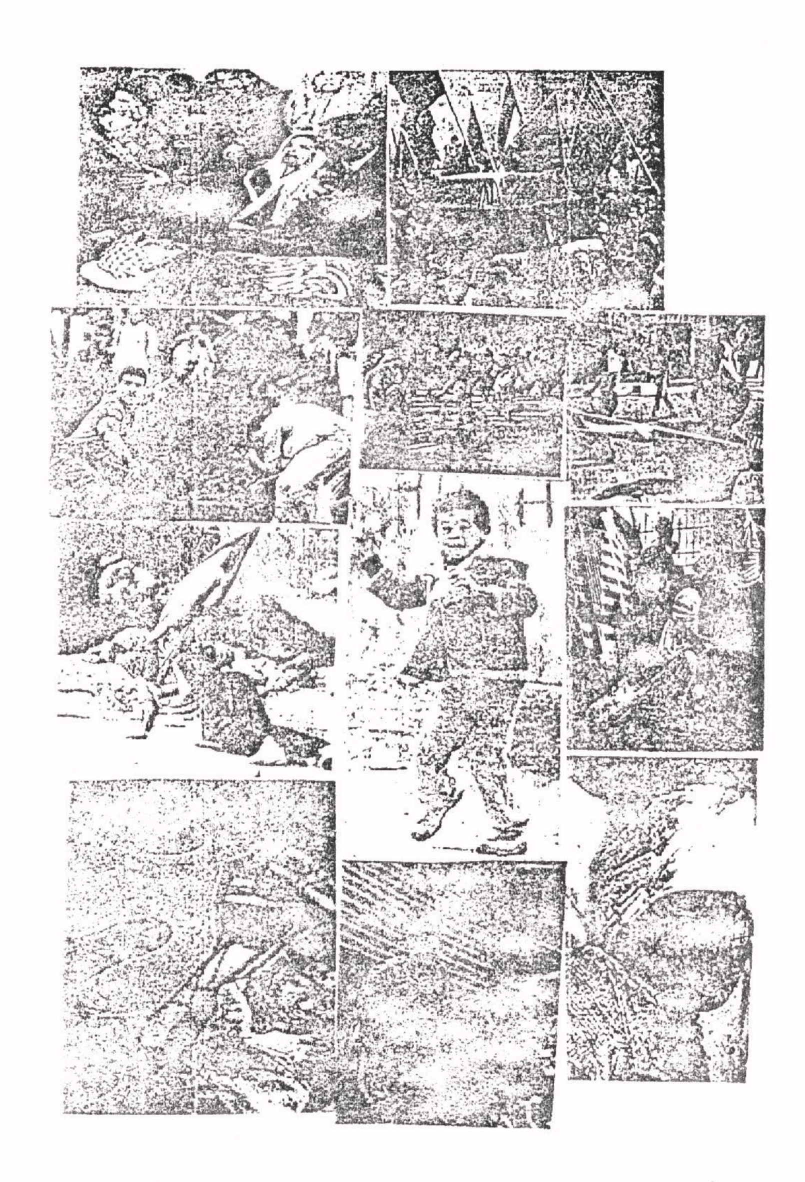
إلى كل متدين بديـــن ديســـت معالمـــه وشـــعائرد بـــأقدام الظالمين ٠

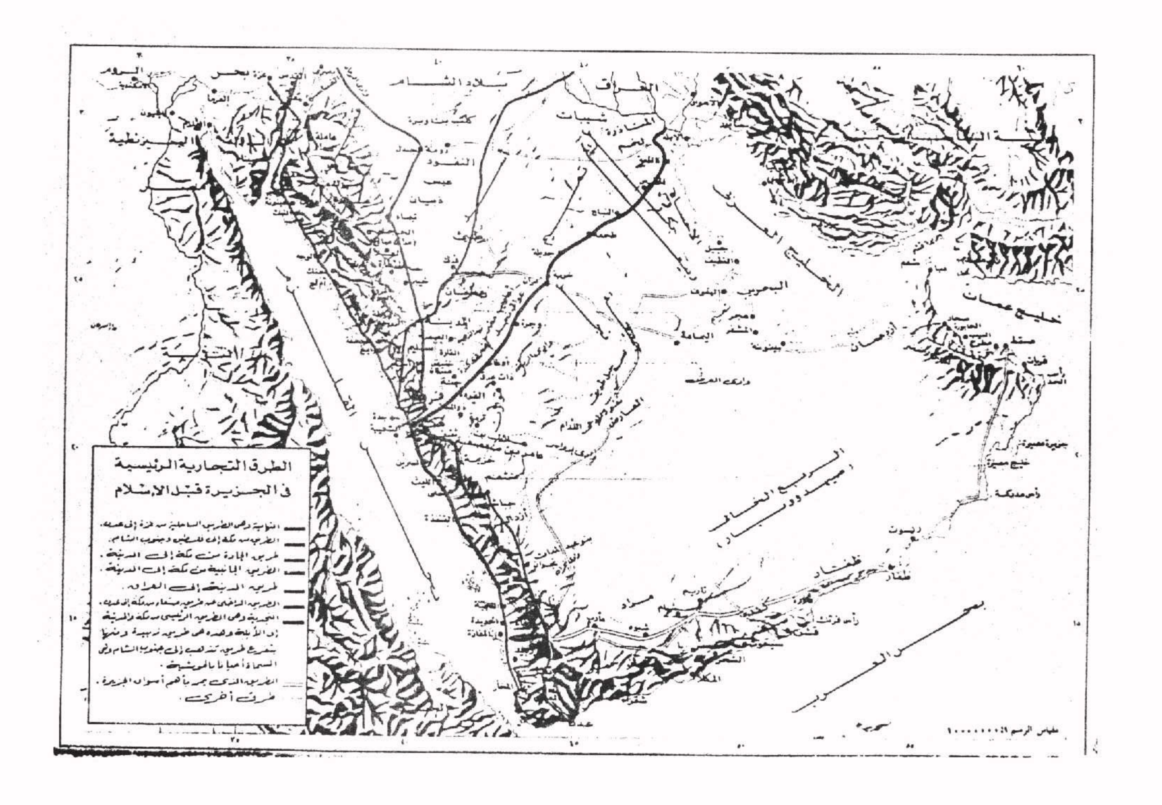
إلى كل عاطفة نبيلة وشعور حي ناله الأذى بيـــد الأعـــداء على وجه المعمورة في اعتداء خطط له يهود العالم ٠

إلى أبنائنا من شعب فلسطين أهدى رسالة النبـــي إليـــهم لتكون ضوء هداية وجبل رحمة وفيض سلوان وتنشـــيط إرادة ٠

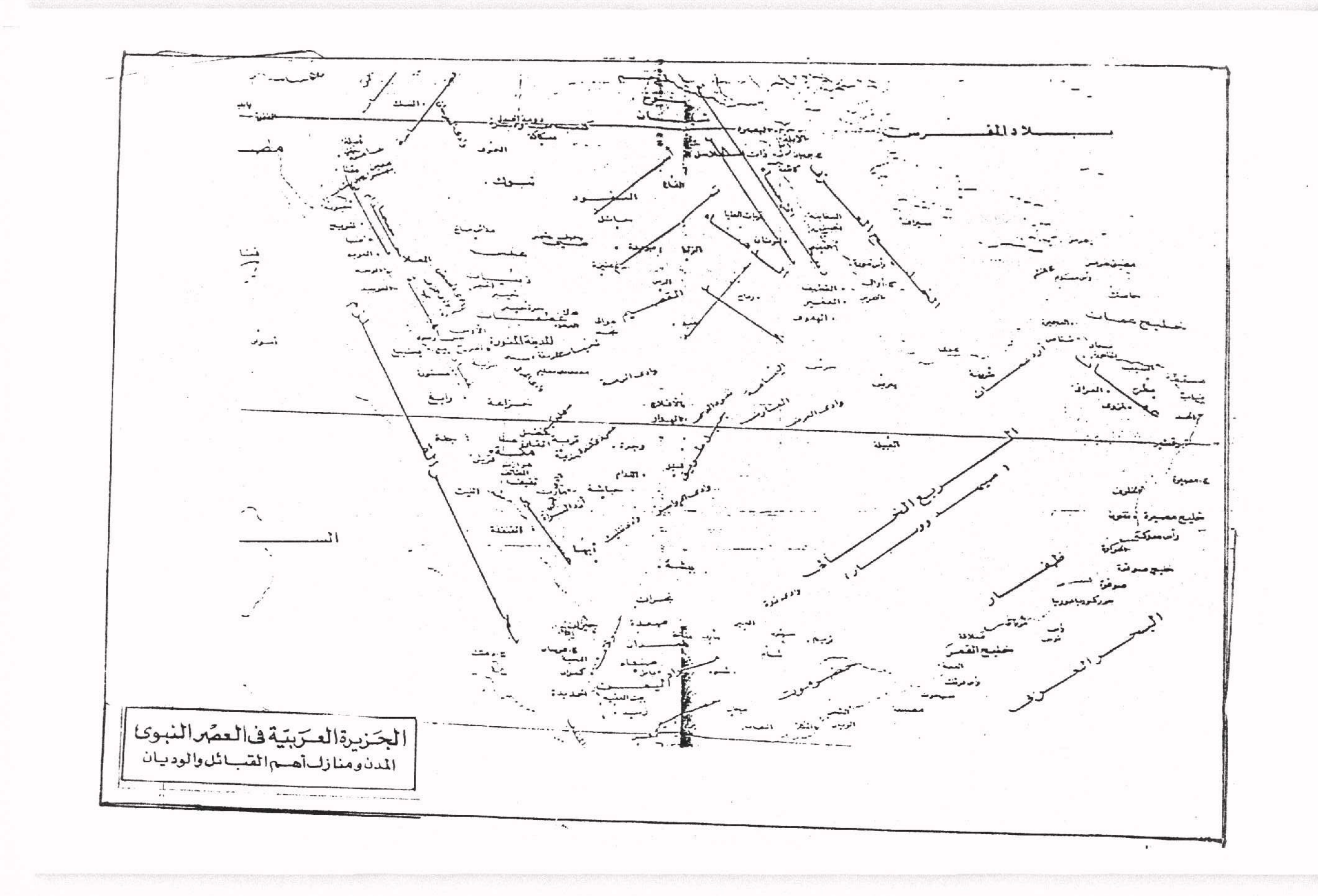
والله يتولى شئوننا جميعاً


KILL
ALL
ARABS

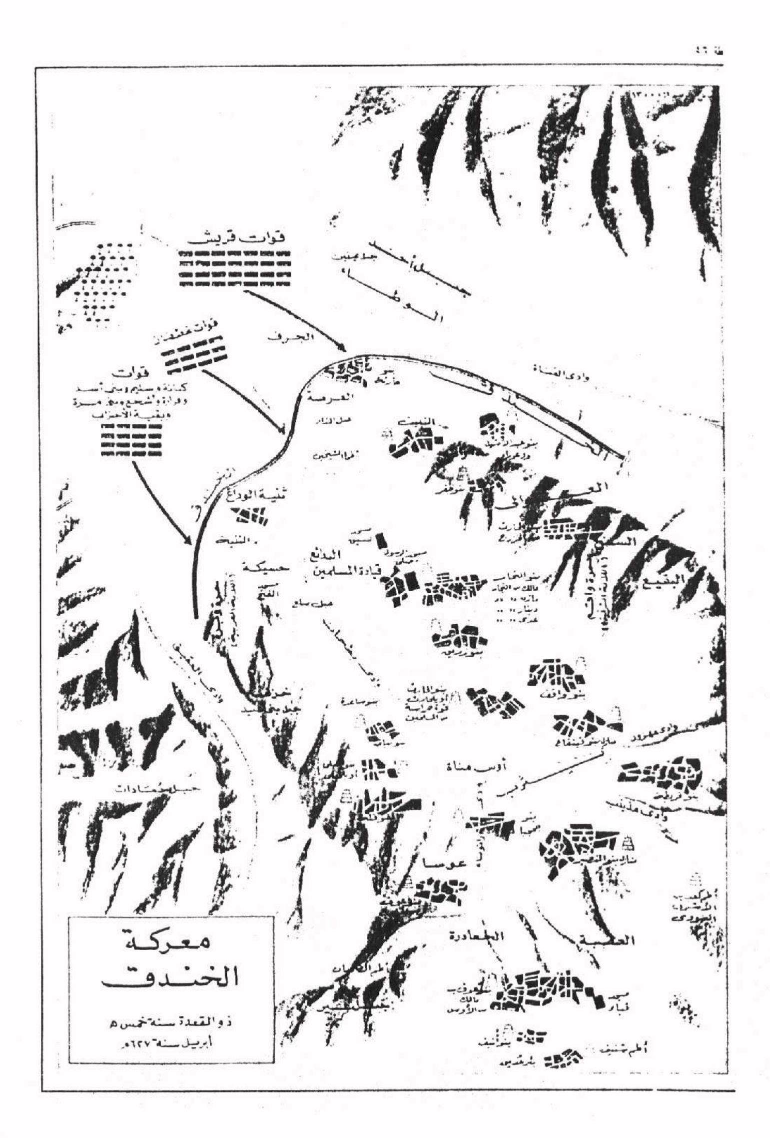


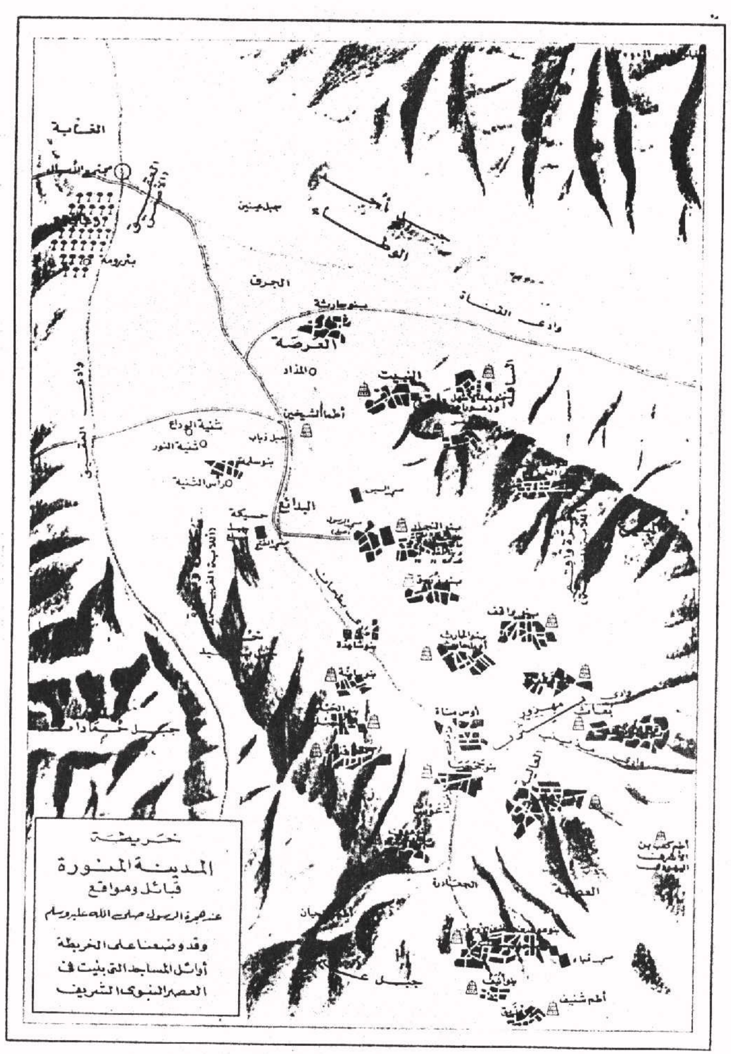


الطرق التجارية الرئيسية
في الجزيرة قبل الإسلام
الطريق من مكة إلى فلسطين وجنوب الشام.
طريق الجادة من مكة إلى المدينة.
الطريق الجانبية من مكة إلى المدينة.
طريق المدينة إلى العراق.
الطريق الذي يمر بأهم أسواق الجزيرة.
طرق أخرى.
بلاد الشام
العراق
الخليج العربي
خليج عمان
الربع الخالي
بحر العرب

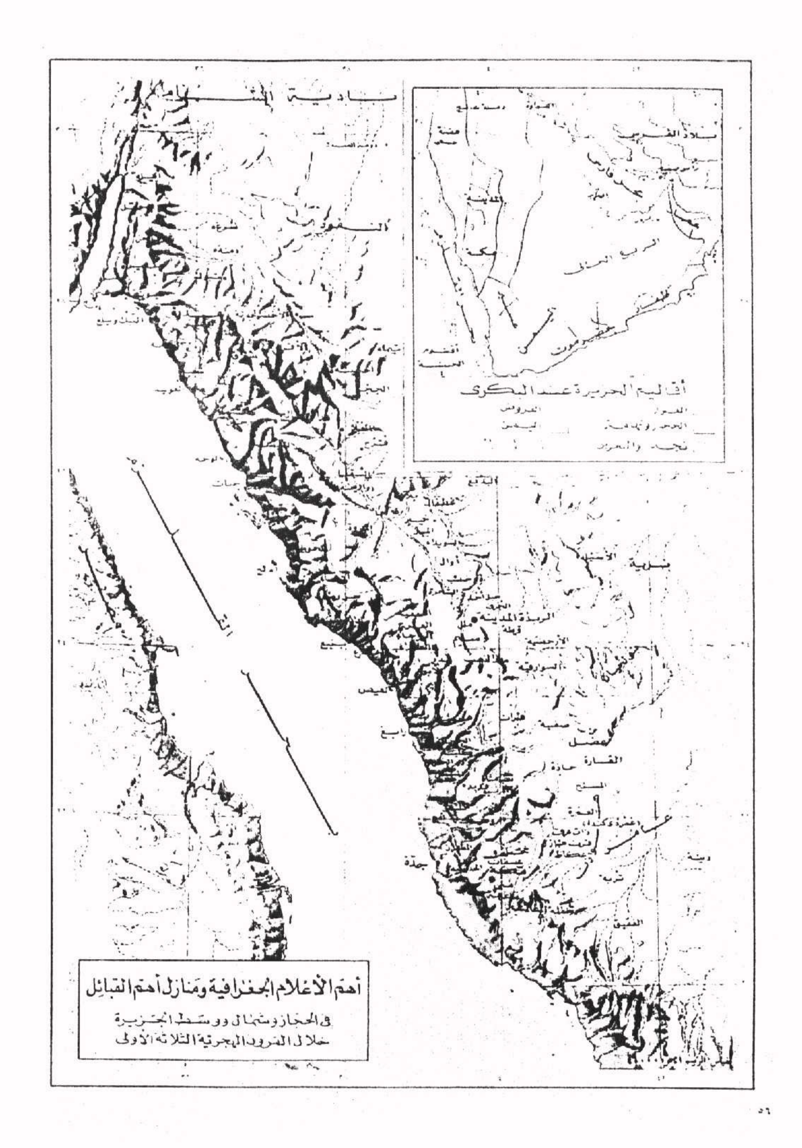


الجزيرة العربية في العصر النبوي
المدن ومنازل أهم القبائل والوديان

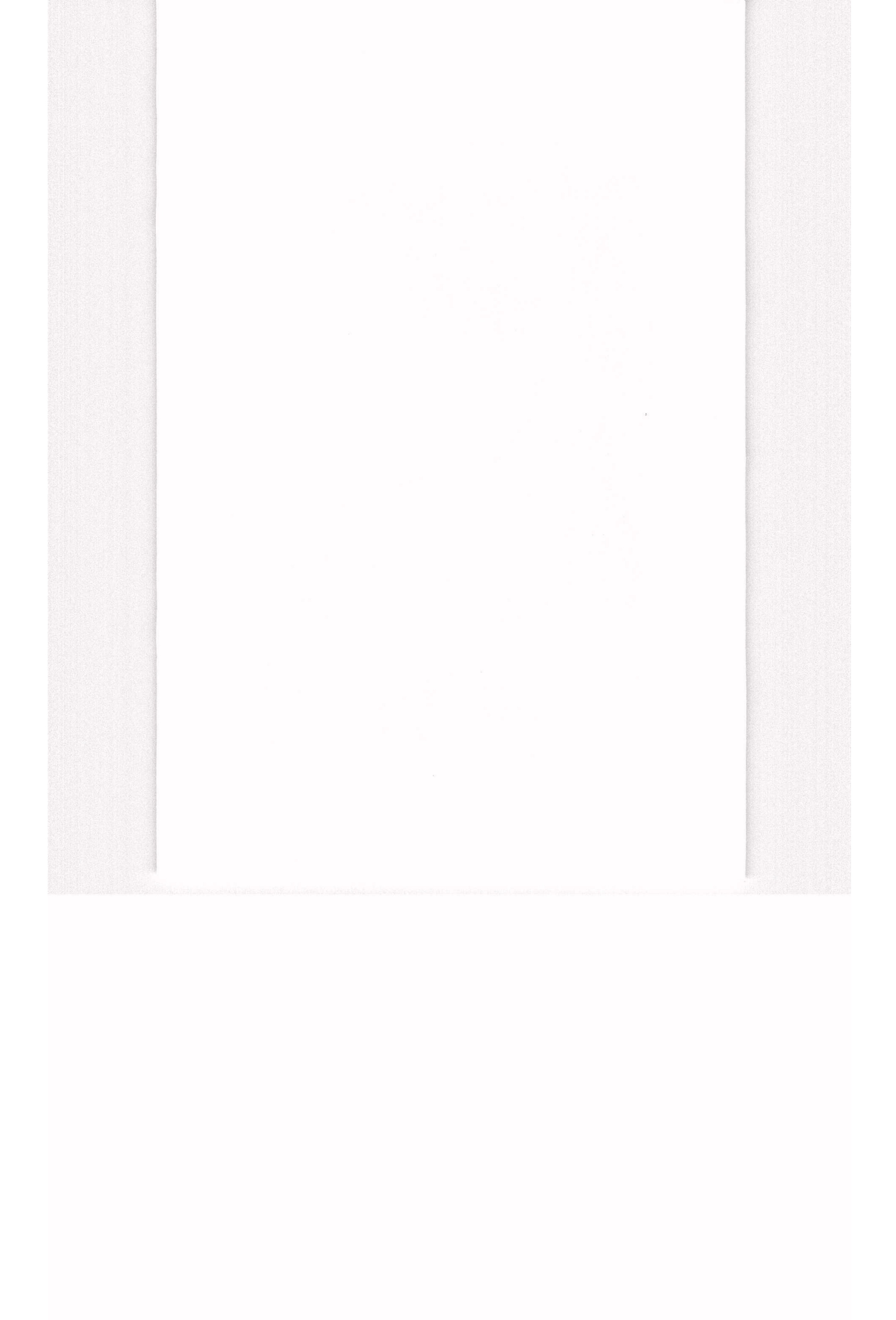

قوات قريش
قوات غطفان
قوات
كنانة وسليم وبني أسد
وفزارة وأشجع ومرة
وبقية الأحزاب
جبل أحد
الجرف
وادي قناة
ثنية الوداع
حميكة
قيادة المسلمين
أوس مناة
عوسا
البقيع
العقبة
الجعادرة
معركة
الخندق
ذو القعدة سنة خمس هـ
أبريل سنة ٦٢٧م



الغابة
الجرف
وادي القناة
العرصة
ثنية الوداع
ثنية النور
رأس الثنية
بنو واقف
خريطة
المدينة المنورة
قبائل ومواقع
عند هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم
وقد وضعنا على الخريطة
أوائل المساجد التي بنيت في
العصر النبوي الشريف


بادية الشام
أقاليم الجزيرة عند البكري
العروض
اليمن
حضرموت
أهم الأعلام الجغرافية ومنازل أهم القبائل
في الحجاز وشمال ووسط الجزيرة
خلال القرون الهجرية الثلاثة الأولى


فتح خيبر
في المحرم سنة ٧ هـ - مايو / يونيو سنة ٦٢٨ م
١ هنا أقام الرسول صلى الله عليه وسلم مسجدا
٢ هذا الموضع يقع على ٦٠ كيلو متر من خيبر
٣ عند هذا الموضع ضرب الرسول قبة أول الأمر
٤ هنا مدخل خيبر من الجنوب ولكن الرسول دخل من الشمال
٥ وهو حصن بني أبي الحقيق . ح = حصن .
← إتجاه دخول المسلمين إلى خيبر .
المدينة المنورة



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى وبعد

فلقد شاء الله عز وجل أن تكون حياة النبي ﷺ ، وأن تكون سيرة النبي ﷺ، وأن تكون سنة النبي ﷺ على الجملة ، قدوة يتطلع إليها الحائر فيهتدي ، ويتأملها المضطرب فيسكن ويهدأ ، وينظر إليها المكلوم فيصبر ، ويبصرها المظلوم فيتعلم كيف يناجي ربه ويركن إلى خالقه .

ونحن في هذا الزمان نحيا ذكرى الإسراء والمعراج في عام ألفين من الميلاد ، وفيها رأيت أن أتحدث إلى الأمة ، ورأيت أن أكتب إلى المسلمين في هذه المناسبة ، آملا أن أحملهم على جناح الشوق إلي هذا النبي فيأخذهم الشوق إلى سيرته ، فيأخذون منها ما يشاءون ، أو يشاء الله لهم ويرتشفون من معينها بالقدر الذي يقدر الله لهم أن يرتشفوه فيسبغ الله عليهم من نور الهداية فيهتدوا .

أردت أن أتحدث إلى هذه الأمة في هذه المناسبة ، ورأيت أن أكتب إلى المسلمين في هذه الذكرى ، فرأيت واقعهم ، وقلبت أوراقي ، فوجدت واقع المسلمين على خلاف ما عهدته في السنوات الماضية ، وجدت دماء المسلمين تراق بين يدي الإسراء والمعراج هذا العام، ووجدت صوت اليهود يعلو فيؤذى الآذان، وتكاد البغضاء تخرج من أفواههم فتصيب الأعين بالأذى لقبيح منظرها .

تأملت واقع المسلمين على أرض الرسالات فوجدت أن قد أغلق عليهم وعلى اليهود جميع الحدود براً وبحراً، ولو استطاع اليهود أن يغلقوا الجو لفعلوا، فعدت إلى نفسي أسائلها هل ارتفعت أصوات المسلمين في الداخل من وراء الحصار تدعو ربها ؟.

أم أنها ارتفعت من وراء الحصار تستنجد بعدو الله وعدوهم، ولا ترفع يديها إلى ربها والذي لا يقدر على النجدة سواه ؟٠

نظرت إلى هؤلاء وراء الحصار وتساءلت مع نفسي ولا جواب ٠

ثم عدت إلى أوراقي أقلبها٠ ولكن ما حقيقة هذه الأوراق التي أقلبها والتي أحاول في كل عام أن أعود إليها ؟٠

إنها أوراق حقا، ولكنها ليست أوراقاً عادية لأن هذه الأوراق تعلو على غيرها، وتتطاول على نظائرها لأنها قد سُطِّر عليها تاريخ هذا النبي، ولأنها تضم بين ثناياها صفات هذا النبي، ولأنها تضئ جوانبها بأحاديث وأخلاق هذا النبي ٠

عدت إلى هذه الأوراق أقلبها، كما أعود إليها في كل عام في هذه المناسبة، وفي كل مناسبة تشبه هذه المناسبة ولهذه المناسبات نظائر وأشباه٠

عدت إلى أوراقي أقلبها وإذا بروح النبي السارية في الأمة أفرادا وجماعات تأخذ بتلابيبي، لا أستطيع منها فكاكا ولا أرغب أن يكون لي منها فكاكا، وإذا بروح النبي ﷺ السارية في الأمة تأخذ بتلابيبي وتأمرني أمر المحب للمحب، لماذا لا تتحدث إلى الأمة عن علاقة النبي باليهود في عصر المبعث ؟ !

ولماذا لا تخاطب الأمة في شأن هذه العلاقة تبرز منها ما يجب إبرازه وتلفت النظر إلى ما ينبغي أن تلفت النظر إليه ؟!

ثم لماذا تتقاعس عن هذه المهمة وهي التي سيكون من خلالها خير كثير إن أراد الناس أن يفقهوا عن نبيهم أو أراد الناس أن يقتدوا بهذا النبي ؟!

ثم أنت لماذا لا تفعل هذا كله معتمداً على الكتاب، والسنة، والتاريخ، تعتمد عليها جميعاً حتى تخرج معلوماتك للناس مبرأة من

الشك، متأبية على الاحتمالات التي تلقي بالعقول والأرواح في مهاوي الشك والضلال ؟!

ثم أنت لماذا لا تبرز للناس هذه الأشياء كلها من خلال إعلان تسميه رسالة النبي ﷺ لأمته في ذكرى الإسراء والمعراج في عام ٢٠٠٠ ؟!

أخذتني روح النبي ﷺ أو كادت وأمسكت بتلابيبي، لا أحب أن أنفك عنها ولا أستطيع، وأمرتني أمراً أن يكون حديثي للناس هذا العام على هذا النحو، فما كان من استطاعتي إلا أن أستجيب لهذا النداء وأصدع بالأمر.

ثم أنا قد نظرت إلى نفسي وإلى الناس، فوجدتني لا أعدو أن أكون موصلاً لهذه الرسالة ، راجياً أن أكون مؤتمناً عليها، كما أرجو أن أكون أميناً في البلاغ. ورجائي أن تكون هذه الرسالة التي أتصدي الآن لإبلاغها سببا في صحوة المسلمين خارج أرض فلسطين، وتهدئة لأولئك القابعين وراء الحصار في أرض فلسطين، وضوءا كاشفا أمام هؤلاء وهؤلاء يعود بالجميع إلى دينهم وخالقهم

ونبيهم، فيقوم هؤلاء وهؤلاء بما عليهم من واجب، وبما يلزمهم ربهم من منهج الكل يرفع الأكف إلى ربه أن يرده إلى دينه مردا جميلاً، والكل يدعو ربه أن ينصر الأمة على اليهود الذين سجل الله عليهم أنهم لا عهد لهم ولا أمان، وأنهم دائماً يكيدون لبنى الإنسان ولا يملون من الاعتداء على سائر الأديان.

يا أمة الإسلام هذه قطعة من تاريخ نبيكم لم يغفل التاريخ عنها، بل أنتم الذين أغلقتم عنها أبواب صدوركم فالتفتوا إليها التفاتة يُصلح شيئا من نفوسكم وشيئاً من صدوركم.

ويا أمة الإسلام هذا جزء من تاريخ نبيكم فيه هدي ورشاد، وفيه تبصرة لمن كانت له بضيرة. أخبروا به سائر الأفراد والجماعات، واصرخوا به في سائر الأمة هنا وهناك، بلغوا هذه الرسالة على نحو ما فهمتموه، وقولوا لمن يسمعونكم ما أمر ربكم نبيكم أن يقول "فهل أنتم مسلمون ؟" " **فإن تولوا فقل آذنتكم على سواء وإن أدري أقريب أم بعيد ما**

توعدون" ثم توجهوا إلى من تبلغونهم رسالة نبيكم بما أمر الله نبيه أن يتوجـــه إليه به" **قال ربي احكم بالحق وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون**"٠

أما أنا فإني أقول : اللهم إني أسألك أن تعينني على الفهم في تـــاريخ نبيك في دعوته ومنهجه، وأسألك أن تمنحني حسن البيان فيما أنـــا بصـــدده الآن، وفيما أنا بصدده في كل وقت وآن، وأسألك أن تمنحني وتمنح السـلمعين معي قلوباً واعية، وإرادة نافذة، وقدرة على تحريك القلوب والأجسام، إلــى أن تدنو الثمرة ويحين قطافيا، ويعود المسجد الأقصى إلى أصحابه، ويرفع عـــن المسلمين ما أحاط بهم من البلاء٠

آمين والله حسبنا ونعم الوكيل٠

الجيزة

أ٠د / طه حبيشي

معاهدة السلام بين النبي ﷺ واليهود ومدى التزام اليهود بها

****

بقي النبي بعد نبوته في مكة يدعو إلى الله قدر ما بقي.

ونزل على النبي ﷺ من آيات القرآن الكريم ما يناسب هذه الفترة ما شاء الله أن ينزل من القرآن الكريم.

وأعد النبي رجاله الذين اتبعوه في مكة إعداداً جيداً، مؤسساً على العقيدة السليمة، وعرضهم الله على الشدائد ليبتليهم في مكة، ونحى عنهم ضعفاءهم ليستقبل النبي بهم عصراً جديداً خارج مكة، على نحو ما أراد الله عز وجل ويريد.

بقي النبي في مكة قدر ما بقي ونزل عليه من الوحي ما نزل، وأعد رجاله إعداداً تاماً، ثم أمره الله بالهجرة من مكة إلى المدينة.

طبيعة مجتمع المدينة يوم الهجرة :

ولما هاجر النبي ﷺ ووصل إلى المدينة المنورة، لم يكن وصوله إليها خلوداً للراحة ولا فراراً من قومه، وإنما كان وصول النبي إلى المدينة نوعاً من تمكين الله له في الأرض، ليقوم بأداء الواجب الذي كلفه الله به يساعده على القيام به رجال، الشأن فيهم أنهم قد صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وعقدوا العزم على أن يكونوا الطليعة الأولى، والقرن الأمثل الذين تحملوا تبعة هذه الرسالة، وما تقتضيه هذه التبعة من تحمل الشدائد في النفس والمال والولد.

ما جاء النبي إذاً إلى يثرب لكي يخلد إلى الراحة، وإنما جاء ليكمل رحلة شاقة ليس لها من جزاء إلا الجنة.

وهذه المهمة التي جاء النبي من أجلها لا يمكن - في حكم العادة - أن تتم إلا في ظل مجتمع مستقر لا يعرف الشطط في العلاقات، ولا يعرف التطرف في الفكر، ولا يعرف الخذلان حين يُطلب للنصرة.

لابد لكي يقوم النبي بأداء مهمته أن يكون في مجتمع على هذا المستوى لا ينقص عن ذلك ولا قلامة ظفر.

فهل كان مجتمع النبي على هذا النحو ؟

شاء الله عز وجل أن لا يكون مجتمع النبي في يثرب على النحو الذي تقتضيه مهمة النبي ﷺ في الإنسانية جمعاء، وهي إبلاغ الرسالة عن الله، وصنع مجتمع من البشر يكون في محل القدوة، وتطبيق الرسالة على نفسه ليكون على السنام من هذه القدوة جمعاء.

شاء الله أن لا يكون مجتمع المدينة مناسبا لمهمة النبي.

فكان فيه المهاجرون وهم غرباء لا تاريخ لهم في هذا الوطن، وليس لهم فيه ذكريات ولا أشواق، ولا يشعرون أن تحت تراب هذا الوطن آباء لهم وأجداد. وليس لهم على هذه الأرض قرابات ولا أعراق.

وهذا الذي يفتقده المهاجرون المؤتلف من هذه العناصر التي ذكرت لك يجعل الإنسان فاقد الحماسة غالباً، قليل الإنتماء في معظم الأحياء لهذه الأرض وهذا الوطن، شاعراً في كل وقت أنه غريب والغربة ضعف.

وكان فيه الأوس والخزرج وهما أبناء عمومة، سكنوا هذه الأرض واستوطنوها أجيالاً بعدها أجيال، فأصبح لهم فيها تاريخ وذكريات وأشواق، وأصبح لهم عليها نسب وأعراق، وهما أمور تمكنهم من الاستقرار والإنتماء، لكنهم قد أصيبوا بشيء من الابتلاء يصيب الأمم والشعوب، فيحدث فيها خللا واضطرابا يزلزل كيانها، ويخلخل ائتلافها، ويذهب بالأهداف من بين أيديهم لا يصلون إليها ولا يحققونها، وهذا الإبتلاء الذي أصاب الأوس والخزرج هو داء الخلاف والاختلاف، الذي سمح للبغضاء والعداوة أن تنشب أظفارها

في مجتمعهم وفي أفرادهم على السواء، وتدخل أعداؤهم من جيرانهم كلما انطفأت نار العداوة أشعلوها، وكلما هدأت الفتنة أو رقدت أيقظوها، حتى أصبح بين أبناء العمومة ثأر ودماء، وكراهية وعداء، وطامة كبري ليس لها من دون الله كاشفة.

وفي مجتمع النبي اليهود وهم طوائف وشيع : بنو قينقاع، وبنو النضير. وبنو قريظة، واليهود في المدينة كما هم في كل أرض غرباء لا على وجه الضيافة، ولا يربطهم بأصحاب الوطن الأصليين رابطة من دين أو تاريخ أو لغة أو وحدة هدف ومقصد، واليهود فوق ذلك حين يحتلون الأوطان. إنما يحتلونها على وجه الاغتصاب، تدل أفعالهم فيها على مقاصدهم. فهم يبنون فيها المستعمرات، ويقيمون فيها الحصون، ويحيطون أنفسهم بالأسلحة الظاهرة والباطنة، ويحقرون من جيرانهم، ويستعلون عليهم على وجه الاستفزاز الذي تأنف منه الطباع، وفي طباع اليهود الخاصة أنهم لا يقبلون حرباً يكونون طرفاً فيه، حفاظاً على أبنائهم حيث حدد الله نعوهم وهو الحكيم، وهم لا يقبلون سلماً مع جيرانهم إلا أن يكون ستارا يستخفون خلفه بخياناتهم، لأنهم يريدون من جيرانهم أن يكونوا أعداء يضرب بعضهم رقاب بعض، كي يحتاجوا إلى الأسلحة يشترونها من اليهود. وكي يقتل بعضهم بعضاً، فتندر قوة الشباب فيهم فلا يُنتجون ما يحتاجون إليه من سلع. ويلجأون إلى اليهود يشترونها منهم، فينشط اقتصادهم على أساس من دماء الآخرين وضعفهم، وخليقة أخري لا تكاد تفارق اليهود، وهي شعورهم الذي لا ينقطع بالضعف والذلة والمهانة، فيخشون من أجل ذلك دائماً من يوم يأتي تُحرر فيه الأرض وتعود إلى أصحابها، ويعودون كما حكم الله عليهم يتيهون في الأرض كلها، يبحثون لأنفسهم عن مأوي يأوون إليه اغتصاباً بقهر الضعفاء، أو بالحيلة والمكر والخداع.

هذا هو حال مجتمع المدينة عند مقدم النبي، مجتمع متشرذم، المهاجرون فيه غرباء، وأبناء العمومة فيه أعداء، واليهود فيه مغتصبون يقعدون في كل مرصد يتربصون بهؤلاء وهؤلاء.

والنبي ﷺ قد أُبتلي بهذا المجتمع غير المؤتلف، وعليه أن يجعل منه قاعدة انطلاق، تنطلق منه دعوة الإسلام، ويبقي هو إلى يوم القيامة في موقع الذئر يأوي إليه المسلمون، وينحصر إليه الإسلام كلما أخذت المسلمين شدة، وكلما احتاجت أفكار الإسلام إلى تنشيط.

النبي يتأمل ثم يعثر على الحل :

ولقد تأمل النبي مجتمعه تأمل القائد العظيم والنبي العظيم، ليجد لهذه المشكلة حلا على سنن الله الجارية في عالم الاجتماع البشري.

وبعد أن قلب النبي الأمر على جميع وجوهه اهتدي بفضل ربه إلى الحل المناسب لمثل هذا المجتمع، وهو حل يأتلف من عناصر كانت ولا زالت بمثابة السمات المميزة لهذا الحل الذي اهتدي إليه القائد العظيم بتوفيق ربه له.

ولقد أخذ النبي في مباشرة ما اهتدي إليه، وتنفيذه على أرض الواقع.

أما المهاجرون الذين لا أرض لهم ولا وطن ولا تاريخ، فقد جمعهم النبي ﷺ بإخوانهم سكان الأرض الذين لهم بها تاريخ وصلة، وآخى بينهم أخوة لها ما لأخوة النسب من أحكام إلى حين، وتزيد عليها برابطة الإيمان في كل حين، وعقد عقد الأخوة بين كل رجل من المهاجرين وآخر ممن آمن من الخزرجيين أو الأوسيين، وكان هو الذي يباشر العقد بنفسه في المسجد ويُشهد عليه الله والمؤمنين.

ولقد أتت عقود الأخوة بثمارها فوق ما يتوقع البشر، وفوق ما تتصور العقول، والتاريخ سجل هذه الآثار بكل العزة والفخار.

وأما الأوس والخزرج - وهم أبناء العمومة - فجماع مشكلتهم هــذا العداء المستقر بينهم، والذي تحرص اليهود على بقائه وتعمل على ذلك ليلــها ونهارها.

أما الأوس والخزرج فمشكلتهم هذه لا تعدوها عداء وإحن وبغضاء.

ولقد علم النبي ﷺ أن الإيمان كفيل بالقضاء علــى هــذه العــداوات وتلك الإحن.

غير أن النبي ﷺ يعلم أن المثير دائما يحيي في النفوس أمــورا قــد قضى عليها الإسلام وأماتها.

ومن المثيرات التي يخشى النبي آثارها بين الأوس والخــزرج، هــو هذه الأسماء التي هي للفريقين، فالأوس مثير يسمعه الخزرجي فيذكـــر بـــه معارك الماضي وما ترتب على هذه المعارك من قتـــل أو أذى، والخـــزرج مثير يسمعه الأوس فيذكر به ما مر في المـــاضي مـــن عـــداوات وأســـبابها وآثارها.

ولقد علم النبي - وهو القائد العظيم - أنـــه لا اســـتقرار بيـــن الأوس والخزرج إلا برفع العداوات، وأنه لا سبيل إلى رفع العـــداوات إلا بالقضـــاء على هذا المثير، فرفع النبي الاسمين جميعا - الأوس والخـــزرج - ووضـــع مكانها اسما محبوبا لأبناء الفريقين جميعا يوحـــد بينـــهم، ويجمـــع شـــتاتهم، ويضمهم تحت شعار واحد هو اسمهم الجديد أنهم جميعا أنصار الله وأنصـــار رسول الله.

وارتضى الفريقان هذا الاسم، واجتمع شملهم تحـــت هـــذا الشـــعار. وأصبح في المدينة المهاجرون والأنصار، وأصبح في المدينة أخوة تجمع بين المهاجرين والأنصار.

ولم يبق أمام النبيﷺ في مجتمع يثرب إلا هؤلاء الذين اغتصبوا الأرض، وأقاموا عليها إقامة غير شرعية من اليهود بجميع طوائفهم التي ذكرت لك٠

فماذا عسي أن يفعل النبي باليهود حتى يتم له مجتمع مؤتلف هدفه واحد. والإنتماء إليه غاية يدركها الجميع، والحفاظ عليه واجب يطلع به الأفراد والجماعات ؟

حوار مع اليهود :

ولقد رأي النبيﷺ أن اليهود أهل كتاب، وأن كتابهم غير المحرف فيه صفات النبي عليه السلام يعرفونه بسببها، لا تخطئهم فيه صفة من هذه الصفات، ولقد وصلوا بمعرفتهم تلك إلى حد اليقين في قلوبهم، كما أخبر الله عنهم أنهم "**يعرفونه كما يعرفون أبناءهم**"٠

لقد رأي النبيﷺ أن اليهود أهل كتاب، ولهم بالأنبياء صلة، وصفته في التوراة عندهم، وهم يعرفون نبوته وقد بشروا بها قبل مجيئه٠

ومعرفة النبي باليهود على هذا النحو كانت عاملاً مساعداً له، كي يعرض عليهم أول ما يعرض أن يدخلوا معه في دينه٠

والعقل يحتمل أن اليهود لن يرفضوا هذا العرض، لمعرفتهم بالنبي من جهة، ولأنهم مأمورون بإتباعه في كتبهم المقدسة، وموروثات نبيهم موسى. ولأنهم كانوا ينتظرون على شوق مجيئه حتى يتبعوه، فينجبر به كسرهم، ويكتسبوا به عزتهم وشرفهم، وينتصروا به على عدوهم - كما يتصورون - من جهات أخري٠

غير أن النبيﷺ حين عرض عليهم أن يؤمنوا به وبنبوته، ثم يتبعوه على ما جاء به من ربه، رفضوا ذلك على غير قناعة، بل رفضوه على أساس الحسد من عند أنفسهم الذي قد ملأ قلوبهم، وزاد عن حشو إهابهم٠

لقد رفض اليهود عرض النبي عليهم أن يؤمنوا، وأثّر ذلك في نفس النبي كعادته، يحزن على كل إنسان ينصرف عن الحق، ويُعرض عن الإيمان.

غير أن الله قد شرح للنبي طبيعة اليهود وواساه حتى لا يحزن ولايشتد على نفسه، وبين له أن اليهود لن ترضى عنه إلا أن يتبع ملتهم، وهو أمر غير وارد.

استبعد النبيﷺ مسألة إيمان اليهود تلك، ولكنه لم يستبعد أن يؤمن بعضهم، ورأى أن إيمان البعض ربما يكون سبباً في إيمان آخرين ينجيهم الله من النار، ويذهب بهم الإيمان بعيداً عن الجحيم.

واحتمالات النبي لم تضعْ هباء حيث شرح الله صدور بعض اليهود. فدخلوا معه في دينه.

إسلام عبد الله بن سلام :

وكان من أول من أسلم من اليهود، بل أولهم بإطلاق رجل من أعلمهم، ومن أعلاهم كعباً في الشرف والنسب، كانوا يحبونه قبل إسلامه، ويجلونه، وينزلونه منزلته.

أما الرجل فـ [هو من ذرية سيدنا يوسف الصديق عليه السلام حليف القواقل منَ الخزرج، الإسرائيلي ثم الأنصاري رضي الله عنه. كان اسمه الحصين فغيره النبيﷺ ، وكان عالم أهل الكتاب، وكان إسلامه في اليوم الذي دخل فيه رسول اللهﷺ دار أبي أيوب أول ما قدم، كما في رواية عبد العزيز بن صهيب عند البيهقي. وروي ابن إسحاق عن رجل من آل عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال :" **لما قدم رسول اللهﷺ نزل بقباء في بني عمرو بن عوف. فأقبل رجل حتى أخبر بقدومه..**" الحديث.

وفيه:" **فخرجت إلى رسول الله ﷺ فأسلمت ورجعت إلى أهل بيتـي**"٠

قال الحافظ عماد الدين بن كثير:" **فلعله رآه أول ما رآه بقباء واجتمع به بعد ما صار إلى دار بني النجار والله أعلم** "٠

وروي البخاري والبيهقى عن أنس، وابن إسحاق عن رجل مـن آل عبد الله بن سلام، والإمام أحمد، ويعقوب بن سفيان عن عبد الله بـن سـلام، والبيقيى عن موسى بن عقبة وعن ابن شهاب، قال: لمـا سـمعت برسـول الله ﷺ، وعرفت صفته واسمه وهيئته وزمانه الذي كنا نتوكف لـه، فكنـت مسرا بذلك صامتا عليه حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة، فلما قدم نزل بقبـاء في بني عمرو بن عوف، فأقبل رجل حتى أخبر بقدومه، وأنا في رأس نخلـة لي أعمل فيها، وعمتي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة٠ فلما سمعت الخـبر بقدوم رسول الله ﷺ كبرت٠ فقالت عمتي حين سمعت تكبيري: " **لـو كنـت سمعت بموسى بن عمران مازدت**"٠ قلت لها: "**أي عمـة وهـو والله أخـو موسى بن عمران، وعلى دينه، بعث بما بعث به**"٠ فقالت له:" **يا ابن أخـي، أهو النبي الذي كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة**[١] ؟" قلت لها:" **نعـم** "٠ قالت: "فذاك إذاً " قال :" **فخرجت إلى رسول الله ﷺ ، فلما تبينـت وجهـه عرفت أنه ليس بوجه كذاب، فكان أول شئ سمعته يقول:" افشـوا السـلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنـة بسلام**"٠

(وعند البيهقي عن أنس قال: سمع عبـد الله بـن سـلام بقـدوم النبي ﷺ فأتي النبي) فقال :" إني سائلك عن خلال لا يعلمهن إلا نبي: مـا

---

(١) نفس الساعة: بين يديها أو على قرب شديد منها كما يكون الإنسان قريبـا مـن الإنسان يحس بنفسه ٠

أول أشراط الساعة، وما أول طعام أهل الجنة ؟ وما بال الولد ينزع[١] إلى أبيه أو إلى أمه ؟ وما هذا السواد الذي في القمر؟ قال :" أخبرني بهن جبريل آنفا ۰ قال:" جبريل" ؟ قال : "نعم"۰ قال :" عدو اليهود من الملائكة"۰۰ (ثم قرأ:"قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدي وبشري للؤمنين"[٢]) قال :" أما أول أشراط الساعة: فنار تخرج على الناس من المشرق تسوقهم إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة: فزيادة كبد حوت، وأما الولد: فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت الولد، وأما السواد الذي في القمر: فإنهما كانا شمسين ۰ قال الله تعالي :" وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل"[٣] فالسواد الذي رأيت هو المحو)۰ فقال: **"أشهد ألا إله إلا الله وأنك رسول الله "۰**

ثم رجع إلى أهل بيته فأمرهم فأسلموا وكتم إسلامه۰

ثم خرج إلى رسول الله ﷺ فقال:" **يا رسول الله، إن اليهود قد علمت أني سيدهم وابن سيدهم، وأعلمهموابن أعلمهم، وأنهم قوم بهت[٤]، وأنهم إن يعملوا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بهتوني، وقالوا فيّ ما ليس فيّ، فأحب أن تدخلني بعض بيوتك"**۰ فأدخله رسول الله بعض بيوته، وأرسل إلى اليهود فدخلوا عليه فدخلوا عليه فقال:" **يا معشر يهود يا ويلكم اتقوا الله فو الله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله قد جئتكم بالحق فأسلموا** "۰ فقالوا: ما نعلمه۰ فقال:"أي رجل فيكم الحصين بن سلام ؟" قالوا:" **خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا**"۰ فقال:" أرأيتم إن **أسلم**" قالوا:" **أعاذه الله من ذلك** "۰ فقال:"**يا ابن سلام اخرج إليهم**" فخرج

---

(١)نزع الولد إلى أبيه في الشبه: ذهب (٢)البقرة : ٩٧

(٣)الإسراء : ١٢ (٤) بُهت: بضمتين وسكون جمع بَهوت صيغة مبالغة مثل صبُور وصبُر، ثم سكّن تخفيفاً۰ والبهت: الكذب والافترا،۰

عبد الله فقال:" أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، يـــا معشــر يهود اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به، فو الله إنكم لتعلمون أنه لرسول الله حقــا، تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة: اسمه وصفته، فإني أشهد أنـــه رســول الله وأومن به وأصدقه وأعرفه. قالوا:" **كذبت أنت شرنا وابن شرنا**"، وانتقصوه . قال:" **هذا الذي كنت أخاف يا رسول الله. ألم أخبرك أنهم قوم بهت، أهــل غدر وكذب وفجور ؟**" قال:" **وأظهرت إسلامي وإسلام أهل بيتــي، وأســلمت عمتي خالدة بنت الحارث وحسن إسلامها**] [١].

أسلم الحصين بن سلام وصار بتوفيق الله عبد الله بن سلام، ولم يكــن إسلامه قاعدة سار عليها اليهود، بل إن إسلامه ليعد مـــن شــواذ الأحــداث الاجتماعية في عرف اليهود، حيث ذهبوا بجملتهم إلى رفض دين رســول الله حسدا من عند أنفسهم.

ولم يعد رسول الله ﷺ يعلق على إيمانهم كبير أمل، فانصرف عـــن ذلك كله إلى أن يفاوضهم على أساس آخر قد يصلح لهم وله أن يبنوا علاقتهم عليه.

وهذا الأساس الجديد هو أساس المواطنة يتخذها الطرفان أساسا ليبنوا عليها معاهدة سلام يلتزم بها النبي وأصحابه من جهة، ويخضع لـــها اليــهود بكافة شعبهم من جهة أخري.
ولما لا والمسلمون واليهود يسكنون يثرب ويعيشون على أرضها، والمعايشـة تستحق الاشتراك والتعاون في الدفاع عن هذه الأرض ورد كل غائلة عنها؟!

ولقد فاتح النبي ﷺ أبناء يهود في أن يدخلوا معاً في معــاهدة ســلام يحترمونها جميعا بعد توقيعها، حتى يتمكن النبي من بناء دولته التـــي تضــم شعبا متحد الأهداف على أرض واضحة المعالم، تحت سماء نقية طــاهرة، لا يزعجها شئ ولا يقلقها خطر.

---

(١) سبل الهدي والرشاد جــ٣ ص ٥٥٢ وما بعدها.

ولقد وافق اليهود على أن يدخلوا مع النبي في معاهدة سلام، ووافق النبي على ذلك.

معاهدة السلام بين النبي واليهود وما اشتملت عليه :

ولم يبق بعد الموافقة من الطرفين إلا الدخول في تحديد بنود المعاهدة، ووضع معالمها، وهو الأمر الذي دخل النبي فيه مباشرة بغير إبطاء، وكتبت المعاهدة التي سنذكر بين يديك الآن بنودها.

وهذه المعاهدة قد رواها المؤرخون، ومن أوليهم ابن إسحق ولكن بغير إسناد، ثم رواها ابن كثير ولكن فيها بعض الأخطاء.

وأكمل روايات هذه الوثيقة هي ما رواه أبو عبيد القاسم بن سلام في كتابه الأموال، وسنعتمد على النسخة التي حققها محمد حامد الفقي، وهي في الصفحات ٢٠٢ إلى ٢٠٦ .

ومحقق كتاب سبل الهدي والرشاد حـ٣ أ / عبد العزيز عبد الحق حلمي، قد قام غفر الله له وجزاه خيراً بمقابلة النص الذي أورده أبو عبيد على ما ذكره ابن إسحاق وابن كثير، وهو عمل يضاف إلى ما ذكره محمد الفقي حتى تخرج الوثيقة في أكمل صورها التاريخية.

وبذلك يكون محقق كتاب سبل الهدي والرشاد لم يترك لنا عملاً يمكن أن نضيفه إلى عمله سوي أن نسأل الله له حسن الجزاء.

وعلى ذلك فإننا سنكتفي هنا - قانعين - بذكر الوثيقة على نحو ما أوردها محقق كتاب سبل الهدي والرشاد.

وها هي الوثيقة بين يديك :

[قال أبو عبيد : حدثني يحيي بن عبد الله بن بكير، وعبد الله بن صالح قالا: حدثنا الليث بن سعد قال: حدثني عقيل بن خالد عن ابن شهاب الزهري أنه قال: بلغني أن رسول ﷺ كتب بهذا الكتاب :" هذا كتاب من

محمد النبي رسول الله بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم فلحق بهم، فحل معهم وجاهد معهم: إنهم أمة واحدة دون الناس: المهاجرون من قريش على رباعتهم يتعاقلون بينهم معاقلهم الأولى وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين والمسلمين، وبنو عوف على رباعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين - ثم ذكر هذا الشرط لكل بطن من بطون الأنصار وأهل كل دار وهم: بنوا الحارث بن الخزرج، وبنو ساعدة، وبنوجشم، وبنو النجار، وبنو عمرو بن عوف، وبنو النبيت، وبنو الأوس إلى أن قال:- وإن المؤمنين لا يتركون مفرحاً (**أي مثقلاً بالدّين**) منهم أن يعينوه بالمعروف في فداء أو عقل، وإن المؤمنين المتقين أيديهم على كل من بغي وابتغى منهم دسيعة (**أي عطية**) ظلم أو إثما أو عدوانا أو فساداً بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعه ولو كان ولد أحدهم، ولا يقتل مؤمن مؤمنا في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن. والمؤمنون بعضهم موالي بعض دون الناس، وأنه من تبعنا من اليهود فإن له المعروف والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم. وأن سلم المؤمنين واحد ولا يسالم مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم، وأن كل غازية غزت يعقب بعضهم بعضاً وأن المؤمنين يبئ (**أي يكف**) بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله (**هذه المادة في ابن هشام وليست في كتاب الأموال**)، وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدي وأقومه، وأنه لا يجير مشرك ولا نفسا ولا يحول دونه على مؤمن، وأنه من اعتبط مؤمنا قتلاً (**عن بينة**) فإنه قود به إلا أن يرضي ولي المقتول بالعقل، وأن المؤمنين عليه كافة (**ولا يحل لهم إلا قيام عليه**)، وأنه لا يحل لمن أقر بما في هذه الصحيفة أو آمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا أو يؤويه، فمن نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه إلى يوم القيامة لا يقبل منه صرف ولا عدل، وأنكم ما اختلفتم فيه من شئ فإن حكمه إلى الله

والرسول، وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، فإن يهود بني عوف ومواليهم وأنفسهم أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمؤمنين دينهم إلا من ظلم أو أثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف - وكذلك ليهود كل من بني الحارث وبني جشم وبني ساعدة والأوس - وإنه لا يخرج أحد منهم إلا بإذن محمد **(وأنه لا ينحجز على ثأر جرح وإنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته إلا من ظلم وإن الله على أبر هذا وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم)** وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة **(وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم وأنه لم يأثم أمرؤ بحليفه)** وإن النصر للمظلوم وإن المدينة جوفيا حرم لأهل هذه الصحيفة **(وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم وأنه لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها)** وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله **(وأنه لا تجار قريش ولا من نصرها، وإن الله على أتقي ما في هذه الصحيفة وأبره)** وإن بينهم النصر على من دهم يثرب وإنهم إذا دعوا اليهود إلى صلح حليف لهم فإنهم يصالحونه وإن دعينا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين وعلى كل أناس حصتهم من النفقة وإن يهود الأوس ومواليهم وأنفسهم **(على مثل ما لأهل هذه الصحيفة)** مع البر المحسن **(وعند حميد الله : مع البر المحض)** من أهل هذه الصحيفة، وإن بني الشطبة بطن من جفنة وإن البر دون الإثم فلا يكسب كاسب إلا على نفسه وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره **(وأنه)** لا يحول هذا الكتاب دون ظالم ولا آثم وأنه من خرج أمن ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم وأن أولاهم بهذه الصحيفة البر المحسن **(عند حميد الله بدلاً من الجملة الأخيرة: وأن الله جار لمن بر واتقي ومحمد رسول الله ﷺ)]**.

[قال أبو عبيد: قوله بنو فلان على رباعتهم: الرباعة هي المعاقل وقد يقال فلان على رباعة قومه إذا كان المتقلد لأمورهم والوافد على الأمراء فيما ينوبهم.

وقوله: إن المؤمنين لا يتركون مفرحاً في فداء أو عقل، المفرج: المثقل بالدين. يقول: فعليهم أن يعينوه إن كان أسيراً فك من إساره وإن كان جنى جناية خطأ عقلوا عنه. وقوله: ولا يجير مشرك مالا لقريش، يعني اليهود الذين كان وادعهم يقول فليس من موادعتهم أن يجيروا أموال أعدائه ولا يعينوهم عليه. وقوله من اعتبط مؤمنا قتلا فهو قود. الاعتباط أن يقتله بريئا محرم الدم. وأصل الاعتباط في الإبل أن تنحر بلا داء يكون بها. وقوله إلا أن يرضى أولياء المقتول بالعقل فقد جعل النبي ﷺ الخيار في القود أو الدية إلى أولياء القتيل. وهذا مثل حديثه الآخر: " ومن قتل له قتيل فهو بأحد النظرين إن شاء قتل وإن شاء أخذ الدية ". وهذا يرد قول من يقول: ليس للولي في العمد أن يأخذ الدية إلا بطيب نفس من القاتل ومصالحة منه له عليها. وقوله: ولا يحل لمؤمن أن ينصر محدثا أو يؤويه: المحدث: كل من أتى حدا من حدود الله فليس لأحد منعه من إقامة الحد عليه. وهذا شبيه بقوله الآخر: (من حالت شفاعة دون حد من حدود الله فقد ضاد الله في أمره. وقوله لا يقبل منه صرف ول عدل: الصرف التوبة والعدل الفدية، قال أبو عبيد: وهذا أحب إليّ من قول من يقول الصرف الفريضة والعدل النافلة لقول الله تبارك وتعالى: " ولا يؤخذ منها عدل" فكل شئ فدي به شئ فهو عدله: قوله: وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، فهذه النفقة في الحرب خاصة فقد شرط عليهم المعاونة على عدوه ونرى أنه إنما كان يسهم لليهود إذا غزوا مع المسلمين بهذا الشرط الذي شرطه عليهم من النفقة. ولولا هذا لم يكن لهم في غنائم المسلمين سهم. وقال أبو عبيد: وقوله: وإن يهود بني عوف أمة من المؤمنين، إنما أراد نصرهم المؤمنين ومعاونتهم

إياهم على عدوهم بالنفقة التي شرطها عليهم. فأما الدين فليسوا منه في شـيء ألا تراه قد بين ذلك فقال: لليهود دينهم وللمسلمين دينهم. وقوله: ولا يوتغ إلا نفسه أي لا يهلك غيرها. يقال: قد وتغ الرجل وتغا إذ وتغ في أمـر يهلكـه، وقد أوتغه غيره.

قال أبو عبيد: وإنما كان هذا الكتاب - فيما نري - حدثان مقدم رسول الله ﷺ المدينة قبل أن يظـهر الإسلام ويقوي وقبل أن يؤمر بأخذ الجزيـة من أهل الكتاب. وكانوا ثلاث فرق: بنو قينقاع وكانوا حلفاء عبد الله بن أبـي بن سلول. فأجلاهم رسول الله ﷺ عن المدينة. ثم بـنو النضـير ثـم بنـو قريظة. فكان من إجلائه أولئك وقتله هؤلاء ما قد ذكرناه في كتابنـا هـذا. (أ.هـ)].

رواية الصحيفة وقيمتها العلمية:

وهذه الصحيفة على ما تناقلها الرواة قد وجدت فـي بعـض الكتـب بطولها، ووجدت في بعضها على شئ من الاختصار.

وأقدم من رواها كما نبهنا هو ابن إسحق ، ثم رواهـا بعـده غـيره كثيرون حيث ذكرها أبو عبيد القاسم بن سلام فـي كتابـه "**الأمـوال**" مـن طريقين، وفي كتابه " **غريب الحديث** " من طريقين كذلك.

وأخرجها الإمام أحمد مختصرة، كما أخرجها البيهقي ، وابن حـزم، وابن كثير، وأحمد بن أبي خيثمة، وغير هؤلاء.

ونحن نلاحظ على هذه الروايات ملاحظات أهمها:

١- أنها تأتي مرة مختصرة وأخري مطولة.

٢- أنها تأتي مرة متصلة وأخري مرسلة.

٣- وأنها تأتي مرة مشتملة على البنود الخاصة باليهود، ومرة تهمل ذكـر اليهود تماما.

٤- وفي جميع الأحايين نجد أن كثيرا من بنودها موزعة في كتب الحديث المعتمدة.

ومن أجل هذه الملاحظات وكثير غيرها وجدنا بعض العلماء يقولون: إنه لا يجوز الاعتماد على هذه الصحيفة في الأحكام الفقهية.

وفي مثل هذا القول نظر، إذ الصحيفة قد وردت من طرق متعددة يساند بعضها بعضاً مما يجعلها تصل عند كثير من المحدثين إلى درجة الحسن لغيره.

وهناك طائفة من العلماء تستند على هذه النتيجة لتقول: إن الوثيقة صالحة للاعتماد عليها في الأحكام الفقهية، خاصة بما يتصل بتنظيم المجمع وإرساء أصول الدولة في علاقاتها الداخلية والخارجية.

أما أنا فأري: أن هذه الصحيفة كانت ولا تزال تحت بصر أعداء الأمة يشككون فيها بقدر ما يستطيعون، وهي على منهج المحدثين تصل إلى درجة الحسن لغيره كما رأيت.

من ناحية أخرى فإننا نجد هذه الوثيقة تقرأ على مسامع الأمة في عصورها المتصلة، وما ينكر أحد صدورها عن النبي، ولا يحتج على من يثبتها في التاريخ، الأمر الذي يحملنا على القول: بأن الأمة قد تلقت هذه الصحيفة بالقبول، وليس فيها ما يدعوها للتحفظ عليه، ولم نجد أحداً من الناس عزي هذه الصحيفة لأحد غير النبي، وقال : إنها من وضعه.

هذا : وإني لا أحتاج الآن إلى أن أبين موقف هذه الصحيفة حين يتناولها علماء الفروع، فهم أبصر بمواقفهم منها، ولكنني أقول: إن هذه الصحيفة نافعة ومفيدة لكل من يتصدى للتأريخ للنبي في المدينة، وعلاقته بطوائف المجتمع الذي يدخل ضمن إدارته وللمجتمعات الأخرى المجاورة، وليس هناك من المؤرخين من يخالفنا فيما ارتأيناه، الأمر الذي يدفعنا إلى اعتماد النتيجة التي توصلنا إليها وهي : أن الصحيفة هذه بالغة الدلالة على ما

نحن بصدده من أن النبي قد عرض الإسلام على اليهود فرفضه، فدخل معهم في معاهدة سلام تلك بنودها، وعلى الطرفين أن يلتزموا بها.

فهل سيلتزم اليهود ؟.

اليهود ينقضون معاهدة السلام بالخيانة:

دخل النبي مع اليهود في عهد ملزم، وبنود يجب أن يخضع لها الجميع.

ولكن اليهود كعادتهم التي نشير إليها مراراً لا يحبون الأمن، ولا يبتغون السلام، كما أنهم لا يحبون حروباً تكون اليهود طرفاً فيها، وإنما يشهد التاريخ في كل مرة يُستشهد فيها بالتاريخ أن اليهود لا يستقرون في مجتمع إلا ويضربون أفراده بعضهم ببعض.

ولقد حاول اليهود أن يستظلوا بظل معاهدة السلام إلى حين، ثم ينبذون بها إلى النبي، حين يرون أنهم قد مدوا بأسباب قوية إلى أعداء النبي، وطوقوه معهم من كل جانب.

غير أن اليهود في فترة الهدنة التي رغبوا فيها لأنفسهم لم يصبروا على موادعة النبي والعيش معه في سلام، فعمدوا إلى التشكيك في رسالة النبي ومصداقيته، كما عمدوا إلى محاولة إيذائه وإيذاء أتباعه، وقد عمدوا أخيراً إلى التشكيك في دعوته ورسالته.

وسوف أحدثك عن هذه المستويات جميعها من خلال وقائع حفظها التاريخ عنهم وتناقلها الرواة، حتى وصلت إلينا على نحو ما قالوها أو فعلوها.

اليهود يحاولون إحراج النبي :

ولقد ظن اليهود أنهم قادرون على أن يعترضوا النبيﷺ في أصحابه أو في بعضهم يسألونه عن أشياء، لا يستطيع أن يجيب عليها، فيقع بسببها في حرج يفقد معه بعض مصداقيته.

ومن بين هذه الأشياء التي توهموها، ما تشير إليه هذه الحادثة التي أوردتها كتب الصحاح من نحو البخاري وغيرها إلى ابن مسعود شاهد العيان، وراوي القصة عن رسول الله حين شاهدها واليهود يعترضونه بالسؤال.

وخلاصة هذه الواقعة: أن النبي كان يسير في بعض طرقات المدينة متكئا على جريدة، ومعه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، حيث قابله أناس من اليهود تشاوروا فيما بينهم، فقال بعضهم نسأله ونحرجه، وأجابهم آخرون: لا تسألوه، حيث إنه إن سألتموه سيجيبكم بالحق الذي تكرهونه، وتغلب أصحاب الاتجاه الأول، فسألوا النبي عن الروح، وسكت النبي متكئا على الجريدة في يده، وعلم ابن مسعود أنه يوحي إليه، فتأخر قليلاً كما قال، ثم ذهب الوحي عن رسول الله وهو يقرأ:" **قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً**"(١).

الروح المسئول عنه هنا، هل هو جبريل أو غيره من الملائكة، أم و الروح الحيواني الذي يبعث الحياة في جسم كل شئ حى، أم هو الروح الذي يتميز به الإنسان عن سائر الحيوانات، أو هو كل ذلك ؟
أمور اختلف العلماء فيها، ولا بأس في أن يتفق العلماء أو يختلفوا، فإن

---

(١) الإسراء : ٨٥

الروح بجميع هذه المعاني من أمر الله ولا صلة له بعناصر الأرض التي تخلق منها الأجسام.

ونحن لا حاجة بنا إلى أن نضع أنفسنا في تحقيق هذه الواقعة أهي في مكة أم في المدينة، لأن ابن مسعود حين روي هذه الواقعة حدد مكانها في المدينة وزمانها بعد الهجرة، وهو شاهدها وراويها، وروايته في البخاري وغيره من كتب الصحاح.

أما اليهود فقد فاجأتهم إجابة النبي ﷺ وما كانوا ينتظرون منه أن يجيبهم بهذا الجواب، فتلاوموا فيما بينهم، حتى قال فريق لفريق: ألم نقل لكم لا تسألوه؟

غير أن اليهود جمعوا رأيهم على أن يعلقوا على النص الذي أوحى به الله إلى نبيه وفيه " **وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** "

علق اليهود على هذه الجزئية من الآية قائلين: يا محمد هل تعنينا بهذا القول أم تعني أناسا آخرين ؟، فقال النبي: بل عنيتكم أنتم، فقالوا له: هذا ليس لك فأنت تعلم أن التوراة قد نزلت علينا
وهي جامعة لكل شئ.

وهنا أنزل الله عز وجل " **قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا** "(١)

وخرج النبي من هذه الواقعة لا بأس عليه ولا حرج.
وخرج اليهود من هذه الواقعة وقد أدركوا أنهم أرادوها تحسب على النبي، وأرادها الله أن تحسب عليهم إظهارا لما ينطوي عليه نفوسهم.
ودونك واقعة أخرى وردت كذلك في كتب الصحاح، وأولها كتاب البخارى " **الجامع الصحيح** " فيما يروي بأسانيد معتمدة إلى ابن عباس رضي الله عنهما.

---

(١) الكهف : ٩

وخلاصة هذه الواقعة التي أريد أن أضعها الآن بين يـــدك هـــي أن عصابة من اليهود اجتمعوا إلى رسول الله ﷺ يريدون إحراجه بسؤاله عـــن بعض الأشياء، لا يعلمها إلا نبى، قالوا يا أبا القاسم إنا سائلوك عـــن أشـــياء فأجبنا عنها، فأراد النبي أن يستوثق ويأخذ لنفسه من أبناء اليهود، فقال لـــهم:" **سلوني عما شئتـــم ولكـــن اجعلوا لي ذمة الله عز وجل، وما أخذ يعقـــوب على بنيه لئن حدثتكم شيئاً لتُبايعنيّ**" ، فأعطوه على ذلك عهد الله وميثاقـــه قائلين: هذا لك.

فطلب إليهم النبي ﷺ أن يسألوه عما بدا لهم.

فسألوه عن أشيائهم التي بدت لهم:

سألوه عن أي طعام حرّم يعقوب (**إسرائيل**) على نفسه من قبـــل أن تنزل التوراة.

فأجابهم النبي قائلاً: " **فأنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موســـى: هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضاً طال سقمه فنذر لئن عافـــاه الله عـــز وجل ليُحَرمنّ أحب الطعام والشراب، وكان أحب الطعام إليه لحمـــان الإبـــل وأحب الشراب إليه ألبانها**".

والمرض الذي كان يشتكيه يعقوب عليه السلام هو ما نعرفـــه اليـــوم بعرق النسا، وقد نصح له أن يداوم على أكل لحوم الإبل ويشرب من ألبانـــها، ونذر ما نذرعلى ما هو وارد فيما ذكره النبي ﷺ.

فلما سمع اليهود إجابة النبي وسؤالهم عن درجة الصدق فيها على حد علمهم، أجابوه بأنه قد صدق، وأشهد النبي ربه على ما قالوه.

ثم سألوه عن الخلق في الأرحام كيف يكون الجنين ذكـــراً، وكيـــف يكون الجنين أنثى ؟

. فأجابهم النبي ﷺ بما عرفه العلم اليوم أن ماء المرأة إن علا وسبق إليه نظيره من ماء الرجل جاءت المخلوقة أنثى، أما إن علا ماء الرجل وسبق إلى البويضة جزء غير مناظر من ماء الرجل، جاء المخلوق ذكراً .

وسأل النبي اليهود أهم يعلمون ذلك أم .لا ، فقالوا: نعلمه، ونشهد أنك صادق فيما قلت، فقال النبي : اللهم فاشهد.

ثم سألوه: كيف ينام النبي الأمي ؟

فأجابهم النبيﷺ أنه تنام عيناه ولا ينام قلبه، ثم استحلفهم أيجدون هذا في كتبهم أم لا، فأجابوه : أنهم يجدونه. فقال النبي: اللهم فاشهد.

ثم سألوه عن البرق والرعد.

فأجابهم النبي أن هذا يرجع إلى السحب واحتكاكها، وما يتولد عن هذا الاحتكاك من نار وطاقة وصوت، وأن لهذه السحب ملك موكل بها، ثم سألهم أتعلمون صدق ذلك من كتبكم، فقالوا اللهم نعم، وقال النبي: اللهم فاشهد.

ثم سألوه عمن يليه من الملائكة ومن يأتيه بالوحي منهم .

فأجاب النبيﷺ الذي يليني من الملائكة ويأتي بالوحي إلى هو جبريل.

فقال اليهود: لقد آن لنا أن نتحلل من عهدك، فقد صدقتنا في جميع إجاباتك وأوشكنا أن نتبعك، غير أنك قلت: إن وليك من الملائكة جبريل، أليس كذلك ؟ ومجمل كلام النبي أنه يقول لهم: بلى، فقالوا له لا نتبعك ووليك جبريل، فقال النبي وما يمنعكم من ذلك، قالوا: إن جبريل عدونا من الملائكة، وهو الذي نزل علينا بالعذاب.

وهنا ينزل الوحي لينهي هذا النقاش بقوله تعالى : " **قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه وهدي وبشـــري للمؤمنين * من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عـدو للكافرين**"(١) .

أرأيت إلى هؤلاء اليهود كيف يتعنتون .

التشويش على النبي في رسالته:

هكذا رأينا كيف شوش اليهود على النبي فـي ذاتـه، أو حـاولوا أن يفعلوا ذلك، ولنا الآن أن نحاول أن نستعرض ما شوش به اليهود على النبـي في رسالته وهو كثير، وسنكتفي منه بذكر مثال واحد.

وهذا المثال يدور كله حول الحروف المقطعة في القرآن الكريم.

وأنت خبير أن الحروف المقطعة في أوائل السور لـو أننـا أسـقطنا المكرر منها، كان عددها أربعة عشر حرفاً يجمعها هذه العبارة :(**ألم يسـطع نص حق كره**).

وهي واردة في تسع وعشرين سورة من القرآن الكريم.

ولو أننا أحصيناها بغير إسقاط المكرر، كان مجموع حروفها خمسـا وسبعين حرفاً.

فما قصة هذه الحروف المقطعة مع اليهود؟

في رواية نسبت إلى ابن عباس أوردها ابن إسحق بغير إسناد، وقـد جاءت عند البخاري في تاريخه وابن جرير من طريق ابن إسحق عن الكلبـي عن أبي صالح عن ابن عباس عن جابر بن عبد الله.

---

(١) البقرة : ٩٧ ، ٩٨

ورواها يونس بن بُكير عن ابن إسحق عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة عن أبي سعيد.

ورواها ابن المنذر من وجه آخر عن ابن جرير مفصّلة.

وخلاصة هذه القصة على نحو ما رُوِيت، أن النبي كان يقرأ القرآن الكريم فقرأ يفتتح البقرة " **ألم** "، ومر به أبو ياسر بن أخطب أخو حييّ، فسمع منه، وعاد إلى حييّ بنشوة الذي وجد ضالته، فأخبره بما سمع، وانتشى حيي لذلك وفرح به، واستوثق من أخيه ألنت سمعته يقرأ، وأجاب أخوه: أن نعم، فجمع أنصاره من أبناء يهود وذهب مسرعاً إلى النبي، وسأله إن كانت هذه الحروف قد نزلت عليه، فأجابه النبي بأنها قد نزلت، وظل حييَ يسأله عما نزل من هذه الحروف المقطعة والنبي يجيبه، وحييّ يحول الحروف إلى أرقام على طريقة عد أبجد هوز، ثم قال للنبي: إذا مدة رسالتك محددة.

وأنت يا صاحبي ترى: ما الطريقة العلمية التي اعتمد عليها حييّ بن أخطب، وجزم من خلالها أن مدة رسالة النبي محددة ؟.

وأنا سأجيبك عن هذا السؤال لتعلم معي منزلة العلم، والاعتداء على أساليبه بما يشينه أو يشين المعتَدِي عليه، حين نريد الدقة في الأحكام والنصاعة في القول.

عند اليهود في كل العصور قاعدة بلهاء تقول: (**ما من حرف إلا ويقابله رقم**) ووضعوا أمام كل حرف الرقم المقابل له، واختلفوا على أنفسهم فصاروا مذهَبَينَ، للمغاربة طريقتهم، ولأهل المشرق طريقتهم، والكل يهود، وبين الطريقتين ما بين المشرق والمغرب من المسافات.

وبناء على هذه الطريقة البلهاء ذكروا ما ذكروه أيام النبي ﷺ ، معتمدين على مالهم من رصيد في نفوس الناس من سكان جزيرة العرب قبل بعثة النبي ﷺ ، حيث قد منحهم العرب ثقتهم باعتبار أن لهم صلة بالسماء، فيهم أهل كتاب، وهم أتباع سيدنا موسى النبي، وورثة التوراة عنه.

غير أن ما ذكروه في أيام النبي من أن كل حرف يقابله عدد أو رقم، قد رفضه المسلمون رفضاً قاطعا، بل إن ابن عباس قد نسبه إلى السحر، وابن عباس هو راوي هذا الأثر كما رأيت، ومع ذلك فقد حذر الأمة من أن تلتفت إليه أو تتأثر به.

ومع ذلك فقد ظل اليهود في عصور متوالية، وإلى العصر الذي اعيش فيه، وأسطر لك ما أسطره، وهو أواخر سنة ألفين، ينشرون بين المسلمين هذه القاعدة التي هي — **ما من حرف إلا ويقابله رقم** — وقد أسسوا عليها ديانات من أهمها — **البابية والبهائية** — وسخّروا أناساً يعلنون أن رسالة النبي قد انتهت، وقد أعقبها رسالة أخري جاء بها الباب — **على محمد الشيزازى** — ومن بعده -**حسين على المازندراني إله البهائية**-

والمسلون يسمعون، وكان عليهم أن يسخروا من هذه القاعدة، ولكنها للأسف انتشرت بينهم انتشاراً مذريا، وبني العامة عليها في بعض القري والنجوع شيئاً من مصائرهم، ومستقبل أيامهم.

وأياما كان الأمر، فإن اليهود قد حاولوا، ومازالوا يحاولون أن يشككوا في رسالة النبي، أو يشوشوا عليها في أقل القليل، دون أن يصطنعوا لذلك أساليب المنطق، ولا قوانين العلم، ولا أصول العقل.

اليهود تتطاول على النبي وتعتدى على الذات الإلهية:

ولما فشل اليهود بعد معاهدة السلام من استغلال هذه المعاهدة يتخذونها مظلة أمان ويشوشون على النبي ورسالته ، ضاقت بهم صدورهم، وظهر هذا الضيق في شكل استفزازات للنبي وأصحابه.

وكتب السير تروي أمثلة كثيرة من هذه الاستفزازت.

ومما روته كتب السير، وتابعتها في ذلك كتب الأحاديث الصحاح من نحو البخاري، أن أبا بكر الصديق ذهب في شراء سلعة من سوق اليهود، وسأل اليهودي عن ثمنها، فقال اليهودي لأبي بكر مستفزا له: والذي اصطفي موسى على العالمين إن هذه السلعة ثمنها كذا، ولما رأي أبو بكر أن اليهودي قد عمد إلى استفزازه، صفعه على وجهه، فانطلق اليهودي إلى النبي يشكو صاحبه إليه، وامتص النبي غضب المسلمين، وحافظ النبي على وحدة المجتمع بقوله ناصحاً: " **لا تفضلوني على موسى**"

وفي بعض ماروته كتب السير أن آحاد اليهود لم يقدروا على ضبط انفعالاتهم، فأخذوا يتطاولون حتى على الذات الإلهية.

ولقد سجلت بعض الروايات، أن الصديق أبا بكر أقبل يوماً على فنحاص اليهودي وطلب إليه أن يلتزم هو وأصحابه بمعاهدة السلام، وأن يكفوا عن إيذاء النبي وأصحابه، وأن لا يعرضوا لهم بسوء من فُحْش القول وهجر الكلام، وطمع أبو بكر في إسلام فنحاص فرغبه ورهبه حين يقبل على ربه يوم القيامة، فقال له فنحاص: إنا عن ربك لفي غني، وإنه إلينا لمحتاج، وإن صاحبكم ليحرم عليكم الربا ويعرضه علينا.

ولم يُطق أبو بكر سماع كلام فنحاص، فرد عليه بما يكـــافئ قولـــه، وقال له: يا فنحاص لولا ما بيننا وبينكم من معاهدة السلام، لكان لـــي معـــك موقف اخر يكافئ ما تطاولت به على الذات الإلهية.

وهكذا يتضح لنا ما ظهر على اليهود من علامات العداوة والبغضـــاء يوجهونها إلى النبي، أو يتطاولون بها على الذات الإلهية.

اليهود يصعدون الإيذاء ضد النبي :

والذي يظهر لنا أن النبي مع هذه الاستفزازات قد لجـــأ إلـــى ســـعة الصدر، ورفض أن يعلن أنه قد خرج من معاهدتهم، ونبذ إليهم بنودها، مـــع أن اليهود قد وصلوا في الاستفزاز إلى منتهاه، وحين نصحـــهم النبـــي بعـــد غزوة بدر، وطلب إليهم أن يكفوا عن استفزازاتهم، وإلا فعل الله بهم ما فعـــل بالمشركين يوم بدر، قالوا له: لا يغرنّك يا محمد أنك قابلت أناساً لا بصر لـــهم بالحرب، وانتصرت عليهم، فوالله لو قابلْتنا لتعلمن أنا نحن الناس.

عجيب والله أن يسمع النبي هذا الكلام من أناس تربطه وإياهم معاهدة سلام، غير أنها أخلاق اليهود وكفى.

رأي اليهود أن النبي لم يستخفه هذه الاستفزازات فطمعوا في إيذائه.

وكان من أول ما آذوه به أنهم قد سحروا له، وأوكلوا أمر سحره إلـــى لبيد ابن الأعصم في حديث رواه مسلم وغيره.

وبيّن الله له ما صنع اليهود به، كما بيّن له مكـــان الســـحر وكيفيـــة استخراجه، ومع ذلك لم يعلن النبي الحرب عليهم، ولم يعلنهم أنه قد خرج من معاهدة السلام التي تربطه بهم من خلال بنود وقعوا عليها جميعاً.

والسؤال الآن هو: تُري لماذا لم يعلن النبي الحـــرب علـــى اليـــهود ويخرج من معاهدة السلام ؟

والجواب فيما أري أن النبي لم يجزم بأن اليهود قــد خرجــوا مــن معاهدة السلام بهذه الاستفزازات إذ هو يحتمل أن تكون هذه الاستفزازت قــد صدرت عن آحاد من اليهود، وهي لا تعبر عن رأي جماعتهم٠

وفي قصارى القول، أن النبي يكون قد رأي في هــذه الاســتفزازات أنها قرائن تدل على أن اليهود يرغبون في الخروج من معاهدة السلام معــه ولكنها لا تصل إلى حد الدليل، والشأن في النبي أنه لا يبنــي قــرارا علــى قرينة، ولا تصرفاً على احتمال، وإنما النبي يتخذ قراراته على أســاس مــن الدليل تعززه القرائن، ويبني تصرفه على أساس من مقدمات يقينية نتائجــها مقطوع بها٠

ولذا فإن النبيﷺ ظل ملتزماً بمعاهدة السلام لا يخرج عنها، إلى أن فاجأته أحداث كان لا بد أن يتصرف طبقاً لها، ويتجاوب معها بالأسلوب الذي يكافئها٠

خيانات بني قينقاع ونبذ هم لمعاهدة السلام

******

ظل اليهود يناوشون النبي ﷺ ، ويقذفون أصحابه بقوارص الكلم، والنبي يحتمل منهم كل سوء، ويتجاوز لهم عن كل خطيئة لأمرين لا يمكن للباحث أن يخطئهما.

وأحد هذين الأمرين: قد أشرنا إليه من قبل، وهو: أن في طباع النبي ﷺ أنه لا ينقض معاهدة بالظنة، ولا ينبذ لأحد بعهوده إلا إذا بدأ هو أو لا بنبذ عهوده.

وما حدث من اليهود يحتمل الجدل حوله كأن يقال: إن هذه المشاغبات مهما كثرت فإنها لا تعبر إلا عن مواقف أصحابها،وهي مواقف فردية على كل حال، لا يجوز بسببها أن تنقض المعاهدات، وإنما الجائز الوحيد معها هو أن نحتمل أصحابها، وأن نتجاوز عن خطاياهم، أو نعاقبهم عقوبة فردية بقدر ما صدر عنهم من مخالفات.

وما دام الأمر يحتمل هذا اللون من الجدل، فإنه في طباع النبي ﷺ أن يحمل هذه المخالفات على أحسن ما يمكن أن تحمل عليه، وقصارى ما تدل عليه هذه المخالفات — والحالة هذه — أنها تكون قرينة على أن اليهود يرغبون في نقض المعاهدة، ولا ترقى إلى مرتبة الدليل، والنبي لا يكتفي بالقرائن في عظائم الأمور، واتخاذ القرارات المناسبة في المواقف الخطيرة، وإنما يكظم النبي غيظه إلى أن يظهر له الدليل القطعي فيتصرف على أساس منه.

والأمر الثاني: الذي حمل النبي على أن يحتمل أذى اليهود، وتطاولهم عليه وعلى دعوته وأصحابه هو: ما كان بين بعضهم وبين بعض بطون الخزرج من عهود وصداقات، خاصة هذا البطن الذي يركب سنامه عبد الله بن أبي بن سلول، وهو رجل كان يظهر الإسلام ويبطن الكفر، وله من الخزرجيين من يتابعونه على نفاقه، والنبي قلق على وحدة الصف أن تنصرم، وعلى اتحاد المسلمين أن تزحف إليه الفرقة.

حرص النبي إذاً على معاهدة السلام بينه وبين اليهود جميعاً، وبنو قينقاع منهم على وجه الخصوص.

وخصوصية بني قينقاع كان سببها أنهم كانوا يقيمون على مقربة شديدة من سكان المدينة الأصليين، بل إنا لنستطيع القول أنهم كانوا يخالطون بعض بطون الأنصار مساكنهم وربوع سكناهم.

معركة بدر وعزوف اليهود عن الاشتراك فيها:

وجاءت معركة بدر، وعزف اليهود عن أن يشتركوا فيها، مع أنها تعد نوعاً من الاعتداء على المدينة، باعتبار أن كفار قريش هم الخطر الداهم في كل حين الذي يحسب له سكان المدينة وعلى رأسهم النبي ﷺ كل حساب.

وساقت الأسباب إلى موقعة بدر، وتهيأت الظروف، والمسلمون قلة، وأيديهم لا تملك شيئاً ذا بال، ولم يحاول النبي أن يستنفر اليهود إلى القتال معه، ولم يدُرْ في ذهنه أن يمنعهم إن هم ساروا معه إلى القتال.

ولهذا الموقف من النبي دلالته التاريخية، إذ أن النبي لم يتخذ هذا الموقف من فراغ، وفي مصلحته أن يقبل انضمام اليهود إلى صفوف المسلمين يقاتلون أعداء الوطن والدين، غير أن الذي أفهمه أن النبي قد عزف

عن دعوتهم إلى القتال، لعلمه **أولاً**: أنهم لا يخلصون له ولا لدعوته، ويتمنون لو أن أحداً من الناس خلصهم من النبي ومن هذه الدعوة الجديدة، ولتجربته مع اليهود التي تؤكد العامل الأولي وتقويه، ثم إنه من جهة ثالثة يحتمل احتمالاً يقرب من اليقين أن اليهود بينهم وبين قريش مراسلات ومكاتبات يتآمرون فيها معاً على النبي، ويدرسون ما يحيط به وبهم من أمور. بغية الانتهاء إلى قرار حاسم في شأن النبي ودعوته وأصحابه.

أما اليهود جميعاً وبنو قينقاع على وجه الخصوص، فإنه في حدود المقطوع به، لم يخِفْ واحد منهم لنصرة النبي أو الوقوف إلى جواره، ولو سألهم سائل عن حقيقة موقفهم، والدوافع المؤدية له، لقالوا بصوت عال: إن هذه المعركة لا ناقة لنا فيها ولا جمل، وإنها لا علاقة لها بالمعاهدة التي وقعناها مع النبي، لأنها معركة قد دارت رحاها على أرض بدر خارج حدود المدينة.

وأنت خبير يا صاحبي أن اليهود من أقدر الناس على تزييف الحقائق وخلط الأوراق، والتبرير الأحمق لكل مخالفة ظاهرة.

وأكبر الظن عندي أن يهود بني قينقاع على وجه الخصوص قد مدوا لقريش يد المعونة في بدر بشكل ما من الأشكال، على نحو ما سيفعل يهود بني النضير بعد من مد يد العون لقريش في غزوة أحد، وعلى نحو ما سيفعل بنو النضير من مديد العون لقريش وحلفائها في غزوة الأحزاب.

والذي يقوي هذا الظن عندي لقاء النبي بهم في سوقهم، وتوجيه أشد [illegible]م بعد الانتهاء من معركة بدر.

النبي مع بني قينقاع في سوقهم:

عاد النبي فرحاً بأعجوبة النصر في بدر الذي مــنّ الله عليــه بــه، واجتهد هو وأصحابه في شكر هذه النعمة، حيث منّ الله عليهم بيوم الفرقــان، يوم التقي الجمعان.

ولأمر ما لا تتوفر مقدماته بادئ الرأي، بدأ اليهود من بنــي قينقــاع يستفزون المسلمين استفزازاً غير مبرر، ويحاولون أن يوجهوا الإهانــة تلــو الإهانة للنبيﷺ والمسلمين معه، والنبي يحتملهم، ويفسح لهم فــي صــدره، ويرخي لهم في حبال الصبر طالما كان في قوس الصبر منزع، فلمــا اشــتد على النبي الأمر، ووقع في صدره ما وقع من اتصال اليهود من بني قينقــاع بقريش يوم بدر على وجه الخيانة للنبي، بمد يد المعونة لأعدائه من قريــش، وتخاذلهم عن نصرته، ومالجأوا إليه الآن من محاولة اســتفزاز المســلمين، رأي النبي أن يذهب إليهم يعظهم إن اتسعت قلوبهم للموعظة، ويخوفهم بطش ربهم بهم إن هم أصروا على عنادهم وركبوا رءوسهم، فذهــب إليــهم فــي سوقهم وجمعهم أمام أحد آطامهم، ولسوقهم أيامئذ جلبة، وناس يقصدون هــذا السوق من البطون والأصقاع، جمع النبي يهود بنــي قينقــاع فــي ســوقهم وعرض عليهم الإسلام أن يعتنقوه، فأبوا عليه هذا العرض أشد الإباء، فأقــام عليهم حجته حين ذكرهم بأنه هو النبي الذي يعرفون صفته في التــوراة، لا يخطئهم منها صفة، حتى أصحبوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، فردوا عليــه قوله وحجته وزعموا أنهم لا يعرفون من ذلك شيئاً، وأن النبي الذي ينتظرونه لم يأت بعد.

والشئ العجيب أن اليهود يردون على النبي قوله وحجته، برفضهم لنبوته، وهم الذين كانوا يستفتحون به من قبل على الذين كفروا، **فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الظالمين**.

لما رفض اليهود أن يؤمنوا بنبوته ، طلب إليهم أن يلتزموا بنود معاهدة السلام المبرمة بينه وبينهم، وإلا أوقع الله بهم ما أوقعه بقريش يوم الفرقان.

وهنا رد اليهود من بني قينقاع بصلف وغضب قائلين: يا محمد لا يغرنك أنك قد قابلت قوماً لا بصر لهم بالحرب فنلت منهم فرصة، أما والله لو قابلتنا لتعلمن أنا نحن الناس.

ولقد واكب القرآن الكريم هذا النقاش بين النبي وبين بني قينقاع ، فقال الله تعالى يواجه هذا الغضب وهذا الصلف بما يكافئه من التحذير والوعيد " **قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد* قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخري كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار** "(١)

وإذا كان يهود بني قينقاع قد اغتروا بأموالهم وممتلكاتهم، فإن القرآن الكريم يذكر قبيل الآيات التي ذكرتها لك قوله تعالى: " **إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وقود النار كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب** "(٢)

---

(١)آل عمران: ١٢ ، ١٣ (٢)آل عمران: ١٠ ، ١١

ولقد عاد النبي ﷺ إلي منزله يساوره شئ من الخوف أن يكيد اليهود له، وأن يتفقو مع حلفائهم من الخزرج على ضرب وحدة المسلمين، وأن يتآمروا مع أصحاب المصالح من قريش الذين يناصبون النبي العداء في خيانات تدبر بليل، وأضرب من المكر ليس النبي الآن مستعداً لمواجهتها.

والقرآن الكريم يواجه هذه الحالة النفسية للنبي ويخاطبه في هذا الشأن كله قائلاً له "**إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون* الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون* فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون* وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين* ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون* وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شئ في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون**"(١)

خط آخر من الخداع والتضليل:

لقد رأيت يا صاحبي اليهود وقد استعملوا في الخروج على عهود النبي وسائل شتي.

فهم قد حاولوا أن ينالوا من النبي في شخصه.

وهم قد حاولوا أن ينالوا من النبي في شخصيته.

وهم قد حاولوا أن ينالوا من النبي في دعوته.

وهم قد حاولوا أن ينالوا من النبي بالتطاول على ربه وخالقه.

وهم قد حاولوا أن ينالوا من النبي في أصحابه.

ونحن قد ذكرنا لك أمثلة من هذا كله هي منك غير بعيد.

(١)الأنفاق: ٥٥، ٦٠

وأحب أن ألفت نظرك الآن إلى أسلوب آخر اتبعوه مع النبي فيه كثير من الحيل ، وهو يعبر بذاته عن جانب من أخلاق اليهود ، لا يرى أحدهم على نفسه ولا على أمته من بأس إذا هو اتبعه .

مسألة تحويل القبلة:

وهذا الأسلوب الجديد يبدو لنا من موقف يهود بني قينقاع على الخصوص ، من قبلة النبي يتوجه إليها هو وأصحابه في صلاته .

وبيان ذلك أن النبي حين جاء من مكة إلى المدينة مهاجرا ، إنما قد جاء وقبلته في الصلاة إلى بيت المقدس طيبه الله وعظمه ، وبارك فيه وبارك حوله **(وقد فعل)** .

وظنت اليهود ، كما ظن كتابهم من المعاصرين أن النبي قد اتخذ بيت المقدس قبلة له مجاملة لليهود ، وموادعة لهم وممالأة لأشخاصهم وجماعاتهم.

وهم في اعتقادهم هذا قد تجاوزوا كل حد تسمح به المناهج العلمية ، أو الفطر السليمة .

وأبسط ما يقال هنا أن النبي لم يتجه إلى بيت المقدس في الصلاة حين هاجر وأصبح جارا لليهود ، وإنما النبي قد اتجه إلى بيت المقدس وهو في مكة أول ما فرضت الصلاة عليه ، فلما هاجر ظل على هذه القبلة يتجه إليها في صلاته ستة عشر شهرا وشيء من شهر .

وهو في هذه المدة كلها كان يزداد شوقه يوما بعد يوم إلى أن يتجه إلى البيت الحرام ، البيت الذي بناه إبراهيم ، وجعله الله أول بيت وضع للناس بمكة المكرمة شرفها الله وشرف البيت العتيق الكائن بها .

ظل النبي تتضاعف أشواقه يوماً بعد يوم إلى أن من الله عليه ، فأمره أن يتخذ من البيت الحرام قبلة له .

وقبل أن يأمره بالتحول إلى البيت الحرام ، بين له أن السفهاء من الناس ، وهم اليهود والمنافقون سيسألونه عن تحوله سؤالاً مباشراً قائلين له ولأصحابه: ما ولاكم عن قبلتكم التي كنتم عليها وهى القبلة التي كان عليها جميع الأنبياء والمرسلين .

وبين الله لنبيه انه يجب عليه أن يرد هذا السؤال ، وينير أصحابه بردود ثلاثة:

أولها : أن الله له المشرق والمغرب ، لا يحكمه زمان ولا مكان ، ولا يفضل عنده مكان على مكان لذات المكان ، وإنما يفضل مكان على مكان بتفضيل الله له " **قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم** "[١].

وثانياً : أن الله قد جعل أمة الإسلام أمة وسطا أو عدولاً ، من أهم وظائفهم أنهم سيشهدون على الأمم قبلهم يوم القيامة ، وأن رسلهم بلغوهم رسالات ربهم .

والشاهد لابد أن يجمع ما للمشهود عليه من مميزات ، ويعلو عليه .

ومما كان للأمم السالفة أنهم اتخذوا المسجد الأقصى قبلة ، فمنح الله المسلمين هذه الميزة ، ثم زادهم أن وجههم إلى البيت الذي بناه إبراهيم في وسط من الأرض ، وجعله رب إبراهيم والناس والخلق جميعاً أول بيت وضع للناس .

---

(١) البقرة : ١٤٢

وهذه الأمة الوسط حين قدر لها أن تشهد على الأمم بما لها من مميزات لم يجعل لأحد شهيداً عليها إلا النبي محمد ﷺ الذي جمعت له جميع الميزات " **وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا** " (١)

وثالثها : أن الله قد أمر النبي أن يقول للسفهاء حين يعترضون عليه ، إن الله قد جعل تحويل القبلة غرْبالا ، يهز به المسلمين هزا فيُبقي على صحيحهم وسليمهم ، وينحي عنهم ضعيف الإيمان ، حتى يستقبل بهم الدعوة بالدولة ، أو الدولة بالدعوة " **وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لتعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه** "(٢) .

وبعد أن أهّل الله النبي للنقاش ، انزل عليه الأمر بالاتجاه إلى البيت الحرام في الصلاة ، في غلاف من تصوير حالة النبي النفسية ، قبل أن ينزل عليه الأمر بتحويل القبلة ، ممهوراً بخاتم النعمة التي طالما أحاط الله نبيه بها " **قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره وان الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون** " (٣) .

هذه هي مسألة تحويل القبلة بتمامها كما سجلها التاريخ ، وكما جاءت في القرآن الكريم وتناقلها الرواة الذين اختصوا برواية الحديث عن النبي ﷺ . ومسألة القبلة فى الصلاة مسألة تخص المسلمين الذين تابعوا النبي

(١، ٢) البقرة : ١٤٣

(٣) البقرة : ١٤٤

على دينه ، وآمنوا بما جاء به ، ليس هناك أدنى علاقة لغير المسلمين بهذه المسألة لا من قريب ولا من بعيد .

ومع هذه الحقيقة الساطعة رأينا اليهود عامة وبني قينقاع على وجه الخصوص ، قد اتخذوا من هذه المسألة تُكأة يشوشون بها على النبي ودعوته ، ويقولون للناس : ها هو محمد الذي يدعي أنه نبي لا يثبت على حال واحدة في أمر من أخص خواصه الدينية ، وهو مسألة القبلة ، حيث اتخذ أول أمرد من بيت المقدس قبلة له ، ثم عاد فاتخذ من البيت الحرام بمكة قبلة يتوجه إليها في صلاته ودعائه ، ويضيف اليهود أن هذا التردد لا يليق بالأنبياء .

وظل هؤلاء اليهود يرددون هذه المفتريات بين الناس ، ظناً منهم أنهم قادرون على صرف الناس عنه وعن دعوته .

ولم ينصرف الناس عن النبي ، ولم ينصرف الناس عن دعوة النبي بل ظلوا حوله يعتنقون دينه ، ويُسْلمون له قيادهم في إخلاص وحماس لا نظير لهم .

ولم ييأس اليهود ، ولم يسمحوا لهذا الحادث – **حادث تحويل القبلة** – أن يمر دون أن يستثمروه من وجه آخر ، ماداموا قد فشلوا في وجههم هذا .

والوجه الآخر الذي أرادوا أن يتجهوا بكليتهم إليه هو أنهم قد رأوا أن النبي ﷺ طامع في إيمانهم راغب في أن يتبعوه ، ورأى اليهود أن هذه فرصة سانحة يمكن استغلالها كي يضربوا والحديد ساخن ، فرأى كبارهم أنه يجب عليهم الآن وبأسرع وقت ممكن أن يذهبوا إلى النبي يعرضون عليه أنهم جاهزون لاتباعه على دينه ، لو أنه عاد وولى وجهه شطر بيت المقدس في صلاته ، وأمر أصحابه أن يفعلوا مثل ما يفعل .

وقال اليهود في أنفسهم : نحن أصحاب الجولة في كل حال .

فإن قبل النبي تأكد أصحابه أن المسألة ليست وحيا ، وإنما هي مسألة مصلحية بحتة ، فحين اتجه إلى بيت المقدس أولاً كان دافعه لذلك مجاملة اليهود ، وحين اتجه إلى البيت الحرام كان دافعه هوى النفس والعصبية للأهل والعرق ومكان المولد والنشأة ، ثم حين قبل منا أن يعود إلى المسجد الأقصى بالتفاوض، إنما قبل طمعاً في إسلامنا كي تكثر بنا أعداد تابعيه وتقوى بنا شوكته .

هذا كله على فرض أنه يقبل ما عرضناه عليه من أن يعود إلى المسجد الأقصى ويتخذ منه قبلة مخدوعاً بأننا سنتبعه .

أما إذا رفض ما سنعرضه عليه فإن الجولة أيضا ستكون لنا ، بأننا سنعلن بين الناس – **ومنهم خاصته** – أن الأنبياء جميعاً ومنهم إبراهيم أبو الأنبياء، قد اتجهوا في صلاتهم إلى المسجد الأقصى واتخذوا منه قبلة ، وهو حين يتجه إلى البيت الحرام يكون قد خرج عن سمت الأنبياء وطريقهم الذي اتبعوه ، وليس لذلك من معنى إلا أن يكون محمدٌ هذا خارج عن الأنبياء وليس منهم كما يدعي .

ونشط اليهود إلى تنفيذ ما أرادوه ، وعرضوا على النبي ما عرضوه عليه ، يريدون المكر به والكيد لدينه .

ورفض النبي قطعاً ما عرضوه عليه ، وبصره القرآن بحقيقة أمرهم

" ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم وما بعضهم بتابع قبلة بعض ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذاً لمن الظالمين " [1] .

هكذا فكر اليهود في موضوع القبلة .

---

(١) البقرة : ١٤٥

وهكذا حاول اليهود أن ينفذوا ما فكروا فيه .

وهكذا كشف الله كيد اليهود ومكرهم فأنزل من الآيات ما يبين حقيقة أمرهم.

فلما عرضوا على النبي أن يتبعهم على قبلتهم مقابل أن يتابعوه على دينه ، رفض النبي هذا العرض ولم يقبله ، وما كان له أن يقبله .

ولما أشاع اليهود بين الناس ما أشاعوه عن تردد النبي في قبلته ، وأنه استقر على قبله ليست هي قبلة الأنبياء ، لم تجد هذه الإشاعة صدى لها في المجتمع المسلم في عصر المبعث ، وهى لم تجد لها صدى بعد عصر المبعث برغم إصرارهم على تردادها ، ومتابعة إشاعتها في كل عصر ، وفى كل مجتمع.

وباء اليهود في موضوع القبلة واستغلالها بالخسران المبين .

قصة كعب بن الأشرف :

غير أن اليهود لم ييأسوا من مضايقتهم للنبي من خلال هذا الأسلوب الجديد الذي نحن بصدد عرضه بين يديك الآن ، فلجأوا إلى قصة كعب بن الأشرف مع النبي ، وحاولوا استغلالها ، علهم يجدون فيها ما يُشبع أنفسهم ، ويتفق مع أهوائهم، ويحقق لهم غاياتهم.

فمن كعب بن الشرف هذا ؟ وما علاقته باليهود ؟ في كتب السير والتاريخ والحديث كلام مستفيض عن كعب بن الأشرف ، وعن علاقته باليهود في المدينة .

ومن بين ما ذكره هؤلاء ما تحدث به صاحب المواهب اللدنية عن صفات كعب ، وعن علاقاته باليهود ، حيث قال :[**إن ابن الأشرف كان طويلا جسيما ذا بطن وهامة ، شاعراً مجيدا ، ساد يهود الحجاز بكثرة ماله ،**

فكان يعطى أحبار يهود ويصلهم ، فلما قدم النبي ﷺ المدينة ، جاءه أحبار اليهود من بني قينقاع وبنى قريظة لأخذ صلته على عادتهم فقال لهم : ما عندكم من أمر هذا الرجل ؟ قالوا هو الذي كنا ننتظر ما أنكرنا من نعوته شيئا ، فقال لهم : قد حُرمتم كثيراً من الخير ، ارجعوا إلى أهليكم فإن الحقوق في مالي كثيرة ، فرجعوا عنه خائبين، ثم رجعوا إليه فقالوا له : إنا تعجلنا فيما أخبرناك به أولا ، ولما استوثقنا علمنا أننا أخطأنا وليس هو النبي المنتظر ، فرضى عنهم ووصلهم ، وجعل لكل من تابعهم من الأحبار شيئاً من ماله] (١)

وأنت تطالع هذه الكلمات فتستشعر شيئا منها من أخبار اليهود غير يسير ، وتستطلع منها كذلك شيئا غير يسير مما ينطوي عليه قلب كعب من حقد على النبي وعلى المسلمين ، وهو حقد غير معلوم السبب ، إلا أن يكون السبب هو علاقة كل شقي على هذه الأرض بالمصلحين والأنبياء .

وظل كعب على عداوته للنبي لا يُبْديها كأنها الجمر تحت الرماد ، حتى جاءت غزوة بدر ، أو معركة الفرقان ، وانتصر فيها النبي ﷺ على قلة العدد والعدة ، فَشَرِق اليهود بنصر النبي والمسلمين وغُص به كعب بن الأشرف، وازدادت الغصة بهم جميعاً حين [قدم البشيران- زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة- بقتل من قتل من قريش ببدر ، وأسر من أسر منهم ، قال كعب : أحق هذا ؟ أترون أن محمداً قتل هؤلاء الذين يسمى هذان الرجلان فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس . والله لئن كان محمد أصاب

---

(١) شرح المواهب اللدنية جـ ٢ ص ٨ للزرقاني .

هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها ، فلما أيقن الخبر ورأى الأسـرى مقرنين كبت وذل وخرج إلى قريش يبكى قتلاهم ، ويحرضهم علـى قتـال النبي ﷺ ثم رجع إلى المدينة فشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم] (١)

والشيء الذي يبعث على غاية العجب أن كعب بن الأشرف ، كـان قـد دخل في علاقة مع النبي ﷺ تحددها معاهدة بينه وبينه ، بوصفه رجـلا ذو مكانة وراءه أتباع ، ومع هذه المعاهدة التي أبرمـت بينـه وبيـن النبـي وجدناه يؤذى النبي وينال من دعوته ، ويهون من شان أصحابه ، حتى بلـغ منه أنه بدأ يستغل الشعر الذي يجيده فيشبب بنساء المسلمين .

وهذا أمر يصعب احتماله على المستوى الاجتماعي والفردي جميعا .

وكعب بن الأشرف قد نصح له النـاصحون بإيعـاذ مـن النبـي أو المسلمين ، أو على غير إيعاذ منهم ، ولكن كعبا لم ينتصح واستمر على غيـه وفجوره ، لم يستجب إلى أحد ولم ينصع إلى عهد ، فأهدر النبي دمه .

وقصة مقتل كعب قد أخرجها الإمام البخاري في جامعـه الصحيـح قال:[**حدثنا على بن المديني ، حدثنا سفيان بن عيينة ، قـال عمـرو بـن دينار ، سمعت جابر بن عبد الله يقول ، قال رسول الله ﷺ " منْ لكعب بـن الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله " فقال محمد بن مسْلمة ، فقال يا رسـول الله أتحب أن أقتله؟ قال " نعم " قال فاذن لىَ أن أقول شيئا ، قال " قـل " ، فأتاه محمد بن مسلمة فقال إن هذا الرجل قد سألنا صدقة ، وإنه قد عنّانـا ، وإني قد أتيتك استسلفك ، قال وأيضا والله لتملنهَ ، قال : إنا قد اتبعناه فلا نجب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير شأنه ، وقد أردنا أن تسلفنا وسقا أو وسقين فقال كعب نعم : ارهنونى ، قالوا أي شيء تريد ؟ قال**

---

(١) السابق جـ ٢ – ص ٨

ارهنوني نساءكم ؟ قالوا : كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب ؟ قــال : فارهنوني أبناءكم ، قالوا : كيف نرهنك أبناءنا فيُسب أحدهم فيقــال رهــن بــوسق أو وسقين هــذا عار علينا ولكنا نرهنــك اللأمــة- أي الســلاح- فواعده أن يأتيه فجاءه ليلاً ومعه أبو نائلة- وهو أخو كعب من الرضاعــة- فدعاهم إلى الحصن فنزل إليهم ، فقالت له إمرأته أين تخرج هذه الســاعة ؟ فقال إنما هو محمد بن مسلمة وأخي أبو نائلة ، وقال غير عمرو : فقــالت له أسمع صوتاً كأنه يقطر منه الدم ، قال : إنما هو أخي محمد بن مسـلمة. ورضيعي أبو نائلة ، إن الكريم لو دعي إلى طعنة بليــل لأجــاب ، قــال : ويدخل محمد بن مسلمة معه رجلين قيل لسفيان ســماهم عمــرو ، قــال الحارث بن أوس ، وعباد بن بشر ، قال عمرو فقال محمد بن مســلمة : إذا ما جاء فإني قائل- أى جاذب بشعره- فأشمهُ فإذا رأيتموني استمكنت مــن رأسه فدونكم فاضربوه ، فنزل إليهم متوشحاً وهو ينفُخ منه ريــح الطيــب فقال ما رأيت كاليوم ريحا أي أطيب ... وقال غير عمرو : قال عندي أعطـر نساء العرب وأكمل العرب ، فقال أي محمد بن مسلمة : أتأذن لي أن أشــمَ رأسك ؟ قال نعم فشمه ثم أشمَ أصحابه ، ثم قال : أتأذن لي ؟ قــال نعــم . فلما استمكن منه ، قال : دونكم فــاقتلوه فقتلــوه ثــم أتــوا النبــي ﷺ فأخبروه][1]

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني : (باب مقتل كعب بن الأشــرف) جــ٧ ص١٣١- ط منير الدمشقي . وأخرجه مسلم في (كتاب الجهاد) باب (مقتــل كعب بن الأشرف) جــ٣- ص٢ ١٤٥ تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .

تلك قصة كعب بن الأشرف محتوية على صفاته من أنه يهودي ، ضخم الجثة عظيم المال ، له باليهود صلة ولهم به مثل ذلك ، تطاول على النبي ، وشبب بنساء المسلمين ، وذهب إلى قريش يستعديهم على المدينة وسكانها ونبيها ، وعلى الدين الذي اعتنقه أهل المدينة ، وجاء به النبي .

ورجل هذه صفاته لا يحتمله مجتمع في القديم ولا في الحديث .

ولو أضفنا إلى هذا كله أنه قد خرج على النبي ﷺ ، وتجاهل معاهدة كانت قد أبرمت بينهما بمقضاها يلتزم الطرفان تجاه الآخر بالحفاظ على شخصه وماله ، وأمنه وأمانه ، على أن يقوم النبي بتوفير الأمن له ، وأن يقوم كعب بن الأشرف بواجب الولاء والتعاون في الدفاع عن هذا الوطن ، إذا ما احتاج الوطن إلى دفاع.

نبذ كعب بن الأشرف بهذه الاتفاقيات جميعاً ، وأعلن الحرب على النبي ﷺ والتعاون مع أعدائه ، وتجييش الجيوش ضد النبي والمسلمين في المدينة .

ومثل هذا العمل ليس له من جزاء في جميع الشرائع إلا إهدار الدم ، وأن ينتدب القائد له من جنوده من يكمن له أو يحتال فيستدرجه إلى المكان الذي يتمكن فيه من قتله أو أسره ، وهذا هو ما حدث بالفعل .

ولقد انتهز اليهود هذه الفرصة كعادتهم ، فقلبوا الحقائق ، وخلطوا الأوراق ، وهيجوا العواطف ، واتهموا النبي بما هو منه براء ، فقالوا : إن النبي قتل كعباً غيلة .

ولقد ظلوا على قولتهم هذه حتى هذا العصر الذي نعيش فيه ، حيث ظهرت رسالة أوائل الربع الثاني من هذا القرن الذي لم يبق فيه إلا شهر واحد وأنا أسطر هذه السطور ، كتبها رجل يهودي اسمه " إسرائيل دلفنسون

" كنيته في العربية "**أبو ذؤيب**" ، وتقدم بها إلى جامعة من جامعات المسلمين تحت عنوان : **(تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام)**، وأشرف عليها وشهد لها وقدمها للقراء بكثير من الزهو عربي مسلم غفر الله لناوله ، وفيها أن النبي ما كاد يعود من موقعة بدر ، حتى التفت إلى خصومه وأعدائه من اليهود يعمل فيهم يد الانتقام ، ويقبض على نواصيهم بقبضة البطش .... إلى غير ذلك من الصفات التي تتضح الرسالة بها تعيب النبي والمسلمين معه .

والشيء العجيب أن صاحب الرسالة لم يقو على أن يذكر مثالا واحدا يحلله ويعرضه على أمانة المنهج ، وسلامة النقل ، وصدق التحليل .

وخلاصة الأمر كله أن اليهود عامة ويهود بني قينقاع على وجه الخصوص، لم يتركوا شاردة ولا واردة يمكن استغلالها بالتزييف ضد النبي والمسلمين إلا اتبعوها ، وهم لم يتركوا أسلوبا من الأساليب يعينهم بحق أو بباطل على التهوين من أمر النبي ، والنيل من مكانته بزعمهم إلا اتبعوه ، والنبي يغض عنهم الطرف ، ويطيل لهم في الصبر ما دام في قوس الصبر منزع ، ولكن اليهود دائما هم اليهود ، تحكمهم قاعدتهم العامة **(إذا قدروا بطشوا . وإذا قدر عليهم ذلوا وهانوا)**.

القشة التي قصمت ظهر البعير :

لقد ظهر لنا جميعا أن يهود بني قينقاع هم أقرب اليهود جميعا من منازل المسلمين ، وكانوا صاغة وحدادين ، يصنعون الحلي والأسلحة والأظرف والأواني ، ويتحصل لهم من ذلك مال كثير ، وكانت لهم حصونهم وآطامهم ، وسوقهم أمام الآطام له جلبة وازدحام وشهرة .

ورأى هؤلاء اليهود أنهم بمركزهم هذا قـادرون علـى النيـل مـن المسلمين ونبيهم ودعوتهم ، وأن المسلمين ليس لهم بهم طاقة ، ففعلـوا مـا فعلوه من أصناف الأذى ، وأضرب الخيانات التـي كـثرت وقائعـها حتـى كادت أن تخرج عن الحصر، ولم تؤثر فيهم نصائح النبي ﷺ خاصة تلـك النصيحة الشهيرة التي خاطبهم بها في سوقهم بعد بدر ، فبدلاً من أن يقبلـوا النصيحة من النبي ، ويعودوا إلى بنود الاتفاق يلتزمون بها ، واجهوه بالتهديد والوعيد قائلين له (**لا يغرنك يا محمد انك قاتلت قوماً لا بصر لهم بـالحرب . ولا قدرة لهم على النزال ، ووالله لو حاربتنا لتعلمن أنا نحـن النـاس**) ، ونزل ما نزل في ذلك من القرآن حيث قد علمت .

غير أن القشة التي قصمت ظهر البعير ما روته كتب السير نقلا عـن ابن هشام قال : [**وذكر عبد الله بن جعفر بن المسور بن مخرمة ، عن أبـي عون ، قال : كان من أمر بني قينقاع أن إمرأة من العرب قدمت بجلـب** [١] **لها ، فباعته بسوق بني قينقاع وجلست إلى صائغ بها ، فجعلوا يريدونـها على كشف وجهها ، فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا بها ، فصاحت . فوثـب رجـل مـن المسلمين على الصائغ فقتله ، وكان يهودياً وشدت اليـهود علـى المسـلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فغضب المسلمون ، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع**][٢]

---

(١) الجلب : البضائع التي يؤتى بها إلى الأسواق للبيع .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام- أبى محمد عبد الملك بن هشام المعـافرى المتوفـى بمصر سنة ٢١٣ هـ- ط . الحاج عبد السلام بن محمد بـن شـقرون . جــ٣- ص٥.

قلنا : إن هذه القصة هي بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير .

غير أننا وإن كنا نعتبر هذه القصة هي السبب المباشر لغضبة النبي والمسلمين، إلا أننا لا نعتبرها هي السبب الكامل والفعال في وقوع النزاع بين النبي وبين بنى قينقاع ، إذ السبب الحقيقي هو الذي ائتلف من عشرات بل مئات الأمثلة التي تضافرت جميعها ، وكونت سبباً قويا لما حدث بين المسلمين وبين بنى قينقاع من النزاع ، انتهى بجلائهم عن المدينة .

وما ائتلف منه هذا السبب قد سقنا لك بعضه ، ولو شئنا لذكرنا لك عشرات الأمثلة منه غير ما ذكرناه من قبل .

غير أن هذه القصة بما فيها من إثارة ، جعلها المؤرخون من رجال القرن الثاني الهجري هي السبب المباشر .

ولأن قيمتها محدودة أهملها رجال القرن الأول .

فبينما يعتبرها رجال القرن الأول حدثاً فرديا ، اعتبرها رجال القرن الثاني مثيرا قويا ساعد على توقيت اتخاذ القرار . من أجل هذا فإني لا أعلق كبير أهمية على ما يذكره البعض من أن ابن إسحاق لم يشرْ إلى هذه القصة ، ومن أن ابن هشام لم يعاصر عبد الله بن جعفر بن المسور بن مخرمة ، ومن أن سند ابن هشام موقوف على أبى عون وهو تابعي مجهول .

أنا لا أعلق كبير أهمية على هذا كله لما ذكرته من أن رجال القرن الثاني قد اعتبروا هذه القصة مثيراً عجل باتخاذ القرار مع أنه حادث فردى ، كان من الممكن التغافل عنه على نحو ما هي وجهة نظر رجال القرن الأول.

والقصة في الجملة تمثل حدثاً فوق المعتاد، لأنها من ناحية : وقعت على يد يهودي معه إخوانه من اليهود درجوا على الاستخفاف بالمسلمين ودينهم ونبيهم ، ولأنها من ناحية ثانية قصة تمثل الإعتداء على الأعراف

والعادات العربية ، والتي من أهمها الحفاظ على الضعيف ، والنشاط لنجدته ، واعتبار أن التقاعس عن ذلك عيب يلوم عليه اللائمون ، وتذل به هامات أشخاص لا يتمكنون معها من استرداد مكانتهم الاجتماعية بين العرب ، ولأنها من ناحية ثالثة تمثل لونا من الإعتداء على العرض والشرف وهما أمران لا حياة للبدوي بدونها .

وقصة هذا شأنها ، وتلك حالها لا تغيب عن وجدان المجتمع العربي يتوارثها جيل عن جيل ، ويقصها الآباء على مسامع الأبناء يوضحون من خلالها خسة اليهود ، ويوضحون من خلالها شهامة العربي الذي لا يتردد عن أن يثأر لكرامته وعرضه إذا اعتدى عليهما ، ولو كان ثمن ذلك كله حياته .

وهكذا يظهر لك أن مثل هذه القصة لا تحتاج إلي كبير عناء في تصديقها ، ولا ترد بحجة أنها قد وردت من خلال سند موقوف على التابعي، إذ التابعي حين نقلها إنما نقلها عن وجدان جيل بأسره .

وأنا أعود فأكرر أن، الكاتب المسلم وهو يتوخى الحق في تصوير أخلاق اليهود ، وفى تصوير علاقتهم بالنبي لا يحتاج إلي هذه القصة سببا لاتخاذ النبي قراره في شأن بني قينقاع ، وإنما هو يحتاج إليها لبيان أنها كانت بمثابة المثير القوي الذي عجل بإتخاذ قرار طالما رغب النبيﷺ في تحاشى إتخاذه .

أما كتاب اليهود ومن شايعهم ، فهم حين عجزوا عن أن يجابهوا هذا السيل الجارف من استفزازات أجدادهم اليهود ، وتكرار نبذ عهد النبي معهم، اضطروا إلي القول بأن هذه القصة لم تصح في التاريخ ، وأن النبي قد نبذ عهد اليهود بغير سبب مقبول ، أو دافع معقول . (١)

(١) راجع كلام إسرائيل ولفنسون (مرجع سبق ذكره)

لقد حدثت هذه القصة على كل حال كما حدثت ، وتـأمل المسـلمون حولهـم فلم يجدوا إلا اعتداءات قد طفح بها الكيل ، وبلغ معها السيل الزبـي، وجاوز بسببها الحزام الطبيين .

ولو أن النبي ﷺ والمسلمون معه سكتوا على هذا الحال ، لتمـادي اليهود في غيهم إلي حد لم يعد للعقل بعده القدرة على تصوره .

قصة شاس بن قيس :

وكان المسلمون خاصة الأنصار قد ملأتهم الريبة والخوف علـى علاقاتهم الإجتماعية ، خاصة بعد أن عمد اليهود إلى محاولة ضرب وحدتهم، وتفريق كلمتهم ، والنيل من ألفتهم في أحداث تكررت ، ووقائع تعددت .

وإني ذاكر لك نموذجاً منها لتطلع بنفسك على إحدى محاولات اليـهود عامة، ويهود بنى قينقاع على وجه الخصوص .

وهذا النموذج الذي أود أن أذكره لك ، هو هذا الذي تمثل فى موقـف شاس بن قيس ، وهو يهودي متعصب ليهوديته ، ملؤ إهابهم الغيظ على النبـي والمسلمين والدعوة الجديدة ، وهو فوق ذلك رأس فى قومه ، مطاع بينـهم ، يستمع إليه الشباب والشيوخ على السواء .

وخبر شاس بن قيس كما رآه المؤرخون ، ومن أوائلهم ابن إسـحاق هو على النحو التالي .

[قال ابن إسحاق : مر شاس بن قيس- وكان شـيخاً (يـهوديا) قـد عسى عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين ، شديد الحسد لهم- على نفـر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قـد جمعـهم ، يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأي من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم علـى الإسلام ، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية ، فقال : قد اجتمع مـلأ

بني قيلة بهذه البلاد ، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار ، فأمر فتي شاباً من يهود كان معه ، فقال : اعمد إليهم فاجلس معهم ، ثم أذكر يوم بعاث وما كان من قبله ، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، ففعل ، فتكلم القوم عند ذلك ، وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب فتقاولا ، ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم رددناها الآن جذعة- يعني الاستعداد لإحياء الحرب الأهلية التي كانت بينهم- وغضب الفريقان جميعاً ، وقالوا : قد فعلنا موعدكم الظاهرة- والظاهرة : الحرة- السلاح السلاح ، فخرجوا إليها **(وكادت تنشب الحرب)** .

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم فقال : يا معشر المسلمين ، الله الله ، أبدعوى الجاهلية ، وأنا بين أظهركم ، بعد أن هداكم الله للإسلام وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، وأستنقذكم به من الكفر ، وألف بين قلوبكم ؟.

فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان ، وكيد من عدوهم فبكوا ، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضا ، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس] . (١)

خاف النبي الفتنة على أصحابه ، وحسب لها ما يناسبها من الحساب، ولهذا الخوف ما يؤيده من مسالك اليهود عامة ، ويهود بنى قينقاع على وجه الخصوص.

واطلع الأنصار من الأوسيين والخزرجيين على نوايا اليهود ، ورغبتهم في أن يعود الأوس والخزرج إلى مستنقع البغضاء والإحن ، وأن

(١) سيرة ابن هشام . (مرجع سبق ذكره) .

يحمل أبناؤهم السلام بعضهم على بعض ، خاصة بعد أن اطلعوا على ما قالـه شاس بن قيس وهو : " **قد اجتمع ملأ بنى قيلة بهذه البـــلاد ، لا والله مالنـــا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار**".

علم الأنصار ما علموه من أخلاق اليهود وما انطوت عليه ســرائرهم تجاههم .

وخاف النبي الفتنة على أصحابه ، بعد أن تكرر من يهود بني قينقــاع نبذ العهد له ، ومضايقتهم إياه .

ومن هذا السبب المؤتلف من أجزائه ، أصبح المسلمون ونبيهم معــهم يراقبون عن قرب أحوال اليهود معهم ، وتصرفاتهم تجاههم .

وحين نزل القرآن الكريم على النبي يقول له : " **وإما تخافنّ من قوم خيانـــة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين**" أصبـــح الجـــو كلـــه ملبـــدا بالغيوم، وأصبحت النفوس جاهزة لاستقبال قرار الحرب، يحل محل معـــاهدة السلام . لا ينقصه إلا أن يصدر عن اليهود عمل مشين ، يكون بمثابة المثـــير الذي يعجل باتخاذ القرار ، والذي تأخر عن وقته شيئاً ما من التأخير.

ولقد كانت قصة المرأة المسلمة التي أرادها الصــــائغ علـــى كشــف وجهها فأبت، فاحتال لكشف ساقيها بأسلوب صبيـــاني نـــازل ،هـــي المثـــير الحقيقي ، بل هي القشة التي قصمت ظهر البعير .

النبي يعلن التعبئة وينبذ لبني قينقاع على سواء :

وحينئذ رأينا اليهود قد مشوا إلى حتفهم بأرجلهم ، وعجلوا إلى نهايـــة ما كان للنبي أن يفكر فيها ، حين امتطوا صهوة الخيانة ، وخلعوا من رقابـــهم عروة بنود السلام .

ولم يكن أمام النبى والحالة هذه إلا أن يتخذ قرار الوقوف مع بنى قينقاع على سواء .

فاليهود قد نبذوا العهد ، ونقضوا بنود معاهدة السلام ، وما على النبي إلا أن يفعل كما فعلوا مع فارق واحد ، وهو أنهم قد نبذوا إليه عهود السلام في أردية من الخيانات ، وأغطية من الحيل فى معظم الأحيان ، أما النبي فقد نبذ إليهم صراحة عهودهم دون أن يصطنع ما اصطنعوه من أساليب لا تليق بشهامة الرجال، والنبي يفعل ذلك **أولا** : لأن الله قد أمره أن لا يصطنع أساليبهم التي اصطنعوها من الخيانة والتعمية والتضليل ، إنما يكون واضحا وضوحاً لا يلام عليه الشريف، **وثانيا** : لأن الله قد أدبه وربـاه فغرس في طبعه أنه لا يقبل هذه الأساليب التي يصطنعها عبدة الطاغوت .

اتخذ النبي قراره فنبذ إلى اليهود عهودهم صراحة ، أو بالأحرى وافق النبي اليهود على نبذ العهود وإبطال معاهدة السلام ، والتحول بالعلاقة معهم من حالة السلم والموادعة إلى حالة الحرب والقتال .

وحالة الحرب والقتال تحتاج بالضرورة إلى إعلان التعبئة العامة ، وإتخاذ قرار صحيح بأن أصحاب الأرض أولى بأرضهم ، وأحق باسترداد حقوقهم ، إذ إن العقل الرشيد في كل عصر لا يحتمل غرباء ينزلون بأرض يأكلون منها ويشربون ، ويتريضون بين ربوعها ، وينتفعون بسكناهم عليها ، وهم في الوقت نفسه يناصبون أهلها العداء ، ويكيدون لهم كيدا .

إتخذ النبي قراره المزدوج فنابذ اليهود كما نابذوه ، وأعلن التعبئة العامة بين أصحابه حين دفع اليهود النبي أن يدق طبول الحرب .

خروج النبي إلى بني قينقاع :

وحين تحولت العلاقة بين النبي واليهود من معاهدة السلم إلى مسالك الحرب والنزال ، أصبحت للظروف الجديدة معايير تخصها ، ونظم وآداب تحكمها، فأخذ النبي بأسلوب المبادرة ، وأمر الناس أن يتجهزوا للخروج إلى بنى قينقاع وخرج إليهم رسول الله ﷺ وحاصرهم أشد الحصار ، وكان بينهم التراشق فترة من الزمن ، اختلف الكتاب في تقديرها .

ثم ألقى الله الرعب في قلوب اليهود فوقعوا أسارى في أيدي النبي ﷺ وأصحابه .

وعلم النبي ﷺ أن هؤلاء أهل خيانة ، وأنه إن أجلاهم عن المدينة ألبوا عليه العرب والعجم ، واصطنعوا له من أساليب الخسة ما ليس له به طاقة .

ولم يكن أمام النبي بعد أن علم هذه الحقيقة إلا أن يتخذ القرار بقتليهم جزاء خيانتهم في السلم والحرب ، متوقيا لشر محتمل تفرضه طباعهم ، وتدفع إليه خلائقهم .

فأمر النبي ﷺ بتجهيزهم للقتل ، وكان الذي قد وُكِّل بذلك هو " **المنذر بن قدامة** " .

ظروف غيرت الموقف :

إتخذ النبي قراره بالتخلص من اليهود وله مبرراته ، إلا أن الله قد شاء أمراً آخر ، وظهرت على الساحة أمور لابد للقائد الحصيف أن يدخلها في الحسابات .

وبيان ذلك : أن يهود بنى قينقاع كانت لهم صلات مع الخزرج قبل الإسلام، وكانت لهم صلات على الأخص ببعض الشخصيات البارزة ، ومن بينهم: عبادة بن الصامت ، وعبد الله بن أبى سلول .

أما عبادة بن الصامت فقد مشى إلى رسول الله ﷺ وقال : يا رسول الله قد كان لي بهؤلاء القوم من بنى قينقاع صلة قبل الإسلام ، وهى صلة معلومة مشهورة ، قد يستغلها البعض اليوم فيتقولون على ، وإنى اليوم قد مشيت إليك لأعلن أنى قد اخترت أن أتولى الله ورسوله والذين آمنوا ، وأبرأ إلى الله بين يديك من ولاية بنى قينقاع .

فقبل النبي والمؤمنون منه ذلك ، وبرئ أمام التاريخ بين يدي الرسول مما عسى أن يسجله التاريخ زورا على لسان البعض ممن يجيدون تزييف الحقائق ، ويرغبون في التقول على الرجال .

وأما عبد الله بن أبى بن سلول فقد قام إلى رسول الله ﷺ حين أمكنه الله من يهود بنى قينقاع فقال : يا محمد أحسن في موالى ، وكانوا حلفاء الخزرج (**كما علمت**) ، فأبطا عليه رسول الله ﷺ ، فقال : يا محمد احسن في موالى ، فأعرض عنه ، فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ من خلفه ، وكان يقال لها: ذات الفضول ، فقال له رسول الله ﷺ : ويحك أرسلني ، وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظللا ، ثم قال : ويحك أرسلني ، قال : والله لا أرسلك حتى تحسن في موالى : أربعمائة حاسر ، وثلاثمائة دارع ، قد منعوني من الأحمر والأسود ، تحصدهم في غداة واحدة، إني والله إمرؤ أخشى الدوائر ، فقال ﷺ خلوهم لعنهم الله ولعنه معهم.

وأنت تسأل لماذا تنازل النبي عن قراره ، وفى طبعه أنه يأخذ بمبـــدأ الشورى مع أصحابه إلى منتهاه، فإذا عزم بعد المشورة فإنه يُمضى عزيمته؟

وأنا أجيبك عن هذا التساؤل بأن هذه المسألة لا تأخذ شـــكل القـــاعدة العامة، وإنما هي مسألة يقدرها القائد حسب مقتضيات الحال .

والحالة الآن مع النبي وعبد الله بن أبى يصور واقعـــة قـــد حدثـــت، ومازالت المسائل التي فرقت بين الأوس والخزرج قبل الإسلام على مرمـــى البصر، وهى قد وقعت بين النبي وعبد الله بن أبى وهو رجل ليـــس بســـليم الطوية ، ولا هو بالرجل الذي يحمل للإسلام خيراً، وله في هذا الوقت مـــن قومه ومن غير قومه نظائر على شاكلته وأتباع ، ينافقون مثل نفاقه .

ولهذه الحيثيات جميعاً رأى النبي أن لا يصنع شيئا قد ينال من وحـــدة الناس، حتى ولو تراجع عن قرار إتخذه ما دام فيه مصلحة المســـلمين ونفـــع الإسلام.

قرار جديد :

أمر النبي ﷺ نزولاً على الظرف الجديد أن يخـــرج اليـــهود مـــن أرضه ، وأن يجلوا عن دياره في خلال ثلاثة أيام ، وهى مدة كافية لـــترتيب خروج القوم .

وفرح بنو قينقاع بقرار النبي الجديد ، وشكروا لعبـــد الله بـــن أبـــى صنيعه وجهزوا أنفسهم للخروج ، فخرجوا في مظهر فرح يريدون أن يقولـــوا من خلاله للناس : إن إقامتنا في هذه البقعة كانت إلى حيـــن ، وإنـــا اليـــوم سنخرج بإرادتنا فرحين مسرورين .

رحيل اليهود :

رحل بنى قينقاع سالكين طريق شمال المدينة إلى بلاد الشام ، ونزلـوا
ـرعات منيا ، وأقاموا بها ما شاء الله لهم أن يقيموا بها .

ولليهود من بنى قينقاع صلة ببعض القلاقل والاضطرابات التي
ـرت ضد النبي ﷺ كما توقعها عليه السلام ، ولكن المقادير قد أخذت طريقها
ـ ـ مشيئة الله عز وجل على نحو ما سنحدثك بعد .



يهود بنى النضير وخيانتهم

للنبي في عصر المبعث

****

اتضح الحديث حول المعاهدة التي كانت بين النبي ﷺ ويهود المدينة على اختلاف طوائفهم .

ونحن جميعا نعلم من خلال هذه المعاهدة أنها كانت معاهدة وطنية ، أبرمها النبي مع اليهود كي يعلم كل حدوده داخل هذا الوطن ، ويتعرف كل على مسئولياته ، يباشرها كلما دعا داع يحتم هذه المباشرة .

والشيء الذي ينبغي أن لا يغيب عن البال ، هو أن هؤلاء اليهود من بنى النضير كغيرهم من أبناء يهود الذين استوطنوا يثرب ، قد دخلوا في هذه المعاهدة مختارين غير مضطرين ، والتزموا بها التزاماً يجعل كل من يعمل على خلافها يكون خائنا .

وانطلاقاً من هذه الحقائق نطرح هذا السؤال : **(وماذا عن يهود بنى النضير ، هل اقترفوا ما اقترفه إخوانهم من بنى قينقاع من الآثام التي تجعل النبي في حل من معاهدتهم ، وتجعل التاريخ يحكم عليهم بأنهم قد نقضوا العهد وأخلوا بالوعد ، وأعلنوا حالة الحرب ضد النبي ﷺ والمسلمين معه ، أم أنهم قد التزموا بالمعاهدة وبنودها ، وحافظوا على العهود لا يسمحون لأنفسهم أن يمسوها بسوء ، حتى يعيش المجتمع كله آمنا مطمئنا ، حتى ولو اختلفت فيه الديانات وتعددت فيه العقائد ؟)**

ونحن لن نحاول أن نجيب على هذا السؤال من خلال افتراضات نفترضها ثم نختبرها ، وإنما سنحاول أن نترك المجال بكل أتساعه للتاريخ يحكي وقائعه ، ويسوق أحداثه ، ثم نستنتج نحن منه العظة والعبرة ، لتكون هذه الأحداث المعبرة عن العلاقة بين النبي وبين يهود بني النضير رسالة

أخرى تبعث بها روح النبي إلى أمته في عام ألفين ، وفي ذكــرى الإسـراء والمعراج من رجب المحرم في هذه السنة ، لعلها تنزل برداً وسـلاماً علـى قلب كل أب فقد ولده أو ابنته ، أو لعلها تنزل بالسكينة علـى قلـب كـل أم رضعت وليدها على أرض فلسطين ودفعت به إلى بيت المقدس أعزل بغـير سلاح في وجه هذه الطغمة الآثمة التي دنست أرض بيت المقـدس ، وهـي تقبل جبينه قائلة له: اذهب يملأ قلبك الإيمان فإما أن تعود إليّ ببشرى تحريـر المسجد الأقصى ، أو تذهب شهيداً ألقاك يوم القيامة في الفردوس الأعلـى ، ويوقظ دمك قلوباً في صدور إخوانك من المسلمين ، وعيوناً قد آمنت بالله رباً وبالنبي محمد إماماً ، ولكنها استسلمت للكرى يداعب عيونها ، فدنس المسجد الأقصى في غيبة منها.

نسوق هذه الأحداث كلها لتكون رسالة ترسل بها روح الحبيب محمـد إلى كل إمام ومسئول من أئمة المسلمين وخاصتهم تنعش فؤادهم بالإيمـان ، فيتجه كل واحد منهم إلى الله يسأله أن يريه الحق حقاً ويرزقه إتباعـه ، وأن يريه الباطل باطلاً ويرزقه اجتنابه.

إني أسوق هذه الأحداث من التاريخ لتكون رسالة ثانية تبعـث بـها روح الحبيب محمد إلى كل مفكر وعالم في جميع العلوم الإنسانية لكي يخـف إلى أوراقه، فيسكب عليها ما يشاء أن يسكبه من التحليلات لشـخصية أبنـاء يهود وصفاتهم الملازمة لهم ، ثم يتقدمون جميعاً بتحليلاتهم واقتراحاتهم إلـى أصحاب المعالي والسيادة من قومهم كي تساعدهم على اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب من غير خطأ يعرض أمتهم للضياع ، ومن غـير زلـل يندمون عليه ، أو تندم أمتهم عليه حين يشعرون بسوء آثاره.

إننا نسوق هذه الأحداث من التاريخ منطلقين مـن عصـر المبعـث لتكون رسالة ثانية تبعث بها روح الحبيب محمد إلى كل مجادل أو منـاقش أو مفاوض ، وإلى كل متكلم أو متحدث أو سياسي كي تكـون عاصمـة لـهم تعصمهم من الخطأ في التفكير ، ومن الزلل في القول.

إننا نسوق هذه الأحداث من التاريخ تحمل عبق الماضي والآمه وتشير إلى أصناف من البشر تحدد صفاتهم فترفع بعضهم في نشوة حتى ي الناس ، وتشير إلى بعضهم وهو يتواري خلف ستار كثيف من مخازيه ، قد ضربت على أفراده الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله.

إنا نصنع ذلك ليكوّن رسالة ثانية تبعث بها روح النبيﷺ إلى أفراد وجماعات أمة الإسلام تعينهم على تصور أعدائهم ، وتعينهم على أن يربطوا التاريخ بعضه ببعض ، وتعينهم على أن يأخذوا العبرة من وقائع التاريخ فما التاريخ إلا ذاكرة الشعوب وضمير الأمم.

وإني لفاعل ذلك وأنا حريص كل الحرص على أن أترك التاريخ يحدثك بسجله الثبت ، وحديثه الصادق ، وظلال وقائعه التي لا تخطؤك.

ترتيب معجز :

وإني لأحب في بداية أحداث التاريخ التي سأعرضها بين يديك أن أؤكد على ما أعلمه ، ولا أدعي أني أؤكد على الواقع الذي كان يعلمه النبيﷺ أو يتصوره في توالي أحداث التاريخ.

والذي أعلمه من بداية حال النبيﷺ مع بني النضير ، هو أنه لم يكن يدور في ذهن النبي محمدﷺ أنه سيقاتل يهود بني النضير ، أو أنه سيجليهم عن الأرض التي احتلوها ، لا في الآن القريب ، ولا في المستقبل المنظور أو غير المنظور.

والذي يجعلني أذهب إلي هذا الاعتقاد هو ما أعلمه من خلائق النبيﷺ .

وما أعلمه من خلائق النبيﷺ أنه إذا عاهد أحداً عهداً محدوداً بمدة، فعهده إلى مدته لا ينتقصه منها شيئا ، وإذا عاهد أحداً أو جماعة عهد أمن وتعايش في وطن واحد لا يخرج من هذا العهد أبداً ولا ينقضه ، مهما كانت

الظروف التي تدعوه أن ينقضه من طرف واحد من غير جريرة أو مخالفة تقع من الطرف الاخر الذي دخل معه في هذا الحلف أو تلك المعاهدة.

وما كل مخالفة تقع من الطرف الآخر تحمل النبي ﷺ على أن يفسرها تفسيراً يحمله على أن يفهم أن الطرف المقابل قد خرج من العهد ، والقي بنفسه خارج ارتباطاته ، وأعلن الحرب على النبي والمسلمين ، بل إن النبي ﷺ لا يعتبر تصرف الطرف الآخر ناقضاً للعهد ، إلا أن يكون هذا التصرف قد حمل من الخطر قدراً يهدد المجتمع وأمنه ، أو اعتدي على الآداب والعوائد اعتداءً يجرح المشاعر ويصيب الأفئدة بالأذى.

هذا أمر يحملني على أن أعتقد أن النبي ﷺ ما كان في أول أمره يفكر في إجلاء اليهود من بني النضير عن أرضه ووطنه ، حتى ولو كانوا في عرف التاريخ والناس محتلين لهذه الأرض مغتصبين لهذا الوطن.

وأمر آخر يحملني على أن أعتقد أن النبي كان بعيداً عن التفكير في إجلاء هؤلاء اليهود ولو مرحليا ، وهذا الأمر الآخر هو أن اليهود قد أشاعوا بين الناس (والناس حديثو عهد بالإسلام، أنه لا يجوز للنبي ﷺ ولا للمسلمين معه أن يعتزوا بنصرتهم على قريش ، إذ القرشيون ما هم إلا أناس قليلو الحيلة في الحروب ، وقليلو البصر في السياسة ، بالإضافة إلى أنهم لا يملكون من الأموال إلا أقلها ، وعملهم في التجارة يجعلهم لا يأمنون عليها في ذهابها وإيابها من الشام وإليها ، بالإضافة إلى أنهم يخشون كسادها، ويرجون من ورائها الرواج الذي يعود عليهم بالربح ونماء المال ، والقرشيون لا بصر لهم بالصناعة خاصة ما يتصل منها بصناعة السلاح ، ولذا تراهم يعتمدون على غيرهم فيه إن شاء أعطاهم ، وإن شاء منعهم حسبما يري هذا الغير من مصلحته الشخصية وما يخدم مواقعه الاجتماعية ، ثم إن القرشيين أخيراً ، ما هم إلا أناس محدودو الثقافة لا يملكون منها إلا

مجموعة الحِكَم في الاجتماعيات ، وإلا بناءً هشاً في العقائد ، وإلا هرماً من الوهم في التشريعات التي تنظم حياة الناس.

لقد أشاع اليهود بين المسلمين كل هذا ، والمسلمون قريبو عهد بإسلام ، ثم أضافوا معه الزهو بشخصيتهم ، وهي شخصية قادرة على الخيانة ، والخيانة في عرفهم أمر مشروع ، وهي شخصية قادرة على صنع السلاح وتدبير الاقتصاد ، وإثارة جماهيرهم على قاعدة من الدين ، الذي أهم ما فيه من العقائد أن اليهود هم شعب الله المختار ، وأن الله يدافع عن شعبه وينصرهم على الجوايم أو الحيوانات من البشر من غير اليهود.

وأنت على وعي كامل أن اليهود قد لخصوا كل هذه المواقف في عبارة واجهوا النبي نفسه بها ، حين قالوا له: يا محمد لا يغرنك من نفسك أنك قد واجهت أناسًا لا بصر لهم بالحرب ، وإنك إن واجهتنا لعلمت أنا نحن الرجال.

ومثل هذه الكلمة تقال للنبي ﷺ بغير مقدمات ، تدفعه إلى أن يستسلم للتفكير في أمر اليهود وأمر نفسه ، من غير أن تكون عنده نية في إجلاء اليهود عن الأرض التي اغتصبوها.

وحين فكر النبي في نفسه وفي الذين معه وجد أن آثار التشرذم والانقسام الذي كان ظاهراً في المجتمع قبل وجوده بفعل اليهود ، مازالت أسبابه قريبة العهد بالأوس والخزرج ، و مازالت الرغبة في الانقسام والخروج على النبي ﷺ تطل برأسها من فم كل منافق له باليهود صلة ، وهم يجدون من عبد الله بن أبي بن سلول نواتهم التي يتجمعون حولها ، وعبد الله بن أبي يجد من أسباب الحقد في قلبه وقوداً كافياً يدفعه إلى الكيد للمسلمين والتحالف مع غيرهم ولو كانوا يهوداً ، ثم إن النبي يظهر له من تأمل الواقع أن المهاجرين أنفسهم مازالت أقدامهم في هذا المكان غير ثابتة

ثباتاً يكفيهم إلى تحمل تبعات آثار قرار إجلاء اليهود ، لو فكر نبيهم في اتخاذ مثل هذا القرار ·

لقد حملت كلمات اليهود النبي إلى أن يفكر في هذا كله ، وانتهي النبي من التفكير إلى أنه قد رأي أن هذه الأمور كلها يمكن التعامل معها تعامل القائد الحصيف مع الشدة التي تواجهه ، حين يكون بصدد اتخاذ قرار مصيري حاسم ، لكن الذي ضايق النبي ﷺ هو هذه الخليقة التي علمها من اليهود ، وتأبي خلائق شخصيته التعامل معها بما يكافئها ، وهذه الخليقة من خلائق اليهود هي أنهم لا يتورعون عن الخيانة ، أن يصطنعوا لها أساليبها، وأن يمدوا لها أسبابها ، وأن يتخذوها لهم منهجاً من غير أن يخجلهم التاريخ، ومن غير أن يلتفتوا إلى لوم اللائمين·

وعند هذا الحد من التفكير وجد النبي نفسه يخشى ما يمارسه اليهود ضده من الخيانة ، لأنه أسلوب رخيص مبتذل ، لا يستطيع هو أن يصطنع معهم أسلوباً يكافئه ، إذ الخلائق الإنسانية والنبوية فيه تأبي عليه أن يترخص أو يتبذل·

أمور كثيرة تدعونا إلى الاعتقاد أن النبي لم يكن يفكر أول الأمر في إجلاء بني النضير عن الأرض التي اغتصبوها ، وعن الوطن الذي احتلوه·

إرهاص يحتاج إلى تأمل:

ما كان النبي ﷺ فيما أرى يعلم أن اليهود من بني النضير بخيانتهم ونبذهم للعهد سيحملونه على أمور لم يكن يفكر فيها·

وما كان الله الحكم العدل يترك اليهود يعبثون كما يشاءون بمقادير الناس دون أن يتدخل بأسبابه التي خلقها ، وبإرهاصاته التي ينشئها أمام المؤمنين من عباده حتى يستعدوا للدخول في معركة مع اليهود، ينال فيها اليهود جزاء خيانتهم، ويتلقون ما يكافئ نبذهم للعهد ، وخلفهم للوعد·

وأنا أرى في بعض آي القرآن الكريم ما ينبه المسلمين بغير تصريح واضح إلى هذه الخلائق من أخلاق اليهود ، وإلى هذه الطباع التي جبلوا عليها.

ولكي نفهم عن الله قوله في هذا الموقف من المواقف التي ستدفع بالمسلمين على غير إرادة منهم ولا من نبيهم ، أن يدخلوا في علاقة من نوع جديد مع يهود بني النضير ، يجب أن نعلم علم اليقين أن اليهود قد راسلوا قريشاً وراسلتهم قريش، وتفاهموا جميعاً في شأن محمد ﷺ والمسلمين معه ، فرغبت قريش إلى اليهود أن يخفوا إلى قتال النبي والمسلمين معه فيكسروا شوكتهم ، ويذهبوا بيبيتهم إلى آخر الدهر ، ولهم عند قريش ما يشاءون ، وما يشاءه اليهود ليس بكثير عليهم تدفعه قريش مهما كان قدره خصوصاً ، إذا علمنا أن المدينة على الطريق بين مكة والشام ، وتجارة قريش تمر من هذا الطريق وهم على خلاف مع النبي خلافاً قد دفع بالطرفين إلى سلسلة من الحروب قد وقع بعضها وخرج منها النبي منتصراً ، وتجارة قريش مهددة ، يهددها النبي والمسلمون معه ، فإذا قام اليهود بحماية مصالحهم مقابل جزء يأخذونه من أموالهم ، أو مقابل الدخول في حلف معهم يحمونهم من غوائل الدهر ، وعاديات الزمان ، فإن ذلك ليس بكثير على اليهود أن يأخذوه ، المهم رعاية مصالح قريش في المدينة حين تمر تجارتهم بها ، وحين تفتح المدينة لهم أبوابها سوقاً كبيرة يبيعون تجارتهم بها.

أما اليهود فمصالحهم عند القرشيين أن قريشاً عرب لهم مكانتهم الدينية والاجتماعية في جزيرة العرب ، ولهم كذلك تميزهم الاجتماعي والاقتصادي الذي لم يتوفر لغيرهم ، فهم مسموعو الكلمة ، وهم قادرون على تحريك الشعوب العربية وتوجيههم إلى حيث يريدون ، واليهود أقلية يقيمون وسط بحر من البشر، لهم منهم جيران يشاطرونهم الأرض والوطن ، وعلى بعد قريب أو بعيد أقوام آخرون يمكن للأوس والخزرج أن يستنفروهم وأن يستعدوهم على اليهود ، ومنهم من يخف لنجدتهم ، واليهود فوق أنهم أقلية

فهم غرباء عن المنطقة أتوا إليها نازجين طامعين في وقت واحد ، فـــاحتلوا الأرض واستعمروها ، ومكثوا فيها واستثمروها ، وبنوا فيها حصونهم التـــي تحصنوا بها ، وبنوا حولهم الجدر داخل ترسانة حربية إذا لـــم تكــن تقلــق جيرانهم الآن فسوف يلتفتون إلى خطرها فيما بعد ، واليهود فوق ذلك شــتات من البشر ، وشراذم من الناس ، لا يجمعهم جامع فوق أنهم يهود ، تحســبهم جميعا وقلوبهم شتي.

ولأسباب الضعف هذه مجمعة أو مفترقة وجد اليهود مصالحهم فـــي أحلاف ومعاهدات ، يبرمونها مع أعداء هذا الدين الجديـــد وتابعيـــه ، كـــي يأمنوا على بقائهم ومصالحهم لا ينال منها نبي هذا الدين الجديد ولا تابعوه.

من أجل هذا كله وجدنا اليهود قد راسلوا قريشا وغيرهم تطلب منـــهم النصرة ، أو الدخول معهم في عهد وأمان ، ووجدنا قريشا تراســـل اليـــهود تطلب منهم القضاء على محمد ودينه وصحبه رعاية لمصالحـــهم ، وحفاظـــا على سمعتهم وهيبتهم.

يا الله ما أشبه الليلة بالبارحة !

ويا الله هذه خلائق اليهود والكافرين تجمعـــها المصـــالح وتفرقـــها ، فيجتمعون إذا لاحت لهم أسباب المصالح ، وينبذ بعضهم إلى بعـــض العـــهد على سواء أو على غير سواء إذا أصبحت مصالحهم مختلفة.

ولقد علم النبي بهذه المراسلات ، كما علـــم بـــأن اليـــهود ومعـــهم القرشيون قد حاولوا اختراق صفوف الأوس والخزرج مـــن خـــلال جماعـــة ضعفت نفوسهم ، واستحوذ عليهم الشيطان فأنساهم أنفسهم وربهم ، فأظـــهروا الإيمان واستبطنوا الكفر وعُرفوا في التاريخ باسم (**المنافقون**).

ولقد تجاوب المنافقون بزعامة عبد الله بن أبي بن سلول في حركـــة ، ظن اليهود بادي الرأي أنهم قد تم لهم بالفعل اختراق صفوف المسلمين.

والقرآن الكريم يواكب هذه الأحداث جميعـــها ، فيقـــدم بيـــن يديـــها إرهاصاً للمسلمين ونبيهم مقروناً بالتوجيه المناسب لمثلها ، أو راصداً لـــها ،

ومخبراً بها بعد وقوعها لتكون رسالة أو جزء رسالة يرسل بها النبي الموحي إليه لأتباعه من الأجيال القادمة الذين ستكون لهم علاقات مع اليهود وخياناتهم عبر التاريخ.

وسواء قلنا إن القرآن يرصد واقعة بني النضير ، أو يضع بين يديها إرهاصاً ، فإنك تستطيع أن تقرأ هذه الآيات من سورة الأنفال ، ثم تقرأ بعدها سورة الحشر بتمامها التي كان يحلو لعبد الله بن عباس أن يسميها بسورة بني النضير.

أما آيات سورة الأنفال فهي أقرب عندي إلى أن تكون إرهاصا بين يدي الأحداث ، وهي تذكر أصنافاً لا تسميهم وإنما تصفهم ، وتوجه المسلمين من حين إلى آخر إلى ما ينبغي عليهم أن يفعلوه . كما توجه نبيهم وقدوتهم إلى أن ينفض عنه مشاعر الخوف من كل خيانة رخيصة ، وينهض إن خاف من قوم خيانة بينه وبينهم عهد إلى أن يتحلل من عهودهم حين يعلم الخيانة منهم ، ولا يبادلهم خيانة بخيانة ، وإنما إذا وجدهم ينقضون العهد أعلن لهم أنه هو الآخر قد تحلل من معاهدات السلام ماداموا لم يلتزموا بها ، ويعود الطرفان على سواء في نسبتهم إلى معاهدات السلام ، كأنه يقول لهم : مادمتم قد نقضتم العهد بالخيانة ، وأعلنتم الحرب علينا فإنا ننبذ إليكم العهد لنكون جميعاً على سواء " **وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء**".

أما الآيات بتمامها التي ترهص إلى خيانة قادمة وشيكة، وهي التي أنقلها الآن بين يديك " **إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون* فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون* وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين * ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا إنهم لا يعجزون* وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم**

الله يعلمهم وما تنفقوا من شئ في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون"[١]

خطأ الجندي يصلحه النبي:

إن الله عز وجل إذا أراد أمراً هيأ له أسبابه ، ومهد له طرقه وساق إليه الإرادات ، ووجه إليه الأشواق والرغبات.

وهاهي وقائع التاريخ تتحدث عن نفسها.

فبينما النبي يفكر في أحواله وأحوال أصحابه ، وتعالي اليهود عليه وعليهم في الحديث والسلوك ، إذا بحدث من الأحداث يقع فينذر بباب جديد يفتح من الانشغالات ربما يستولي على حيز من فكر النبيﷺ ليس باليسير.

وبيان ذلك: أن جمهرة من المؤرخين وكتاب السير منهم ، ابن إسحاق ، وابن عمر ، وابن سعد ، وابن عائذ وكثرة غيرهم من أهل المغازى قد ذهبوا إلى أن [عمرو بن أمية الضمرى رضي الله عنه أقبل من بئر معونة حتى إذا كان بقناة لقي رجلين من بني عامر بن صعصعة ، قد كان النبيﷺ وادعهما ، فنسبهما فانتسبا ، فقال[٢] معهما حتى إذا ناما وثب عليهما فقتلهما ، ثم خرج حتى ورد على رسول الله ﷺ في قدر حلب شاة ، فأخبره خبرهما ، فقال رسول اللهﷺ: بئس ما صنعت - قد كان لهم منا أمان وعهد فقال : ما شعرت ، كنت أراهما على شركهما ، وكان قومهما قد نالوا منا ما نالوا من الغدر بنا ، وجاء بسلبهما][٣]

---

(١) الأنفال : ٥٥ : ٦٠

(٢) قال : هي من القيلولة ، وهي النوم نهاراً للراحة

(٣) سبل الهدي والرشاد في سيرة خير العباد للإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي المتوفى سنة ٩٤٢ هـ حـ٤ - تحقيق أ/ إبراهيم الترزي ، أ/ عبد الكريم العزباوى لجنة إحياء التراث الإسلامي - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م ص ٤٥٢ .

والتاريخ الثبت يحدثنا أن نبي عامر بنى صعصعة كان بينهم وبين يهود بني النضير عهد وموادعة.

وحين وقعت هذه الحادثة من عمرو رأي النبي ﷺ أن عمرو قد باشر أمراً يخالف به - قاصداً أو غير قاصد - ما كان النبي قد عاهد عليه الرجلين.

والقتل الخطأ له في شريعة النبي ﷺ وفي عوائد العرب ما يحكمه من النظام.

فتحفظ النبي ﷺ سلبهما وهو أمتعتهما وسلاحهما ليرسل به مع الدية التي يودي بها الرجلين.

وما كان عند النبي من السعة ما يجعله يخف سريعاً إلى أن يرسل بالمال إلى أهل القتيلين، ففكر مليا ووقع اختياره على يهود بني النضير يقترض منهم مالاً يكفي لدفع دية الرجلين.

والذي دفع النبي إلى ذلك - فيما أري - أمور منها:

١- أن اليهود هم أكثر سكان أهل المدينة ثراء وأوفرهم مالاً.

٢- وأن اليهود قد دخلوا مع النبي في معاهدة سلام التزم فيها الجميع

بأمن الوطن يحافظون عليه، وأرض الوطن يمنعونها من أن ينتقصها أحد من أطرافها، فضلاً عن أن يغزوها لينال من أهلها بالأذى، وينتهب خيراتها.

٣- وقبل هذا كله ومع هذا كله محاولة النبي ﷺ إيضاح الأمر لليهود بالقدر الذي يرضي خاطرهم، فهم حلفاء بني عامر بن صعصعة كما علمت، ولا بأس بعد أن اتضح الأمر بين يدي اليهود أن يكونوا سفراء له عند حلفائهم فيشرحون الخطأ، ويبينون عن الزلل الذي وقع فيه عمرو بن أمية عن غير وعي منه بما بين النبي وبين الرجلين من عهد.

هكذا فيما أري فكر النبي في الأمر.

وهكذا فيما أري عقد النبي العزم على أن ينفذ ما توصل إليه من نتائج بفكره الصائب.

مع النبي على الطريق إلى بنى النضير:

ونشط النبي ﷺ لتحقيق ما اعتزم إنفاذه، وخف إلى السير ومعه نفر من أصحابه منهم أبو بكر وعمر وعلى، فلما أشرف الجمع على سوق اليهود يتقدمهم النبي ﷺ، استقبلتهم يهود بني النضير يتقدمهم حاخاماتهم ورؤساؤهم في الدين والاجتماع بأسمى آيات الترحاب الذي اصطنعوه، وأعلى آيات الود الذي يجيدون إظهاره.

مرحباً بأبي القاسم، ألنت هنا في حينا، لقد استنارت بك الديار وشرف بك القوم، وعز بك الرجال.

وكاشفهم النبي ﷺ بحاجته، فقالوا: لبيك أبا القاسم، ولا بأس عليك ولا حرج، فاجلس أولا تستريح، ولك ولأصحابك واجب الضيافة نصنعه لكم، ثم تمنحنا بعض الوقت لا تعجل علينا فيه نصلح من أمرنا وشأننا وتأخذ المال معك مكفولاً بعناية الله محروساً برعايته.

خيانة لم تؤت ثمارها:

ولقد طلب يهود بن النضير إلى النبي أن يجلس إلى جوار الحائط، ودخلوا إلى البيت يقلبون أمورهم يوهمون النبي ومن معه أنهم قد دخلوا لإصلاح بعض شئونهم المالية من أجله.

وبينما هم في داخل بيتهم يدرسون الأسلوب الأمثل للتخلص من النبي، ذكر بعضهم بعضا بالمؤامرة التي دبروها من قبل لرسول الله، ولم يكن الأمر في صالحهم واضطروا للتنصل من مؤامرتهم.

وخلاصة المؤامرة التي سبق لهم أن حاكوها وفلت النبي منها ، هي أنهم قد جلسوا يوماً يبحثون عن الكيفية التي يتخلصون بها من النبي تحقيقاً لمصلحتهم كما يرون ، وإرضاءً لكفار قريش التي تبحث هي الأخرى عن صيانة مصالحها التجارية ، وقد راسلوا اليهود من أجل ذلك يحضونهم على قتل النبي.

لقد جلس اليهود يوماً يبحثون عن طريقة يتخلصون بها من النبي ، فكان مارسموه هو أنهم قالوا: نرسل إلى النبي ﷺ نقول له: قد حيرنا أمرك، ولا نعرف وجه الحق فيه ، ونقترح أن تقبل في ثلاثين رجلاً من رجالك . ونرسل إليك بثلاثين من رجالنا ممن لهم بصر بالدين والعلم ، فتشرفون معا على ربوة لا يقترب منكم أحد ، وتديرون المسائل وتتناقشون في الأمور حتى يظهر وجه الحق ، فإن ظهر عندك اتبعناك.

لقد انتهى اليهود من خطتهم تلك في يومهم الذي اجتمعوا فيه ، وهم ينوون أن يرسلوا إلى النبي بثلاثين رجلاً بينهم من يخفي سلاحه في طي ملابسه فينال به من رسول الله ﷺ خيانة وغيلة ، ووافق النبي حين وصله طلب اليهود وأقبل في ثلاثين من قومه ، غير أن اليهود قد تدارسوا الأمر مرة أخرى وقال بعضهم لبعض: كيف تخلصون إلى الرجل وهو في ثلاثين من قومه ، كل واحد منهم يريد أن يموت قبله عاودوه في الأمر وقولوا له يخرج إلينا في ثلاثة من أصحابه ونخرج إليك في ثلاثة من علمائنا ، فيسمعون منك ، فإن صدقوك وآمنوا بك آمنا بك .

واستجاب النبي ﷺ حين بلغته رسالة اليهود فخرج إليهم [**في ثلاثة من أصحابه وخرجت ثلاثة من اليهود ، واشتملوا على الخناجر ، وأرادوا القتل برسول الله ﷺ ، فأرسلت امرأة ناصحة من بني النضير إلى أخيها وهو رجل مسلم من الأنصار فأخبرته ما أراد بنو النضير من الغدر برسول**

الله ﷺ ، **فأقبل أخوها سريعاً حتى أدرك رسول الله ﷺ فساره بخبرهم قبل أن يصل إليهم ، فرجع رسول الله ﷺ إلى المدينة]** (١)

ذكر اليهود يومهم هذا وما ضم من الخيانات التي لا تصدر إلا من أمثالهم.

وذكر اليهود أن النبي قد فلت من القتل أو الموت على نحو ما رأيت.

وذكر اليهود أنهم قد فلتوا من العقاب بسبب حسن خلق النبي الذي لم يأخذ بالظنة ، ولم يعاقب أحداً بالاحتمال.

ولكن اليهود ذكروا مصالحهم التي لا تستقيم على منهجهم ما دام النبي في المدينة ينشر العدل ، ويرسى قواعد الأمن ، ويستل من النفوس بذور الشقاق والخلاف.

وذكر اليهود مع ذلك كله كفار قريش وما أرادوه منهم من النيل من محمد ﷺ ودينه ، حتى يأمنوا على تجارتهم تذهب إلى الشام وتعود إلى مكة ، وحتى يأمنوا على تجارتهم تذهب إلى الشام وتعود إلى مكة ،تظل مصالحهم في المدينة سوقاً رائجة للبيع والشراء نظير حماية قريش لليهود والدفاع عنهم ، وتدعيمهم في مواقفهم الاجتماعية والاقتصادية إن أردوا.

---

(١)السابق: ص ٤٥٢ . والرواية في معظم كتب السير وهي في كتب الحديث حيث رواها عبد الرازق في مصنفة (٥/ ٣٥٩- ٣٦٠) بإسناد صحيح رجاله ثقات ، وجهالة الصحابة فيه لا تضر ، وأبو داود في السنن (٣/ ٤٠٤ -٤٠٦) ك الخراج/ ح ٣٠٠)، والبيهقى في الدلائل (٣/ ١٧٨ - ١٧٩) من طريق أبي دواد وعبد الرزاق، وابن مردويه بإسناد صحيح من حديث عبد الرزاق، وعبد الرحمن بن حميد في المغازى / ب حديث بنى النضير) والحاكم (٢/ ٤٨٣) .

قلب اليهود أمورهم كلها ، وذكروا من الماضي القريب ما ذكـــروه ، واستحضروا من الخيانات التي نسجوا من لحمتها وسداها ما نسجوه ، فقـــال قائلهم: إن لي فيما أنتم مقبلون عليه رأيا ما رأيتكم وقعتم عليه قبل٠

حوار ساخن وخيوط المؤامرة تنسج :

رأي أحد اليهود في داخل البيت والنبي في خارجه في النبي رأيا قـــد تحمس له ، وحفز له زملاءه من كبراء اليهود من خلال حوار ساخن ليـــس فيه من قضية مطروحة ، إلا رسول الله الذي يجلس هـــو ومـــن معـــه فـــي الخارج٠

اجتمع اليهود متمثلين في زعمائهم الكل يقول في رسول الله ما يراه٠

أما حيي بن أخطب فقد ذكر رأيه في النبي من خلال عبارات تعـــرب عما في صدره وتبين عما بداخله٠

[قال حيي بن أخطب: يا معشر يهود قد جاءكم محمد في نفـــر مـــن أصحابه لا يبلغون عشرة - ومعه أبو بكر ، وعمر ، وعثمـــان ، وعلـــى ، والزبير ، وطلحة، وسعد بن معاذ ، وأسيد بن الحضير ، وسعد بن عبـــادة - فاطرحوا عليه حجارة من فوق هذا البيت الذي هو تحتـــه فـــاقتلوه ، ولـــن تجدوه أخلى منه الساعة، فإنه إن قتل تفرق عنه أصحابه ، فلحق من كـــان معه من قريش بحرمهم ، وبقي من كان هاهنا من الأوس والخزرج ، فمـــا كنتم تريدون أن تصنعوا يوماً من الدهر فمن الآن] [١]٠

---

(١) سبل الهدي والرشاد - حـ٤ - ص ٤٥٢ ، ٤٥٣

والرواية عند ابن إسحاق - بإســـناد مرســـل - ابـــن هشـــام (٣ / ٢٦٧ - ٢٦٨)= ويتقوى هذا الإسناد بالمتابعة ، وقد توبع برواية موسى بن عقبة عند ابـــن حجر في الفتح (١٥ / ٢٠٢) وعند البيهقي في الدلائـــل (٣/ ١٨٠ - ١٨١) وفـــي رواية موسى بن عقبة عند ابن حجر زيادة عما عند ابن إســـحاق، وهـــي " كـــانت النضير قد دسوا إلى قريش وحضوهم على قتال رسول الله ﷺ ، ودلوهـــم علـــى العورة " وعنوان باب حديث بني النضير عند البخاري يدل على قبوله بهذا الســـبب ، ونص العنوان: " حديث بني النضير ومخرج رسول الله صلى الله عليـــه وســـلم إليهم في دية الكلابيين وما أرادوا من الغدر برسول الله ﷺ ٠

ولعل عبارة حيي بن أخطب الأخيرة هذه تشعرك بأن يهود بني النضير قد احتالوا لقتل النبي والتخلص منه أكثر من مرة ، وما واقعة استدراج النبي ومعه ثلاثين رجلاً يخرج إليهم ثلاثون من بني النضير ، طلبوا إلى النبي بعدها أن يُنزل العدد من كلا الطرفين فيكون ثلاثة من كل منهما عنا وعنكم ببعيد٠

وليست قصة الثلاثين رجلاً هي الخيانة الوحيدة التي اصطنعها اليهود التخلص من النبي ، ولكنهم بعد بدر وانتصار المسلمين فيها لم تنقطع مراسلتهم لقريش ، ولا تحريضهم لزعمائهم إلى أن كانت وقعة أحد ، فتقدم يهود بني النضير سراً بجميع المعلومات التي تدل على نقاط الضعف في صفوف المسلمين والطرق المؤدية إلى استغلالها ، وقدموها إلى أبي سفيان زعيم المشركين يومئذ ، فماعت بسببهم معركة أحد فيما يري بعض المؤرخين٠

ولكن المؤرخين يُجمعون - استناداً إلى القرآن الكريم والسنة النبوية وكتب المؤرخين - على أن المسلمين خرجوا من غزوة أحد فيهم بعض الانكسار حقا، لكن القرآن رباهم على كيفية صنع القرار والالتزام به ، وعلى سلوك الجندي داخل المعركة وعلاقته بقائده فيها ، الأمر الذي جعل اليهود لا تهدأ ثائرتهم ، ولا تنطفئ نيران العداوة والبغضاء في صدورهم ، بعد أن رأوا محاولاتهم تفشل الواحدة بعد الأخرى٠ من أجل هذا كانت عبارة حيي بن أخطب: [**فما كنتم تريدون أن تصنعوا يوماً من الدهر فمن الآن**]٠

وأما حديث حيي كله فكانت له آثار مختلفة في نفوس القوم ، ومنهم غريون وعقلاء٠

فمن الغريين الذين لا بصر لهم بالعواقب ، رجل يقال له:عمرو ابن جحاش - بفتح الجيم وتشديد الحاء مع فتحها وآخره شين معجمه - وهو

النضرى ، فقام إلى حيي منفعلاً وقال له أنا صاحب هذا الرجل وأنــــا الــذي سألقي عليه الرحي٠

ومن العقلاء الذين لهم اهتمامـــات بـالأمور وعواقبـها ، وبقومـه ومصالحهم رجـل يقال لــه: سلاّم بن مشــكم، حيـث قـام إلــى جمـهرة المؤتمرين داخل البيت بهذا الكلام المقنع العاقل الرصين: **[يا قوم أطيعونــي هذه المرة وخالفوني الدهر ، والله لئن فعلتم ليخبرن بأنا قد غدرنا به ، وإن هذا نقض للعهد الذي بيننا وبينه فلا تفعلوا]**(١)

من الحوار إلى محاولة التنفيذ :

وضاعت أصوات الحمائم وأوشكت أصوات الصقور أو الغربـان أن تنتصر ٠

لم ينصت القوم في جملهم إلى سلاّم بن مشكم ، وإنما أنصتـوا إلــى حيي بن أخطب ، وانتقل الجميع من النقاش والحوار إلى محاولة التنفيذ٠

وتحمس عمرو بن جحاش النضري إلى تنفيذ الخيانة وحده ، فقام إلى صخرة يدحرجها ويدفعها أمامه فوق سطح المنزل الذي يسند النبي وصحبـه ظهورهم إلى حائطه ، وبينما عمرو يدحرج الحجر وما أن وصل بـه إلــى المكان الذي يعلو النبي ، حتى وجد النبي يشتد في المشي ، ويجد في السـير وقد غادر المكان بسبب غير مفهوم أو معلوم لا للذين يجالسونه من نحو أبـي بكر وعمر ، وعلى ، ولا إلى ابن جحاش النضري٠

فأصحاب النبي يرون أن هذه الهيأة في المشى وهذا الانصراف بغـير استئذان من النبي ، ليس له عندهم إلا تفسير واحد هو أن النبي قـد ألجأتـه الحاجة إلى ذلك فقام إلى قضاء حاجته٠

وأما ابن جحاش النضري فقد وقف يعض على أنامله من الغيـظ أن قام النبي قبل أن يدركه ، ولكنه هون الأمر عليه أنـه رأي أصحـاب النبـي جالسين لم يصحب النبي في انصرافه منهم أحد ، وهو أمر يوحي بأن النبي

(١)سبل الهدي والرشاد - حـ٤ ص ٤٥٣

عائد لا محالة.

وطال انتظار ابن جحاش وطالت غيبة النبي ، فنزل يسأل حيي أين ذهب النبي.

وطال انتظار المسلمين لرسول الله ﷺ وأخذوا يتساءلون عن النبي أين ذهب ، ولماذا تأخر؟

وبينما هم يقلبون الأمر إذا بحيي يخرج إليهم تأخذه اعتمالات النفس وتنوع مشاعره واختلاط أفكاره يسأل في دهشة أين ذهب أبو القاسم ، هل انصرف لأنه قد استشعر أنا قد أبطأنا عليه ؟ ! إن كان الأمر كذلك فهو غير محق في استشعاره مثل هذا البطئ منا ، فهو ليس ضيفاً عاديا ، وهو ليس رجلاً كسائر الرجال ، إنا قد أبطأنا لأنا نعد له ضيافته ، ونصلح من شأننا حتى نلبي له طلبه.

إنا قد حملتنا الرغبة على أن نبالغ في ضيافته بما يناسب مكانته ، وأن نقدم له من القرى ما يليق به وبالوفد المرافق له ، هذا وإنا مع ذلك لعلى حرص شديد أن نلبي له طلبه الذي جاء من أجله ، وهو أن تدفع له من المال ما يستعين به على دفع دية الكلابيين من بني عامر ريثما نتصل بهم نهدئ من ثورتهم إن كانوا ثائرين لما بيننا وبينهم من العهد.

وما أن انتهي حيي من حديثه إلى المسلمين حتى قال الصديق أبو بكر: إن تأخر النبي عنا في ذلك الوقت وانصرافه عنا بغير استئذان ، أمور ليست له بعادة وما هي له بخلق ، وأري أن انصراف النبي وتأخره لم يكن إلا لأمر قد حدث ، فهيا بنا ننصرف.

عودة إلى الحوار :

وعاد حيي إلى الدار كاسف البال قليل الرجاء ، يضرب كفاً على أخري تحسراً على ما فاته من أمر النبي وخيانته .

والجالسون يرون في عين حيي تلك الحسرة ، ويلمحون تلك الحيرة ، وحال حيي ينطق بما في نفسه : إن هذه هي المرة الثالثة نُحْكم الأمر في كل مرة ويصبح الهدف قريبا منا ثم يفلت من أيدينا ، دبرنا له يوم الثلاثين وعدلنا في الحظة كي لا ينفلت منها وانفلت ، ودبرنا له يوم أحد وأطلعنا أعداءه على عوراته وأسباب الضعف عنده ، وهيجناهم ضده بما يكفي حتى أصبح الهدف بين أيدينا وضاع الهدف منا ، وقلنا في هذا اليوم ، إن الرجل عندنا ، والفرصة مواتية ، وليس هناك من عقل يقدر أن يحكم بإمكان انفلات الفرصة من أيدينا وقد أصبح الهدف قريب المنال ، واشتد قربه منا اشتدادا عظيما ، وفجأة ضاع الهدف من أيدينا .

أي شيطان أحمق ذلك الذي يخطط لنا معشر يهود ؟! وأي حظ وافر هو ذلك الحظ الذي يحيط بمحمد ؟! هذا هو حديث النفس الذي دخل به حيي الدار على قومه يقرأه الناس في وجهه ، ويلمحون آثاره عليه وهو يضرب كفاً على كف مرة، ويعض على أنامله من الغيظ مرة أخرى .

ولقد خف إليه عمرو بن جحاش النضرى وهو يقول : أين محمد أيها الحاخام الأكبر ، أقد عاد ؟ أتأمرني أن أذهب الآن إلى سقف البيت أطرح عليه فلقة الرحى لنتخلص منه ومما جاء به ؟ ، فرفع حيى بصره ثم قال : انتظر أيها المأفون الأحمق لا تعجل إنه عائد ، وإنا سنبلغ منه ما نريد .

وما كان لصمت حاخامات اليهود أن يطول حيث مزق الصمت أحد عقلائهم ، أو قل أحد حمائميم وهو : كنانة بن صويراء فقال موجها حديثه لجمع أصحابه [" **هل تدرون لم قام محمد ؟ قالوا : لا والله ، وما تدرى أنت! قال : بلى والتوراة إنى لأدرى ، قد أخبر محمد بما هممتم به من الغدر ، فلا تخدعوا أنفسكم ، والله إنه لرسول الله ، وما قام إلا أنه أخبر بما هممتم به من الغدر ، وإنه لآخر الأنبياء ، وكنتم تطمعون أن يكون من بنى هارون، فجعله الله حيث شاء ، وإن كتبنا والذي درسنا في التوراة التي لم**

تغير، ولم تبدل : أن مولده بمكة ، وأن هجرته يثرب ، وصفته بعينها ما تخالف حرفاً مما في كتابنا ، وما يأتيكم به أولى في محاربته إياكم ، ولكأني أنظر إليكم ظاعنين يتضاغى [١] صبيانكم قد تركتم دوركم خلوفا وأموالكم ، وإنما هي شرفكم ، فأطيعوني في خصلتين ، والثالثة لا خير فيها " . قالوا : ما هما ؟ قال : " تسلمون وتدخلون مع محمد ، فتأمنون على أموالكم وأولادكم، وتكونون من علية أصحابه ، وتبقى بأيديكم أموالكم ، ولا تخرجون من دياركم " قالوا : لا نفارق التوراة وعهد موسى . قال : فإنه مرسل إليكم : اخرجوا من بلدي فقولوا : نعم ، فإنه لا يستحل لكم دما ولا مالا وتبقى أموالكم لكم ، إن شئتم بعتم ، وإن شئتم أمسكتم " قالوا أما هذا فنعم] [٢] .

وحديث كنانة على هذا النحو إن كان قد بلغ من القوم مبلغا يحملهم على الموافقة ، أو يحملهم على الرضى ببعض ما يقول ، فإن حديثه نفسه قد شجع سلام بن مشكم على أن يستأنف حديثه ينصح لقومه ، وإن كان قبلُ قد عزف عن النصح لهم ، بعد أن رآهم لا يلتفتون إلى نصحه . لقد شجع كلام كنانة سلام على أن يتحدث من جديد ، فقال لقومه كلاماً يطابق من بعض وجوهه ما قاله كنانة ، ختمه بشيء من التأنيب لحيي ، ونصحه على أن لا يعود للمجازفة من جديد .

[قال سلام بن مشكم : قد كنت لما صنعتم كارها ، وهو مرسل إلينا أن اخرجوا من داري ، فلا تعقب يا حيي كلامه ، وأنعم له بالخروج ، واخرج من بلاده " . قال : أفعل ، أنا أخرج][٣]

والذي يظهر لي من تقليبي للنصوص والنظر فيها أن حيي بن

(١) التضاغى:التصايح.　(٢) سبل الهدي والرشاد جـ٤ ص٤٥٣،٤٥٤ .

(٣) السابق ص ٤٥٤ .

أخطب ظل على أمله هو وتابعوه في أن يعود النبي ﷺ وأنهم سيتمكنون من قتله ، وأن أحاديث كنانة وسلام وأمثالهما إنما هي من باب الاحتمالات العقلية، أو هي من باب الشطط في التفكير الذي يصدمه الواقع ، ويكذبه الحال .

ظل حيي وأصحابه على هذا الأمل يسكرون بنشوته ، ويتعلقون بأذياله .

[روي عبد بن حميد عن عكرمة قال: فبينما اليهود على ذلك إذ جاء جاء من اليهود من المدينة فلما رأي أصحابه يأتمرون بأمر النبي ﷺ . قال لهم: ما تريدون ؟ قالوا: نريد أن نقتل محمداً ونأخذ أصحابه ، فقال لهم: وأين محمد ؟ قالوا: هذا محمد قريب ، فقال لهم صاحبهم: والله لقد تركت محمداً داخل المدينة، فسقط في أيديهم] (١)

أصحاب النبي في أثره :

ولنا أن نترك اليهود على هذا الحال ريثما نتابع أصحاب النبي الذين كانوا معه لننظر ماذا يفعلون.

لقد استبطأ أصحاب النبي النبي كما رأينا ، وأشار عليهم أبو بكر بالانصراف ، إذ لا فائدة ترجي من الجلوس والانتظار والأمر مبهم ولابد من استجلائه.

ونزل القوم على رأي أبي بكر وانصرفوا راجعين إلى المدينة المنورة ، يستوقفون كل قادم منها يسألونه عن رسول الله ﷺ ، ويستطلعون أخباره من جهه القادمين فلقوا رجلاً خارجاً من المدينة ، فسألوه: هل لقيت رسول الله ﷺ ؟ فقال: نعم ، لقيته بالجسر داخلاً.

---

(١) السابق ص ٤٥٣

وأقبل الوفد على رسول الله ﷺ بالمدينة ، فتكلم أبو بكر قائلاً: يا رسول الله ، قمت ولم نشعر ، فقال رسول الله ﷺ: همت يهود بالغدر بي ، فأخبرني الله تعالى فقمت .

قال ابن عتبة: وأنزل الله تعالى في ذلك قوله: **" يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون"** (١)

النبي يوافق اليهود على نقض المعاهدة:

أقبل المسلمون الذين تركهم النبي في المدينة ووقفوا من النبي على حقيقة الأمر، وهو أن اليهود من بني النضير قد نقضوا العهد، وخرجوا من السلم إلى الحرب على طريقتهم التي أملاها الشيطان عليهم، ووسوس إليهم بها، وهي طريقة الخيانة.

والسؤال الآن الذي يبدو في أعين المسلمين وعلى وجوههم، ولا يجاهرون النبي به هو: إذا كان اليهود قد خرجوا بالخيانة من معاهدة السلام، فما الذي يمكن أن يفعله النبي ليكافئ به هذا الخروج؟

أما النبي فقد كان عنده الجواب وحياً أوحي إليه من ربه، ذلك أنه لما توجس من اليهود خيفة أن يخونوا في وطنه وفي أصحابه، وأن يتعاهدوا مع أعدائه عليه، أنزل الله عليه هذا النص الذي يشبه أن يكون قاعدة عامة في كل موقف مشابه، وهو قول الله تعالى " **وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين**"، وعلم النبي أن هذه الآية التي تمثل القاعدة العامة، تنطبق أول ما تنطبق على اليهود بجميع طوائفهم، إذ الخيانة متوقعة منهم كلما لاح لهم الظرف الذي يمكنهم من الخيانة ويتيح لهم أسبابها.

---

(١) المائدة : ١١

وأنت خبير معي أن النبي بمقتضى أخلاقه أولاً ، وبمقتضى هذا النص التكليفي ثانيا ، لا يجوز له أن يقابل خيانة بخيانة ، وإنما الشئ الوحيد المتاح له هو أن أعداءه إذا خرجوا من معاهدة السلام بالخيانة ، فعليه أن يتخلص من قيودها بالإعلان الظاهر ، والإخطار المعلن٠

ألا فلينبذ النبي إلى بني النضير بعيدهم ، ويلقي إليهم بقيوده رداً على ما نبذوه إليه منها بالخيانة٠

هذا هو الموقف الوحيد المتاح للنبي أن يباشره ، والنبي لا يعرف جوابا لهذا السؤال الذي قرأه في أعين أصحابه وعلى وجوههم ، إلا أن ينبذ إلى بني النضير على سواء٠

ولم يشأ النبي ﷺ أن يلقي بأصحابه في متاهات من الحيرة ، وهم يحاولون أن يجيبوا على هذا السؤال الذي حيرهم لكثرة دورانه في أفئدتهم ، واعتماله في صدورهم٠

لم يشأ النبي أن يتركهم على هذا الحال طويلاً ، فأرسل إلى محمد بن مسلمة أن يأتيه ولا يبطئ ، فأتي محمد بن مسلمة ووقف بين يدي النبي وقفة المنصت يسمع أمره ، والنشط الذي لا يحب أن يتلكأ في تنفيذ أمره٠

أما النبي فقد ألقي إليه بأمره: أن اذهب إلى يهود بني النضير فقل لهم:

إن رسول الله ﷺ ، أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلدي٠

وحمل محمد بن مسلمة رسالة النبي إلى اليهود من بني النضير لم يخيرهم فيها بين شيئين أو أشياء ، وإنما طلب حقه المشروع وهو أن القائم في أرض قوم يتعايش منها ، ويجاورهم فيها ، إذا لم يلزم نفسه بالانتماء إلى هذه الأرض والدفاع عنها بالاشتراك مع أصحابها والتعايش سلماً مع أصحاب الأرض الأصليين ، فلا أقل من أن يخرج من هذه الأرض ويتركها لأصحابها ، دون أن يكون هناك من ملام على أصحاب الأرض

الأصليين، إن هم قد طلبوا من الذين أقاموا معهم في أرضهم بغير سند شرعي أن يخرجوا منها.

فإن هم تلكأوا ورفضوا أن يخرجوا ، وأعلنوا الحرب على أصحاب الأرض الأصليين ، فليس على أصحاب هذه الأرض من لوم ، إن هم اصطنعوا الوسيلة التي يرونها مناسبة لإجلاء الغريب المخادع ، الذي تحول إلى عدو خائن عن أرضهم لتستريح منه البلاد والعباد.

ذهب محمد بن مسلمة بأمر النبي لا يلوي على شئ قاصداً اليهود من بني النضير.

محمد بن مسلمة الأوسى في ديار بني النضير:

وما أن وصل محمد بن مسلمة - وهو من الأوس - إلى ديار بني النضير ووقف عليهم ، حتى أعلمهم بأمر رسول الله فيهم ، وذكر بين يدي أوامر رسول الله ما يفحم القوم من حديثهم له قبل مقدم النبي ، وعقب على أمر النبي بما يصلح أن يكون سبب هذا الأمر وعلته.

أقبل محمد بن مسلمة على يهود بني النضير ، فلما جاءهم قال : [إن رسول الله ﷺ أرسلني إليكم برسالة ، ولست أذكرها لكم حتى أعرفكم بشئ تعرفونه في مجلسكم ، **(فقالوا: ما هو؟)** قال: أنشدكم بالتوراة ، التي أنزل الله على موسى: هل تعلمون أني جئتكم قبل أن يبعث محمد وبينكم التوراة فقلتم لي في مجلسكم هذا : يابن مسلمة إن شئت أن نغديك غديناك ، وإن شئت أن نهودك هودناك فقلت لكم : بل غدوني ولا تهودوني ، فإني والله لا أتهود أبداً ، فغد يمتوني في صفحة لكم ، وقلتم لي: ما يمنعك من ديننا إلا أنه دين يهود ، كأنك تريد الحنيفية التي سمعت بها، أما إن أبا عامر الراهب ليس بصاحبها ، أتاكم صاحبها الضحوك القتّال في عينيه حمرة ، ويأتي من قبل اليمن ، يركب البعير ، ويلبس الشّملة ، ويجتزئ بالكسرة ، وسيفه على عاتقه ، ينطق بالحكمة كأنه وشيجتكم هذه ، والله ليكونن في قريتكم هذه

سلب وقتل ومثل ؟ (**قالوا: اللهم نعم، قد قلنا ذلك وليس بـــه**) قـــال: قـــد فرغت ، إن رسول الله ﷺ أرسلني إليكم يقول لكم: إنكم قد نقضتم العـــــهد الذي جعلت لكم ، بما هممتم به من الغدر بي٠(**وأخبرهم بما كانوا هموا بـــه وظهور عمرو بن جحاش على البيت ليطرح الصخـــرة ، فأســكتوا ، فلـــم يقولوا حرفا**)٠ ويقول: اخرجوا من بلدي وقد أجلتكم عشرا ، فمن رؤى بعـد ذلك ضربت عنقه ، (**قالوا: يا محمد ، ما كنا نري أن يأتي بهذا رجل مـــن الأوس**) ، قال محمد بن مسلمة تغيرت القلوب]٠

استجابة رشيدة :

سمع اليهود من بني النضير كلام محمد بن مسلمة ، ورأوا بجملتـــهم أنه لاخيار أمامهم ، وأنه من الخير لهم أن يستجيبوا لما قاله رسول رســـول الله إليهم٠

واتخذوا للأمر عدته ، أقاموا أياماً يدبرون شئونهم ويصلحون أمرهم، يتخيرون من الدواب أشدها وأقواهـــا ليحملـــوا عليـــها أمتعتـــهم وأنفســـهم وذراريهم، فما كان عندهم منها أعدوه ، وما نقـــص أرســـلوا فـــي جلبـــه ليبتاعوه أو يكتروه ٠

رجل مشئوم ورأى غايته التهلكة :

وبينما هم على هذا النحو يدبرون شأنهم ، إذا برسالة من عبد الله بـــن أبي بن سلول رأس المنافقين يحملها رجلان مـــن أتباعـــه همـــا: ســـويد ، وداعس٠

وفي الرسالة التي جاءتهم على يد هذين الرجلين يعدهم فيها عبـــد الله بن أبي ويمنيهم أمورا خطيرة ما كان ينبغي لهم لو كانوا عقلاء أن يســتجيبوا لها٠

مضمون رسالة ابن أبى :

أما محصول الرسالة التي جاء بها الرجلان ، فهو أن الرجلين قـالا لبني النضير وفيهم زعيمهم حيي رأساً مطاعاً: يقول عبد الله بن أبـي : " لا تخرجوا من دياركم وأموالكم ، وأقيموا في حصونكم ، فإن معي ألفين مـن قومي وغيرهم من العرب ، يدخلون معكم حصنكم ، فيموتون عن آخرهـم قبل أن يوصل إليكم ، وتمدكم قريظة ، فإنهم لن يخذلوكم ، ويمدكم حلفـاؤكم من غطفان"٠

تحرك ابن أبي ودوام الإلحاح على بنى النضير:

ولم يكتف ابن أبى برسالته تلك التي أرسلها ، وإنما تحـرك تحركـاً نشطاً على ساحة الواقع العملي٠

ولقد رأى ابن أبي أنه يستفيد في خطته تلك استفادة بالغـة لـو أنـه أرسل إلى يهود بني قريظة يدعوهم إلى قتال النبي مع إخوانـهم مـن بنـي النضير ، وأرسل بالفعل إلي كعب بن أسد القرظى يكلمه في هذا الشأن يعـده ويمنيه تارة ، ويهدده ويتوعده ويرهبه تارة أخرى٠

أما كعب القرظي فلم يستخفه كلام أبي ولم يعجبه موقفـه ، وأرسـل إليه بكلام يوضح رأيه في المسألة قائلاً له: "**لا ينقـض رجـل واحـد منـا العهد**"٠

أما ابن أبي فإنه حين يئس من بني قريظة رأى أنه لم يعد أمامـه إلا أن يطرق على حديد بني النضير وهو ساخن ، مستغلاً كراهية حيـي بـن أخطب للنبي ورسالته لأتباعه من المسلمين٠

أثر كلام ابن أبى على يهود بنى النضير :

ولقـد شاء الله عز وجل أن يكون لكلام ابن أبي علـى يـهود بنـي النضير آثار متباينة يختلف اليهود فيما بينهم بسـبب هـذا الكـلام اختلافـاً عظيماً، فللصقور رأيهم وللحمائم رأيهم٠

وبينما الأحداث تتلاحق إذا ارتفع صوت سلام بن مشكم مرة اخـــرى ينصح لقومه ويشتد على زعيمهم.

وخلاصة ما قاله سلام ينصح به لقومه وزعيمهم حيي ألا يســـتجيبوا لخداع عبد الله بن أبي هو أنه قال: " **منتك نفسك والله - يـــاحيي البـــاطل ، ولولا أن يسفه رأيك لا عتزلتك بمن أطاعني من يهود ، فلا تفعل يـــاحيى ، فو الله إنك لتعلم - ونعلم معك - أنه لرسول الله ، وأن صفته عندنا، وأنــــا لم نتبعه وحسدناه ، حيث خرجت النبوة من بني هارون ، فتعال فلنقبل مـــا أعطانا من الأمن ونخرج من بلاده ، وقد عرفت أنك خالفتني في الغدر بـــه. فإذا كان أوان الثمر ، جئنا أو جاء أحد منا إلى ثمره فباع أو صنع مـــابدا له، ثم انصرف إلينا ، فكأنا لم نخرج من بلادنا إذا كانت أموالنا بأيدينـــا . إنا إنما شرفنا على قومنا بأموالنا وفعالنا ، فإذا ذهبت أموالنا من أيدينا كنا كغيرنا من اليهود في الذلة والإعدام ، وإن محمداً إن سار إلينا فحاصرنـــا في هذه الصياصى يوماً واحداً ثم عرضنا عليه ما أرسل به إلينا لم يقبلـــه، وأبى علينا**".

وحمي النقاش حين قال سلام ما قال حيث أجابـــه حيـــي قـــائلاً " **إن محمداً لا يحصرنا إلا إن أصاب منا نهزة ، وإلا انصرف، وقد وعدني ابـــن أبي ما قد رأيت**".

وأجابه سلام يحذر ويذكره ، ويحاول أن يثنيه عن رأيه قائلاً: تعلـــم أن كلام بن أبي ليس بشئ ، ذلك أننا قد حاربناه مع الأوس هو وقومه فـــترة طويلة من الزمن ، حتى سارت العداوة بين الأوس والخزرج إلي أن جـــاء محمد فاجتث جذور البغضاء من صدور الفريقين.

وأخرى تتعلق بطبع عبد الله بن أبي ، وما حكم التجربة عنك ببعيد.

حين أراد يهود بني قينقاع - من قبل - أن يحاربوا محمداً نزولاً على رأى ابن أبي ، وطمعا في مساعدته ، تركهم ابن أبي يرعبهم حصار النبـــي، وهو لا يخف لنجدتهم إلـــى أن اشتد بهم الحصار واقتحم النبي حصونـــهم ،

وأوشك أن يقتل محاربيهم ويسبي نساءهم ويغنم أموالهم وعبد الله بن أبي جالس في بيته لا يحرك ساكنا.

وثالثة أن ابن أبي قد أرسل إلى بني قريظة يتخذ منهم نصيراً لكم ، وهم قد رفضوه.

هذا. ولن يكون أمر ابن أبي معكم إلا كما كان أمره مع الذين من قبلكم ، فأطيعوني وانزلوا على أمر محمد ، حتى تبلغوا عزتكم بأموالكم ، وتحافظوا على شرفكم لا تنقصوه.

واسترسل سلام في نصيحته وتحذيره وتبريراته لما يقول ، إلى أن انقطعت منه الحيل.

نصيحة لا تثمر :

على أن نصيحة سلام قابلت أرضاً ملحة ، فلم تستطع أن تمد فيها جذورا ، وقد صادفت مناخاً سيئاً لا شمس فيه ولا هواء ، فذبلت أوراقها ، وانتهت إلى أن أصبحت هشيماً تذرها الرياح.

طبول الحرب :

وأخذ حيي بن أخطب يضرب على نغمة الحرب ونبذ السلام .

ولما لا يفعل والمدد يأتيه من كل جانب ، فقلوب المنافقين لا تطاوعهم أن يتركوا اليهود وحدهم بعدما منحوهم العقود والمواثيق.

وقريش الكسيرة لا تطاوعها أفئدتها أن يتركوا اليهود وحدهم مع النبي دون أن يساعدوهم ، فهم الذين سيرعون مصالحهم بالمدينة ، ويؤمّنون طرقهم من وإلى بلاد الشام .

تشجع حيي بن أخطب فأغلق باب النقاش ، وسحب طبول الحرب يعزف عليها نغمات ما قبل بوابة الموت.

حيي ينقض معاهدة السلام ويستنفر حلفاءه :

قرر حيى أن ينبذ إلى النبي بمعاهدة السلام صراحة بعد أن نبذ بها إليه خيانة ، فأرسل إلى أخيه يحمله رسالته إلى النبي من جهة ، وإلى عبد الله ابن أبي من جهة أخرى.

أرسل حيي إلى أخيه جدّي وحمله رسالتين إحداهما إلى النبي يخبره فيها أنه قد نبذ إليه بالعهد فليفعل ما بداله ، وثانيتهما إلى عبد الله بن أبي بن سلول يستنفره ويسأله أن يفي بما وعد.

وذهب جدي إلى النبي يقول له: إنا لن نخرج من هذه الأرض فافعل مابدا لك.

وكبر النبي مبتهجاً قائلاً : حاربت يهود ، وكبر المسلمون لتكبير النبي وابتهجوا لا بتهاجه ، وعلموا أن الخير في نقض بني النضير من اليهود العهد ، وإبطال بنود السلام.

وانصرف جدي عن النبي متوجها إلى دار عبد الله بن أبي ، وهناك وجده في نفر من قومه ، غير أنه قد أدهشه منه أمران

أما أحدهما : فهو أنه كان في بيته جالساً في ناحية منه ليس يهتم بشيء ، ولا يشغله شاغل كأن الأمر من حوله لا يعنيه.

وأما ثانيهما : فهو أن عبد الله بن أبي كان له وَلد قد أسلم مبكرا وتابع النبي على دينه ، فدخل والناس ينظرون في بيت أبيه ، وانتحى ناحية ولبس لأمته وهي لباس الحرب يلبسه المحاربون، ثم ودع أباه وانصرف.

وقام جدي من المجلس دون أن يفاتح عبد الله الأب في كثير ولا قليل، وانطلق إلى حيي ، فسأله حيي ، ما وراءك ؟ فقال : شراً لا نملك دفعه ، فسأله : هل نبذت إلى النبي عهدنا باسمنا؟ قال : نعم.

ثم سأله مرة أخرى هل مررت على حليفنا عبد الله بن أبي ابن سلول؟ قال: نعم

ثم سأله مرة ثالثة : فما تقييمك للأمر كله ؟ قال جدي: إنـــي لا أرى إلا أمرا . وسبب رؤيتي تلك أنني رأيت عجباً من العجب ، رأيت النبـــيﷺ حين نبذت إليه بعهده كما أمرتني أن أفعل ، ابتهج لذلك ابتهاجاً شديداً وكـــبر ، وكبر المسلمون معه ، وبعضهم يتلو ما نزل من القـــرآن الكريـــم " **وإمـــا تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء**" ، ولقد رأيت علـــى الجـــانب الآخر عجباً أدهشني، لقد ذهبت إلى حليفك وحليفنا عبد الله بن أبي بن سـلول كما أمرتني أن أفعل ، فحييته وهو جالس في ناحية من نواحي داره لا يلـوي على شئ ، وقبل أن أطلعه على رغبتك ، وقبل أن أحمله على النفرة ، دخـل أحد أبنائه وهو من أتباع محمدﷺ ، فحيي بتحية الإســلام وانتحـــى مـــن البيت جانبا ولبس للحرب لباسه وخرج ، فسألناه: إلى أيـــن أنـــت ذاهـــب ؟ فأجاب وأبوه يسمع ، إن النبيﷺ قد جاءته رسالة من يهود بني النضـــير تخبره فيها أنها قد أنهت السلام ونبذت بالعهد الذي أبرمته معه، وأن النبـــي قبل منهم ما أخبروه به ، ونبذ هو الآخر إليهم بعهودهم ، وأصبح اليهود مـــع المسلمين في حالة حرب على سواء، ونادي منادي النبـــي بالتعبئـــة العامـــة والاستعداد لمقاومة اليهود ، وإجلاؤهم عن الأرض المغتصبة حتى لا يـذوق المسلمين ويلات خيانتهم ماداموا محتلين لأرضهم ، ثم أردف ولد عبـــد الله قائلاً : وأنا أول من يستجيب إلى دعوة النبي أملاً في أن أموت شهيداً .

ولما أنهي ولد عبد الله حديثه وانصرف ، نظرت في وجه الأب عبـد الله بن أبي بن سلول أستطلع عزيمته علي شي قد يكون قـــد نـــواه أو عقـــد العزم علي تحقيقه فلم أجد إلارجلا خالي البال هادي الطبع ، لا يعنيه شـــئ من أمر الأحداث حوله ، فلم أحدثه في شئ ولم أبلغه رسالتك إليه ، وجئتـك مسرعا لأنقل إليك انطباعي ، فافعل ما بدا لك.

مسير رسول الله ﷺ إلى بنى النضير:

وبعد أن أعلن النبي ﷺ التعبئة العامة ، وبعد أن استعد المسلمون جميعا ، أمر النبي ﷺ أصحابه يقودهم هو بنفسه بالمسير إلى بني النضير ، واستخلف على المدينة عبد الله بن أم مكتوم يقيم شئونها ويصلي بالناس .

وما أن رأي اليهود النبي قادماً في أصحابه حتى قال حيي يا معشر يهود انتشروا فوق جدران الحصن ، وليتقدم منكم الرماة فيجتهدوا في رمي المسلمين بالنبال .

أما النبي فقد نزل بالمسلمين في فضاء بني النضير وصلى بهم العصر ، وظلت بنو النضير ترميهم بالحجارة والنبل من فوق حصونهم .

وانصرف عن مساعدة يهود بني النضير إخوانهم من بني قريظة ، فلم يساعدوهم لا بمال ولا بسلاح فضلا عن الرجال ، وصرحوا باعتزالهم واجتنابهم، وكذا فعل حليفهم عبد الله بن أبي بن سلول ، فلم يخف إلى شئ ، ولم يساعدهم بشئ .

ولقد لفت الأمر نظر سلام بن مشكم وكنانة بن صويراء ، وهما الرجلان اللذان اجتهدا في النصح إلى حيى بن أخطب أن لا يورد قومه موارد التهلكة ، فتوجها إلى حيى هذه المرة بالتأنيب والتجريح حين قالا له : "**أين نصر ابن أبي الذي زعمت ؟** " ، قال حيي : " **ما أصنع ؟ هي ملحمة كتبت علينا**" .

فلما أقبلت العشاء صلى النبي بأصحابه وأمرّ عليهم أحدهم هو علي بن أبي طالب ، وقيل أبو بكر الصديق ، ثم عاد إلى المدينة يستطلع الأمر بنفسه ممتطيا صهوة جواده لابساً لباس الحرب ومعه جماعة من أصحابه ، يتحسب أن تكون هناك خيانة تدبر من وراء ظهور المسلمين ، يخطط إليها أحد عدويه بالمدينة أوكلاهما ، عبد الله بن أبي بن سلول ، أو يهود بني قريظة .

وبقي النبي في المدينة ليلته وقواته بفضاء بني النضير.

فلما انفجر الفجر أذن بلال في الناس وأقبل النبي فيمن كان معه وصلى بهم الفجر في فضاء بني خطمة.

وكان النبي قد حمل قبة من خشب الغَرَب تضرب له في أرض المعركة ، لتكون هي غرفة القيادة التي يصدر منها الأمر ويعود إليها، فأمر بهذه القبة فضربت في مكان المسجد الصغير بفضاء بني خَطْمة.

وهذه القبة التي ضربت للنبي كانت في مرمى نبال اليهود ، وكان من بين قناصة اليهود أو رماتهم رجل أعسر يقال له: عزْوك - كان يصوب قبة النبي بنبله ، فأمر النبي المسلمين أن يحولوا قبته إلى المكان الذي به مسجد الفضيخ ، وهو المسجد الذي يعرف اليوم باسم مسجد الشمس، وهو مسجد صغير شرقي مسجد قباء على مرتفع من الأرض ، فأصبحت قبة النبي حين تحولت بعيدة عن مرمى النبال.

أسلوب المقاومة :

رأى النبيﷺ أن اليهود قد تحصنوا بحصونهم ، وأنهم من وراء هذه الحصون التي تحصنوا بها ، قد يتمكنون من رمي المسلمين وإحداث نسبة هائلة من الخسائر فيهم ، وأن الحرب النظامية مع هذه الظروف حرب خاسرة ، وانتهى القائد العظيم إلى خطة من نقطتين.

إحداهما: أن النبي قد رأى أنه لابد من المقاومة الفردية التي تعتمد على التسلل واختراق صفوف العدو ، وإحداث الخسائر في جنوده ، والحصول على بعض أسلحته ، وهذا الجزء من الخطة يحدث الرعب في صفوف اليهود ويعجل بالنصر والاستسلام.

ولقد بني النبيﷺ هذا الجزء من خطته على تصوره ، بل علمه بالجانب السيكولوجي أو النفسي من شخصية اليهود ، إذ اليهودي في كل

عصر يكون خفيف القلب ضعيف الإرادة ، لا يخف إلى إقدام ، ولا يجد ما يدعوه إلى المخاطرة.

وهذا الجانب من شخصية اليهود قد علمه النبي من تاريخ اليهود أنفسهم ، ومن معايشتهم على أرض الواقع ، ومن القرآن الكريم الذي أبرز له هذا الجانب من شخصية القوم ، حين خاطبه في أكثر من موضع بهذا المعني :" **قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين* ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين * ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون**"(١)

وهذا الجزء من الخطة التي قرر النبي اصطناعيا ، يحتاج إلى قدر كبير من المخاطرة بالنفس ، والنبي كعادته دائما حين يحسب الموقف ويجد فيه كثيراً من المخاطرة ، فإنه إما أن يباشره بنفسه ، أو يبدأ بأقرب الناس إليه.

وفيما نحن فيه اختار النبيﷺ أحد أهل بيته ليقوم بأول هذه المهمات، ولكن في سرية مطلقة لا يكاد معها يعرف بالأمر إلا من عُهِد إليه بتنفيذه ، والقائد الذي كلفه والله من ورائهم محيط ، وما ذلك إلا للحد من نسبة الخسائر المحتملة ، وهو مطلب يطلبه كل قائد حريص على جنوده ، مبق على رحاله ، وهو هدف يحرص عليه كل رجل يقوم بعملية في صفوف العدو للإبقاء على نفسه وإخوانه للقيام بعمليات أخرى ، فإن لم يرد الله مع هذه الحيطة إلا الاستشهاد ، كان الاستشهاد عنده مطلباً عزيزاً ، وحياة في الدار الآخرة لا يعقبها فناء.

---

(١) البقرة: ٩٤ : ٩٦

حرص النبي ﷺ أن يكون أول خارج لتنفيذ هذا الجزء من الخطة التي ارتسماها النبي ليتفادي بها الحرب النظامية أعز رجل عليه من أهل بيته ودونك هذه القصة: لما كانت ليلة من الليالي فقد على رضي الله عنه قرب العشاء ، فقال الناس: يا رسول الله ، ما نري عليا قال : دعوه ، فإنه في بعض شأنكم ولم يلبثوا إلا قليلا حتى جاء على برأس عزوك ، وقد كمن له حين خرج يطلب غرة من المسلمين ، وكان شجاعا راميا أعسر كما علمت ، فشد عليه فقتله ، وفر من كان معه.

وفي الطلعة الثانية أرسل النبي مع على أبا دجانة وسهل بن حنيف في عشرة من أصحابه فأدركوا اليهود الذين فروا من على ، فقتلوهم وطرحت رءوسهم في بعض البئار.

واستمر النبي على هذا الجزء من الخطة يتابعه ليلة بعد ليلة حتى أتى بثماره من صد هجمات العدو عنه وتتبعهم له ولأصحابه ظانين أنهم يدركونه وينالون منه بهذا الأسلوب.

وثانية النقطتين : في خطة القائد العظيم ترتكز هي الأخرى على جوانب نفسية يعرفها النبي من شخصيات اليهود ، يعرفها منهم عن طريق معايشتهم، وهو يعرفها منهم عن طريق معرفته بتاريخهم ، وهو يعرفها عنهم عن طريق الوحي.

وهذه النقطة الثانية في هذه الخطة للقائد العظيم تدور كلها حول المال وتعلق اليهود به.

ويهود بني النضير كانوا زراعيين يزرعون النخيل والكروم ، ويجنون ثمارهما.

ولو أراد النبي ﷺ أن يفت في عضد المحاربين ، ويوهن من عزائمهم من غير إحداث كبير خسائر في أفراده أو أفراد العدو ، فما عليه إلا أن

يشعرهم بأن أصول اقتصادهم تحت يده ، إن شاء تركها ، وإن شـــاء نـــ
منها •

وهذا التصور الذي تصوره النبي صحيح إلى حد كبـــير ، بـــل هـــ
صحيح بجميع المقاييس ، إذ القاعدة الأساسية التي قام عليها هذا التصور قـد
أثبتها التاريخ على مدار السنين وفي خضم الأحداث •

ولم يتردد النبي ﷺ في مباشرته لهذه الجزئية من خطته ، كي تؤتـــي
ثمارها مع الجزئية السابقة عليها وتكتمل الخطة من هذين الجزأين جميعاً •

أصدر النبي تعليماته إلى رجاله أن ينالوا من ثمار النخيل شـــيئاً مـــا
بقصد إحداث الألم في قلوب اليهود ، وقد فعل المسلمون ذلـــك فـــي عـــدة
طلعات مختلفة أتت بثمارها السريعة ، وكان لها ردود فعل مختلفـــة ، وردود
الفعل تلك تتلخص في نقطتين •

النقطة الأولي: أن اليهود قد رأوا فيما فعله النبي فرصة متاحة يمكـن
استغلالها في شق صفوف الوحدة حول النبي عمليا وفكريـــاً ، فأشـــاعوا أن
النبي متناقض مع نفسه فأقواله تخالف أفعاله (**وحاشاه**)، ذلك أنه ينهي عـن
الإفساد والفساد وهو الآن يأمر بتقطيع النخيل ، أو اتلاف بعض ثمارها •

واستجاب بعض المسلمين لهذه الشائعات ، وهم وإن كانوا لا يشـــكون فـــي
تصرفات النبي إلا أنهم قد شكوا في تصرفات الرجال الذين قد قـــاموا بـــهذه
العمليات المتصلة بأصول اقتصاديات اليهود ، ولم يفرقوا وهم تحت التـــأثير
الدعاية العالية بين عمل يقصد لذاته ، وآخر يكون القصد منه هـــو التـــأثير
على مجريات الأحداث في الحروب حقناً للدماء من الفريقيين ، خاصة دمـــاء
المدنيين من غير المحاربين كالنساء والأطفال •

ولقد كان الوحي رحيماً بالمسلمين حيث بيـــن لـــهم ولليـــهود الذيـــن
يعلمون صدق النبي ، أن هذا التصرف الذي تصرفه بعض رجال المســـلمين
كان مصدره الوحي ، حيث قال الله عز وجل في سورة نزلت كلها في يـــهود

بني النضير وفيها قوله تعالي :" **ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين**" [١]

والنقطة الثانية : من ردود فعل اليهود مترتبة على فشلهم في النقطة الأولى ، وهي أن اليهود حين رأوا أن مقاومة المسلمين لهم قد امتدت إلى أصول اقتصادهم، ورأوا مع ذلك أن حلفاءهم قد تخلوا عنهم رفعوا رايات الاستسلام، السلاح وطلبوا إلى النبي أن يجالسهم ليتفاهموا معه٠

المفاوضات بين النبى واليهود :

ولما رأى حيي أن الطرق أمامه قد أغلقت ، وأنه قد سد كل طريق في وجه نفسه وأهله أرسل إلى رسول الله ﷺ: نحن نعطيك الذي سألت ونخرج من بلادك٠ فقال رسول الله ﷺ لا أقبله اليوم ، ولكن اخرجوا منها، ولكم ما حملت الإبل إلا **الحلقة** [٢]٠

ولما أجابه النبي بهذا الجواب تقدم إليه سلام بن مشكم ينصح له قائلاً : اقبل ويحك، من قبل أن تقبل شراً من ذلك ، فقال حيي: ما يكون شراً من هذا٠ قال سلام بن مشكم : تسبي الذرية وتقتل المقاتلة مع الأموال والأموال أهون علينا٠

وتردد حيي في قبول نصيحة سلام كعادته ، وظل على تردده يوماً أو يومين غير أن الموقف بصعوبته وتعقيداته لا يمهل مثله ، فعاد وقبل ما نصحه به سلام٠

غير أن رجلين من اليهود رأوا أن يدخلا مع النبي في دينه قناعة منهما بذلك ، وعلماً منهما أن من دخل مع النبي في دينه أمن كما يأمن سائر المسلين ، واحتفظ بأمواله وممتلكاته ، لا يجوز لواحد من المسلمين أن يأخذ منها شيئاً أو ينالها بسوء٠

---

(١) الحشر : ٥

(٢) الحلقة: السلاح

وهذان الرجلان هما : يامين بن عمير وأبو سعد بن وهب.

ولم يكتف يامين بذلك ولكنه قد أخذته الغيرة على رسول الله حين علم أن عمرو بن جحاش كان هو الذي اختار أن يلقي بالصخرة على النبي على نحو ما ذكرناه.

ودفعته الغيرة إلى أن استأجر رجلاً من قيس وجعل له جعلاً أن ينتقم له من عمرو بن جحاش ، فقتله الرجل قبل أن يؤمن النبي اليهود.

جلاء بني النضير :

ولقد وافق النبي على أن يجلو بنو النضير عن أرضه ، ويأمنون على أنفسهم وما حملوه من ممتلكاتهم ، وخرج اليهود بعد أن خربوا بيوتهم من قبلهم
بأيديهم ، ومن قبل المؤمنين بأيدي المؤمنين ناحية الشمال ، فنزل بعضهم في خيبر ، وذهب بعضهم إلى بلاد الشام ، وتركوا وراءهم أموالهم وأسلحتهم والأرض التي كانوا يزرعونها ويقيمون عليها بغير حق.

تصرف النبي في فئ بني النضير :

وحصر النبي الأسلحة والأموال فكان من بين ما حصره من السلاح خمسون درعاً وخمسون بيضة وثلاثمائة وأربعون سيفاً.

وهذه الممتلكات من السلاح وغيره آلت كلها إلى النبي يتصرف فيها كيف يشاء ، لأن المسلمين ما أوجفوا عليهم بخيل ولا ركاب.

وكان جلاء بني النضير عن المدينة باركها الله في ربيع أول سنة أربع من الهجرة بعد حصار استغرق أياما وليالي ، اختلفت الروايات في عددها والعلم عند الله. (١)

---

(١) راجع ابن القيم – زاد المعاد جـ ٢ – ط دار المنار – الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ – ١٩٩٨م – ص ١٠٣ وما بعدها ، وسبل الهدي جـ ٤ ص ٤٥١ وما بعدها = والبداية والنهاية – ابن كثير – جـ٤ – ط مكتبة المعارف بيروت – الطبعة الثالثة ١٩٨٠م ص ٧٤ وما بعدها.



خيانة بنى قريظة وإنزال العقوبة بهم

****

لم يبق مع النبيﷺ في المدينة من اليـــهود ســوى بنـــى قريظـــه وزعيمهم كعب بن أسد .

والنبي ﷺ كان قد عاهدهم كما علمت ، والتزم الفريقان بعهدهم ، لم يخرج واحد منهم على العهد .

و كان بنو قريظة قوماً يعملون بالزراعة و ينشغلون بها ، و بينـــهم و بين المسلمين من أنصار و مهاجرين نوع من المودة ، و تبادل المنافع علـــى نحو ما يكون بين الجار وجاره .

و قد علمت فيما سبق أن حيى بن أخطب ،وعبد الله بن أبى بن سلول قد حاولا قبيل إجلاء بنى النضير أن يحمل القرظيين علـــى أن يدخلـــوا مـــع إخوانهم اليهود فى نقض العهد مع النبي ، وإبطال معاهدة الســـلام المبرمـــة بينهم و بين المسلمين ، و أن بنى قريظة لم يستجيبوا لهذه المحاولة ،وقـــالوا لعبد الله بن أبى : إنا مع النبي في معاهدة سلام ، وإنا لم نر مـــن الرجـــل إلا خيرا .

واستمر يهود بنى قريظة على مبدئهم هذا لا ينبذون إلى النبي عـــهده، ولم يرهقهم النبي في شئ .

حزب الشيطان :

غير أن الأمور لم تسر على ما يريد النبي إلى آخر المدى ، وهي لـــم تسر على ما يريد القرظيون إلى آخر الدهر ، لأن أحـــد اليـــهود مـــن بنـــى النضير قد دارت في رأسه حمى تقليد أبائه و أجداده ، فارتكس فـــي حمـــأة الخيانة إلى أبعد مدى ، لا يصلح معه أن يدافع عنه بعض الكتاب المحدثيـــن

من اليهود على استحياء ، أو على غير استحياء، ولا ينفع معه أن يشهد لمثل هذا الدفاع أحد المسلمين الذي فضل أن لا يكون مع الحق يُسلّم له قياده، بل قادته المنفعة إلى إشباع هواه.

والله يبعث كل إنسان منا على نيته، ويحاسبه على مقتضاها أو يغفر له كل ما انكشف من سوءته.

ارتكس بعض اليهود في حمأة الخيانة إلى الأذقان، وهو حيي بن أخطب زعيم بني النضير، الذين أجلاهم النبي عن المدينة بسبب خيانتهم.

حين خرج حيي من المدينة متجها إلى الشمال، ترك بعض قومه يذهبون إلى الشام، ونزل هو وعصبة من رجاله معه بخيبر وما حواليها من مساكن اليهود.

ولم يكن اختيار حيي بنزوله بخيبر وما حولها عشوائيا، أو مجردا عن الفكرة الدافعة إليه.

والفكرة الدافعة إليه هي: أنه أراد أن يفرغ نفسه لتأليب العرب في شمال المدينة وجنوبها ضد النبي.

ففي شمال المدينة تتمركز غطفان ومن يدور في فلكهم من العرب.

وفي جنوب المدينة قريش وحلفاؤهم.

وحيي يريد أن يألب هؤلاء وهؤلاء، وغير هؤلاء وهؤلاء على النبيﷺ بعد أن يدخلهم جميعاً في حلف، يكون هو الذي يضع بنوده ويحدد إطاره.

غير أن حيي قد فكر طويلاً في الطريقة التي يتبعها في إغراء هؤلاءو هؤلاء.

ولم يستمر حيي طويلا حتى أملى عليه شيطانه ما ينبغي عليه فعله. ووضح شيطانه أمامه الطريق وضوحا تاما لا يخطئ معالمه.

أما قريش: فإن نقاط الارتكاز في دعوتهم لا تحتاج إلى عبقري حتى يدركها.

فقريش كما علمت أصحاب مصالح تجارية يحتاجون إلى سوق يستوعب تجارتهم، والمدينة المنورة فيها من التكتل السكاني ما يغرى أرباب الأموال بالحفاظ عليهم سوقاً مفتوحة تستوعب بضاعتهم وتربح أموالهم، وتجارتهم في الوقت نفسه تأخذ كل عام طريقها إلى الشام، وهي مضطرة للمرور على المدينة ذهاباً وإياباً، وليس من مصلحتهم تزايد قوة النبيﷺ في هذه البقعة من الأرض.

وقريش في الوقت نفسه بينهم وبين النبي والمسلمين عداوات وثارات، خلفتها غزوة بدر الكبرى أولا، وساهم فيها ما حدث يوم أحد.

وليس بصحيح ما توهمه بعض القرشيين، من أن معركة أحد قد أعادت إلى قريش هيبتها بين العرب، وإنما الصحيح أن معركة أحد قد ماعت، لا يحسب فيها النصر لأحد الفريقين على الآخر، وإنما كل فريق منهم يمكن له أن يعزى نفسه بقوله لإخوانه: لا تحزنوا فإنهم يألمون كما تألمون.

ويمتاز المسلمون المصابون في أحد بأنهم يرجون من الله مالا ترجوا قريش، وهم فوق ذلك قد تابعوا قريشاً بعد المعركة وساروا في أثرها يطاردونها، حتى ألجأوا زعيمها أبا سفيان أن يأمر أصحابه بأن يجدوا في المسير، حتى لا يدركهم المسلمون.

وبقيت ثارات قريش تلح عليهم أن ينتقموا لقتلاهم يوم بدر ويوم أحد، وبقيت هيبتهم في نفوس العرب والتي أضاعها النبي من بين أيديهم تلح على قريش أن يعملوا على استردادها.

وقريش بعد كل ذلك وقبله سدنة البيت العتيق وأصحاب الزعامة الدينية في مكة يؤمهم الناس حاجين ومعتمرين، ثم هم لا ينصرفون عن مكة

إلا وقد أثروها ماديا واجتماعيًّا بالبيع والشراء، وإقامـــة الأسـواق الأدبيـة والمهرجانات الثقافية.

أمور كثيرة، وأسباب متعددة تخلق المناخ المناسب يزرع فيــه حيـي بذور خبْثه، ويبذر فيه بذور حقده، ويغرس فيه شتلات الضغينة التي لا تنبـت إلا مر الثمار.

وذهب حيي بالفعل إلى قريش يعدهم ويمنيهم، ويحملهم علـى الشـر حملاً، وهم يقبلون عليه مرة، وينصرفون عنه مرات، وهو طويل النفس فـي نفث سمومه، ينسج على منوال الفتنة الشر لُحْمته وسَداه.

وهو في كل محاولة يضغط على مثير من المثـيرات التـي تـهيج قريشا، حتى سألوه وهم في قمة هياجهم: أنتم يهود وأهل كتاب، وعندكم مـن العلوم الدينية ما ليس عندنا ولا عند محمد، وعندكم من معايير الترجيح بيـن الديانات ما لا يخطئ في مجال الترجيح فتيلا ولا قطمـيرا، وإنـا نسـألك ونسأل حاخامات اليهود معك عنا وعن ديانتنا، وعن محمد ودينه، أينا أفضـل عند الله، وأقوم للعيش على هذه الأرض، وأقدر على قيادة العـرب، وأحـق بالزعامة والقيادة؟

قال حيي ومن معه: يا معشر قريش إنه لا مجـال للمقارنـة، إنكـم بوثنيتكم وعبادتكم للأصنام أفضل من محمد ومن معه على توحيدهم ونبذهـم الشرك.

وقريش قد امتلأت زهواً بما سمعته من شهادة أهل الكتاب وانحيـازهم لهم.

أرأيت يا صاحبي إلى الشر أين يذهب، وإلى الضلال والغايـة التـي ينتهي إليها؟!

أما أنا فإني أرى القرآن الكريم ينعي على هؤلاء النفر من اليـهود صنيعهم، ويقبح فعلتهم حين يقول:" **ألم تر إلى الذين أتوا نصيبا** ...

يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا* أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجدله نصيرا* أم لهم نصيب من الملك فإذاً لا يؤتون الناس نقيراً* أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما* فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه وكفى بجهنم سعيراً"(١)

وأما أنا فإني قد اطلعت على كلام أبناء جلدتهم، فرأيت لبعضهم كلاما يلومون فيه حيى وأتباعه أشد اللوم، حيث قبح صورتهم في التاريخ حين وقف يرجح على غير معيار ديانة الوثنية في مكة على ديانة التوحيد في المدينة.

وهاك عبارته من كتاب تاريخ اليهود في بلاد العرب أنقل لك منه هذا النص، وهو موصول بما قبله [.. **لكن الذي يلامون عليه بحق والذي يؤلم كل مؤمن بإله واحد من اليهود والمسلمين على السواء، إنما هو تلك المحادثة التي جرت بين نفر من اليهود وبين بنى قريش الوثنيين، حيث فضل هؤلاء النفر من اليهود أديان قريش على دين صاحب الرسالة الإسلامية.**

نعم إن ضرورات الحروب أباحت للأمم استعمال الحيل والأكاذيب والتوسل بالخدع والأضاليل للتغلب على العدو، ولكن مع هذا كان من واجب هؤلاء اليهود ألا يتورطوا في مثل هذا الخطأ الفاحش، وألا يصرحوا أمام زعماء قريش هذا فضلاً عن أنهم بالتجائهم إلى عبدة الأصنام إنما كانوا يحاربون أنفسهم بأنفسهم، ويناقضون تعاليم التوراة التي توصيهم بالنفور من أصحاب الأصنام والوقوف معهم موقف الخصومة] (٢)

---

(١) النساء: ٥١ – ٥٥

(٢) تاريخ اليهود في بلاد العرب – إسرائيل ولفنسون – ص ١٤٢ (مرجع سبق ذكره).

وأياما كان الأمر في تقييم حيى ومن شايعوه من اليهود، فإنه في كل حال قد عرف الطريقة إلى تأليب قريش على النبي، ومعهم حلفاؤهم من بني كنانة وأهل تهامة، في صدورهم حماستهم تدفعهم الرغبة في تأمين تجارتهم وفتح أسواقهم، واسترداد هيبتهم ومكانتهم.

وأما غطفان : ومن شايعهم من أهل نجد، فلم يكن بينهم وبين النبي ثارات ولا حروب، ولا حتى خلافات، وليست المدينة في طريقهم إن أرادوا أن يذهبوا إلى الشام أو يعودوا منها، ولا غير ذلك من الأمور التي ارتكز عليها حيى، وسلام بن أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع حين ذهبوا إلى قريش يألبونهم على النبي، ويغرونهم به.

وهنا يجد حيى ومن شايعه من الرجال أنفسهم في حاجة إلى أسلوب جديد يثيرون به غطفان ومن معهم ضد النبي ﷺ في المدينة.

وأجهد الرجال أنفسهم في البحث عن هذا الأسلوب، ولم يجدوا لذلك سبيلاً يصلون به إلى نفوسهم، سوى أن يجعلوا لهم جعلاً، أو يحددوا لهم أجرا.

والأجر المقترح عرضه على هؤلاء هو: أن يقولوا لغطفان ومن معهم : اجتمعوا معنا على قتال النبي ولكم ثمار خيبر جميعها عاماً كاملا.

وغطفان قد أغراهم هذا العرض من حيى ورفاقه، واجتمعت كلمتهم على أن يجيبوا اليهود على ما أرادوه.

ملاحظة لا تخطئك:

وحين اجتمع لحيى ورفاقه من يهود بني النضير، ما أرادوه من تأليب العرب على النبي ودعوته في المدينة، واجتمع له حلفاؤه من جنوب المدينة وشمالها، قابلته مشكلة لم تسعفه قريحته أن يتغلب عليها، وهي: أن العرب الذين ألبهم حيى ليسوا على هدف واحد في حروبهم ضد النبي، إذ قد

علمت أن لقريش أهدافها، ولغطفان ومن شايعهم من أهل نجد هدفها، الذي لا يعدو أن يكون جُعلاً ينالهم خيره، أو أجراً يستحقونه بعد غلبتهم للنبي أن يأخذوه.

وطالما توزعت الأهداف، واختلفت المقاصد، وتبعثرت الدوافع، فإن اجتماع الجنود يكون هشاً يطيح به قليل من الإعصار، وشئ من الوهن.

وإعضال آخر قد قابل حييًا ورفاقه، وهو: أن العرب في طباعهم أن كل قبيلة منهم لا تسلم زمام قيادها إلى قبيلة أخرى بسهولة، وإنما كل قبيلة منهم ترى أنها أولى بالقيادة، وأقدر على الزعامة، وأن ما دونها من القبائل لا يتاح لهم إلا أن يتبعوها، ويسيروا في فلكها، ويخضعوا لزعامتها وقيادتها.

وتلك مشكلة متأصلة في العرب منذ القديم وإلى اليوم، وهي مشكلة أعيت حييا لم يستطع منها فكاكاً، ولم يجد له منها مخرجا.

وهذه المشكلة التي أعيت حييا ورفاقه كانت أولى بشائر النصر للمسلمين، وطلائع الفوز لهذا الدين الجديد الذى أذاب هذه الخصلة في قلوب تابعيه، وأصبح الأوس والخزرج على ما كان بينهم من خلاف في الجاهلية يدينون بالقيادة للنبيﷺ ، لا يفكر واحد منهم في زعامة، ولا في عصبية. وإنما كل واحد منهم يريد أن يموت بين يدي النبي القرشي ، ويحظى بالشهادة والنبي يشهد له بها.

والمهاجرون على اختلاف قبائلهم وتنوعها، قد رضوا أن يكون النبي إمامهم لا يختلفون عليه، ولا يطمعون بين يديه إلا في رضي الله عز وجل.

وهكذا اجتمعت أمام حيى أمور أعيته وضايقته ، فلم يكن له من بد إلا أن يتجاوزها، وأن يُسرع بجمع الحلفاء في مدينة رسول اللهﷺ زاعما أنه بأيديهم سوف يبطش البطشة الكبرى .

وفود الحلفاء تزحف على المدينة :

ولم يبطئ حيي، بل رأى أن المصلحة أن يطرق والحديد ساخن.

ولم يطمع حيي في أن يأتي باليهود معه، سوى هؤلاء الزعماء الذين كانوا معه ومن أول الأمر على رأيه.

تحركت قريش ومن شايعهم من تهامة وبني كنانة حتى وصلوا إلى المدينة. ونزلوا بمجتمع الأسيال من رومة بين الجرف وزغابة في عشرة آلاف من أحابيشهم، وذلك في شهر شوال سنة خمس.

وأما غطفان فقد أقبلت ومعهم من تبعهم، حتى نزلوا بذنب نَقمي إلى جانب أحد.

أما الرسول ﷺ فقد خرج إليهم في أصحابه حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع، وكان عددهم يومئذٍ ثلاثة آلاف رجل من المسلمين، فضرب هناك عسكره، والخندق بينه وبين القوم.

وهكذا أصبحت وفود الحلفاء وجهاً لوجه مع النبي ﷺ ، كل على مقصده وهدفه.

حيي يعبث بالقيم :

وعلم حيي أن الحلفاء مختلفون في أهدافهم، فمنهم من يقاتل حمية، ومنهم من يقاتل مأجوراً على ما علمت.

وعلم حيي والذين معه من أقطاب اليهود، أن العرب الذين قرروا حرب النبي لم يجتمعوا على قائد واحد منهم، يسلمون له قيادهم، يأتمرون بأمره، وينتهون حيث نهي، وهذه نقاط ضعف قد تفت في عضد الحلفاء في لحظة واحدة من عشية أو ضحاها.

وحين علم حيى هذه المسألة وتلك، رأى أن يحتاط للمعركة، وأن يسرع بنتائجها، ففكر وقدر، وتأمل وتدبر، فلم يجد إلا أن يحاول أن يضغط على النبي من الداخل، حتى يُلجأه إلى بعثرة قواته، فيسحب جزءاً منها لحماية ممتلكات المسلمين ونسائهم وذراريهم من وراء ظهورهم، وحينئذ يعطى الحلفاء فرصة لاقتحام الخندق والتمكن من النبي ورفاقه.

وانتهى حيى من تفكيره إلى أنه، لا يمكن أن يحقق له هذا الهدف إلا يهود بنى قريظة، وزعيمهم كعب بن أسد.

غير أن الطريق إلى إقناع اليهود من بنى قريظة صعب ووعر، إذ إن العلاقة بين النبي وبين هذا الحي من اليهود علاقة ممتازة.

فهم قد دخلوا معه في معاهدات سلام، والتزموا ببنودها، ووفى لهم النبي والمسلمون معه بعهودهم أحسن الوفاء وأكمله.

وهم قد دخلوا معه ومع المسلمين في علاقات اجتماعية ومجاملات الجوار، بحيث كانوا يتبادلون المنافع، ويتعاورون أدوات الزراعة يتبادلونها فيما بينهم، ومازال عند النبي والمسلمين المساحى والمكاتل التي استعارها المسلمون منهم في حفر الخندق.

وهم قبل ذلك وبعده أصدقاء للأنصار، خاصة هذا الحي من الأوسيين، والذين كانت تربطهم بهم علاقات استمرت إلى هذا التاريخ لا تشوبها شائبة.

وهذه أمور يكفى بعضها لوضع العراقيل أمام حيى ورفاقه، لو أنهم أرادوا أن يقنعوا بنى قريظة كي يخرجوا على النبي نابذين له بالعهد، يخلعون عروة السلام من أعناقهم.

ومع ذلك فان حييًا لم ييأس، ولم يعبأ بمثل هذه العراقيل، حيث رأى من نفسه ومن رفاقه القدرة باصطناع الحيلة على أن يتجاوز كل صعوبة.

ولم يكن أمام حيي من وقت يضيعه ، فإن العيبين اللذين لاحظهما في جيوش الحلفاء من تبعثر الأهداف وتعددها ، ومن تعدد القادة ، لم تبق له وقتا يضيعه .

وأسرع حيي إلى آطام بني قريظة وحصونهم متخذاً من الظلام سترا يستتر به ، ومن الليل جملاً يمتطيه ، وما أن وقف على باب حصن بني قريظة حتى ناداهم أن افتحوا ، وأجابه زعيمهم كعب بن أسد يسأله عن اسمه ومن هو من خلف باب الحصن ، فقال :- حييٌّ نضري- [ويحك يا كعب ! افتح ، قال : ويحك يا حيي ! إنك إمرؤ مشئوم ، وإني قد عاهدت محمدا ، فلست بناقض ما بيني وبينه ، ولم أر منه إلا صدقاً ووفاء . قال : ويحك ! افتح لي أكلمك ، قال : والله ما أنا بفاعل ، قال : والله ، إن أغلقت دوني إلا خوفا على **جشيشتك** [١] أن آكل معك منيا . **فأحفظ الرجل** [٢] ففتح له ، فقال : ويحك يا كعب ! جئتك بعز الدهر ، وبحر **طام** [٣] ، جئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة ، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب **نقمى**[٤] إلى جانب أحد، قد عاقدوني وعاهدوني على ألا يبرحوا حتى نستأصل محمداً ومن معه. قال له كعب: جئتني والله بذل الدهر **وبجهام** [٥] قد **أهرق** ماؤه [٦]، فهو يرعد ويبرق، وليس فيه شئ،

(١) الجشيشة: بجيم مفتوحة فشينين معجتين بينهما تحتية، وجبة من الطعام مكونة من قمح أو غيره يطحن طحناً جليلاً ثم يلقي في القدر أو الإناء ويلقي عليه باللحم أو التمر ويطبخ حتى يساغ .وهذه الوجبة قد تسمي بـ (الدشيشة) بالدال بدلا من الجيم، زعم المحب الطبري أنها لغة عصره، والصحيح في وضع اللغة أنها الجشيشة بالجيم.

(٢) أحفظ الرجل: أغضبه . (٣) طام : بالطاء - مرتفع عال .

(٤) أسماء أماكن تظهر لك بتأمل خريطة المدينة القديمة المرفقة.

(٥) جهام الجهام - بجيم مفتوحة فهاء مخففة فميم - السحاب الذي لا يرجي المطر منه.

(٦) أهرق : صب وأفرغ.

ويحك يا حيى!

خلني وما أنا عليه، فإني لم أر من محمد إلا صدقاً ووفاء. فلم يــزل حيى بكعب **يفتله في الذروة والغارب**[١] حتى سمح له على أن أعطاه عــهدا وميثاقاً : لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمداً أن أدخل معك فــي حصنك حتى يصيبني ما أصابك][٢]

ردود فعل موقف حيى:

فتل حيى لبني قريظة في الذروة والغارب، وظل يمارس فتلــه لــهم حتى استأنس البعض منهم.

وكان لفعلته هذه ردود فعل مختلفة.

أما زعيم القوم وهو كعب بن أسد، فقد نزل على رأى حيى بعــد أن أعنتــه وأرهقه في الجدال والحوار، ووافقه على كره منه، وأعلن أنه مستعد لنقــض عهد رسول الله والخروج عليه.

ولم يكن هذا رأى جميع القرظيين، إذ يرى البعض منهم أن في نقض العهد مع النبي مجافاة للخلق الرشيد ، والسلوك المستقيم، ونقض العهد فــوق ذلك مضاد لمصلحتهم، ومناوئ لأمنهم وأمانيهم.

وقام البعض منهم يعترض على حيى وكعب، ويرد عليــهما رأيــهما بسلطان الحجة المقنعة، وسطوة الإقناع الذي يعززه الدليل.

ومن هؤلاء عمرو بن سعدي الذي وعظهم وخوفهم ســوء فعالــهم.

وذكرهم ميثاق رسول الله ﷺ وعهده، وقال لهم: إذا لم تنصــروه فــاتركوه وعدوه. فأبوا.

---

(١) تفتله في الذروة والغارب: هذا مثل ، والغارب: ما بين سنام الجمــل وعنقــه. والذروة: أعلى منطقة في سنامه، وأصل هذا المثل في البعير أو الحيوان، تكون فيــه الحشرة التي تسمــي القُراد، تكون في أعلى سنام الجمل أو الحيوان فتمتص دمــه دون أن يملك لها دفعا، فمن أراد أن يستأنسه، فعليه أن يرفع القراد عنه، ثم يدعــك أعلاه بيده (يفتله) فيهدأ البعير. والمثل يضرب فــي كــل إنســان شــادر تريــد استئناسه.

(٢) سبل الهدي والرشاد جـ ٤ - ص ٥٢٦ وما بعدها.

وهناك طائفة أخرى لم تكن على رأى كعب، ولا هي وقفت عند حدود رأى عمرو بن سعدي، وإنما اتخذت القرار الرشيد الذي يناسبها في مثل هذه الظروف.

وليس هناك رأى أرشد من رأى يسوق الإنسان باختياره إلى أن يأمن على نفسه وماله وذريته، فيعتنق ما اقتنع به من الدين الجديد الذي جاء به النبي ﷺ، وبشر بمقدمه التوراة والإنجيل جميعاً مع ذكر صفاته التي يعرفها كل يهودي لا ينكر منها شيئاً.

اتخذت هذه الطائفة قرارها الرشيد، فخرجت إلى النبي، وأعلن كل واحد منها إسلامه بين يديه، فعصم بإسلامه دمه وماله وولده، حيث خرج إلى رسول الله ﷺ بنى قريظة بنو سعْنة : أسد وأسيد [١] وثعلبة فكانوا معه وأسلموا.

ومهما كان هناك من اختلاف ردود الفعل، فإن كعباً ومن شايعه على رأيه كانوا يتوجسون خيفة من الموقف بتمامه، خاصة ما قد علموه من الحلفاء من اختلاف الهدف وتبعثر القيادة.

وقد حاولوا أن يؤمنوا خوفهم ببعض المواثيق يأخذونها على حيي ومن معه، **منها**: أن حييًا يبقي معهم في حصنهم له مالهم، وعليه ما عليهم، فإن هم واجهوا مصيراً لا يريدونه، فعلى حيى أن يواجه معهم نفس المصير، **ومنها**: أنه يجب على حيى أن يأخذ الرهائن من قريش وغطفان وسائر الحلفاء ويدفع بهم إلى بنى قريظة، حتى إذا ما فر الحلفاء من وجه النبي، واضطر بنو قريظة إلى أن يعتذوا للنبي ويكفروا عن فعلتهم، كان معهم هؤلاء الرهائن من كبراء الحلفاء يدفعون بهم إلى النبي تطيب بهم نفسه، ويغفر لهم ما ارتكبوه من الآثام.

---

(١) أسيد : هكذا بضم الهمزه تصغيراً، وقيل بفتحها على وزن أمير.

ووافق حيي على شروط القوم وأعطاهم على ذلك العهد والميثاق، وأعلن بنو قريظة الخروج على النبي، ونبذ عهده إليه.

خبر خروج بني قريظة يصل إلى النبي:

أعلنت بنو قريظة أنها قد خرجت على النبي، وأنها قد نبذت إليه العهد الذي بينها وبينه.

وسرى الخبر سراً حتى وصل إلى مسامع عمر بن الخطاب على غير تأكيد من إثبات أو نفي، فأخبر به رسول الله ﷺ سراً على نحو ما يعلمه بغير تأكيد.

ومن التوفيقات التي منحها الله عز وجل لنبيه، أنه قد أرسل إلى سعد بن معاذ زعيم الأوس، ورجال معه هم: سعد بن عبادة، وعبد الله بن رواحة، وخوّات بن جبير، زاد محمد بن عمر: وأسيد بن حضير، وطلب إليهم أن يذهبوا إلى بني قريظة يستطلعون الخبر ويعودون فقال لهم: " **انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا، فإن كان حقا فالحنوا**[١] **إليّ لحناً أعرفه، ولا تفتوا في أعضاد الناس**[٢]**، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس**".

وخرج هذا الرهط بجمعهم حتى وصلوا إلى بني قريظة، فسألوهم: أحقاً ما سمعناه عنكم ؟ فأجاب كعب زعيم القوم: نعم، لا عهد بيننا وبينكم ولا ميثاق، فقال رسل رسول الله لكعب: هذا كلام لا يليق منك، وذكروهم الأخوة والعهود التي بينهم وبين رسول الله، وطلبوا إليهم أن لا يطيعوا حيي بن أخطب فيما أرادهم عليه، قال كعب: والله لا نرده أبدا، وإنا نقطع ما بيننا وبين رسول الله كما أقطع هذا **القبال**[٣]، وانحنى على قباله فقطعه ورمى به.

(١) قولوا كلاماً أفهمه ولا يفهمه القوم (فيما يسمي اليوم بالشفرة أو الرمز)

(٢) فت في عضده: أضعف من قوته، ويستعار لإضعاف القوى المعنوية.

(٣)القبال من النعل: سير من الجلد يكون بين الإصبع الوسطي والتي يليها .

وارتفع الحديث بين الطرفين، وأقبل سعد بن معاذ، أو ابن عبادة على خلاف بين الرواة على كعب يسبه أحدهما، ويخفض الآخر من سباب صاحبه قائلاً: يا سعد ما بيننا وبين هؤلاء أربي وأكثر من السباب.

أما كعب فقد بدأ ينال من شخص النبي ويتساءل مستهتراً : من رسول الله هذا ؟!

وأجابه أسيد بن حضير قائلاً: أتسب سيدك يا عدو الله، ما أنت له بكفء ياابن اليهودية، ولتولين قريش إن شاء الله منهزمين، وتتركك في عقر دارك فنسير إليك، فننزلك من جحرك هذا على حكمنا.

وانصرف عنهم القوم قاصدين معسكر رسول الله، وسعد بن معاذ يكاد يتميز من الغيظ، أن كان اليهود أصدقاءه وأصدقاء قومه من الأوس.

وما أن قربت بهم المسافة من رسول الله حتى أسمعوه اللحن الذي طلبه بالشفرة أو بالرمز لا يفهمه إلا النبي وكان اللحن الذي قالوه يسمعون به رسول الله هو: عضل والقارة — يعنى كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع. [١]

ولما كان النبي يعرف هذا الغدر الذي وقع من عضل والقارة ضد أصحاب الرجيع من بنى هذيل، فقد علم مغزى ما يريد رسله إلى بنى قريظة، وما مقصدهم من هذا القول.

ولم تأت الأمور على ما يريد رسول الله، وإنما صارت إلى ما يريده الله عز وجل.

وما أراده الله هو: أن خبر بنى قريظة قد انتشر في الجيش انتشارا سريعا علم به المسلمون، فأساءهم هذا الخبر إساءة بالغة، ووقع من نفوسهم

(١) الرجيع : بفتح الراء والجيم — ماء لبنى هذيل بين مكة وعسفان.

موقعا لا ينجيهم من آثاره إلا علام الغيوب٠

ومما زاد الطين بلة، والأمر شدة ، ما فعله المنافقون حين أرادوا أن ينسحبوا من الجيش في مواجهة العدو إلى الداخل، رغبة في ممالأة اليهود، ولعليم بانسحابهم هذا يجدون عند الحلفاء أو الأحزاب يداً، تنفعهم حين يهزم النبي والذين معه، وقد جاء المنافقون إلى النبي يقولون: ائذن لنا نعود إلى ديارنا، فإن بيوتنا عورة٠

والقرآن يشنع عليهم بقوله: " **وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً** "٠

أثر الموقف على النبي والمسلمين :

وما أن علم المسلمون بخبر بني قريظة، ورأوا ما رأوه من تصرف المنافقين حتى بدأت تخور قواهم، وتضيق بهم نفوسهم من شدة البلاء، إلى الحد الذي صوره ربنا بقوله:"٠٠٠ **وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا** "٠

أما رسول الله ﷺ ، فقد توجه إلى القوم يرفع من جوانبهم المعنوية، ويخبرهم بخبر المستقبل الذي أطلعه الله عليه قائلاً:" **أبشروا يا معشر المؤمنين بنصر الله تعالى وعونه، إني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق وآخذ المفتاح، وليهلكن كسري وقيصر ولتنفقن أموالهم في سبيل الله**" ٠

هكذا حاول رسول الله ﷺ أن يقلل من أثر الصدمة على أصحابه، بما لا يجاوز الصدق في القول، والأمانة في النصيحة٠

ولا شك عندي أن النبي هو الآخر، قد ساءه خبر بني قريظة، ورأى أنهم بفعلتهم هذه قد ضيقوا الحلقة حول المؤمنين بما جعل النبيﷺ يتوجه إلى ربه داعيا: اللهم انصرنا عليهم واغلبهم، فإنه لا يغلبهم اليوم إلا أنت٠

ثم تحول النبيﷺ واضطجع وغطى وجهه بثوبه، ولا ندرى بما ناجى ربه.

صفية تبطل إحدى عربدات اليهود :

وبينما كان النبي والمسلمون مشغولين بما هم فيه من مواجهات العدو، بدأ اليهود من القرظيين يختبرون الحصن الذي وضع فيه النبي النساء والأطفال والممتلكات من خلفه، فأمر اليهود إحدى دورياتهم أن تطوف حول الحصن ليلة،وتقف على الأخبار لمعرفة حجم القوة المانعة له، والمدافعة عنه.

وما كان النبي قد ترك في الحصن رجالا يدافعون عما فيه ومن فيه، سوى حسان بن ثابت شاعر الرسول، ولم يكن رجل حرب ولا نزال.

ولقد رأت صفية بنت عبد المطلب عمة الرسول أحد رءوس اليهود يقترب من الحصن، يتنصت أخباره، فأدركت ما وراءه، وقالت لحسان: لو عاد هذا اليهود إلى قومه سيخبرهم أنه ليس بالحصن رجال، وسيقومون من الغد بمداهمتنا، ولا مخرج من هذا إلا أن تنزل إلى هذا اليهودي وتقطف لنا رأسه لنلقى بها من داخل الحصن إلى خارجه، فيلتقطها اليهود، فيقبع في قلوبهم أن في الحصن رجال وأنه ممنوع فيعود عنا.

واعتذر حسان إلى صفية بأنه ليس رجل حرب، والناس صنفان: صنف حربته في يده يجول بها ويصول، وصنف حربته في لسانه يستر بها عورة أهله، ويكشف بها عورات أعدائه.

ورأت صيفة أن الموقف ليس موقف كلام وإقناع، وإنما الموقف موقف حركة وتصرف سريع، فقامت إلى عمود ربطته على ذراعها ونزلت به إلى اليهودي، وصدمته به فقتلته، وقطفت رأسه، وصعدت بها إلى الحصن، ورمت بها إلى الخارج فالتقطها اليهود، وعلموا أن الحصن ممنوع،

وسبق إلى وهمهم أن النبي قد ترك في الحصن رجال، ولم يترك ما فيه ومـن فيه هملاً ينتهبه اليهود ومن على شاكلتهم.

وطلبت صفية إلى حسان أن ينزل ويجرد اليهودي القتيل من ممتلكاته وسلاحه، حيث يمنعها الحياء أن تفعل به ذلك.

وهكذا فسدت الخطة على اليهود، وحفظ الله حصن النساء والـذرارى والممتلكات على يد صفية عمة النبي.

والمؤرخون يذكرون أن النبي حين وزع الغنائم، اعتبر صفيـة مـن فرسان المسلمين، وأعطاها سهم فارس.

استحكام الحلقة :

ومع أن الله عز وجل قد حفظ النساء والأطفـال والممتلكـات بفعلـة صفية، إلا أن الضيق يحيط بالمسلمين والنبي معهم، فقد جاءهم العـدو مـن فوقهم من الشمال والغرب، متمثلاً في قريش وغطفان ومن شايعهما، وجاءهم العدو من أسفل منهم من جنوب الخندق وشرق المدينة، متمثلاً في يهود بنـي قريظة الذين حركهم حيى بن أخطب النضرى، واستجابوا له.

الله يفتح الثغرة :

وحين استحكمت الحلقة على هذا النحو واشـتد الكـرب، أراد الله أن يكسر هذه الحلقة بطريقتين :

إحداهما : على الأسباب المعتادة.

وثانيتها : على الطريقة القدرية بغير الأسباب المعتادة.

قصة نعيم بن مسعود :

حين أراد الله أن يكسر الطوق من حول المسـلمين علـى الأسـباب المعتادة، هيأ رجلاً من غطفان يقال له: نعيم بن مسعود.

ولقد نقل ابن كثير قصته عن ابن إسحق في شئ من البسط قال: [ثم

إن نعيم بن مسعود ٠٠٠ أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت وإن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت، فقال رسول الله ﷺ:" إنما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة" فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بنى قريظة وكان لهم نديماً في الجاهلية فقال: يا بنى قريظة قد عرفتم ودي إياكم وخاصة ما بيني وبينكم٠ قالوا صدقت لست عندنا بمتهم٠ فقال لهم إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه وبلدهم ونساؤهم وأموالهم بغيره، فليسوا كأنتم فإن رأوا نهزة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم، يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه٠ قالوا لقد أشرت بالرأى٠ ثم خرج حتى أتى قريشاً، فقال لأبى سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش: قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمداً، وإنه قد بلغني أمر قد رأيت على حقاً أن أبلغكموه نصحاً لكم فاكتموا عنى٠ قالوا نفعل، قال تعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه إنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالا من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقى منهم حتى تستأطلهم٠ فأرسل إليهم أن نعم٠ فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحدا٠ ثم خرج حتى أتى غطفان فقال يا معشر غطفان إنكم أصلى وعشيرتي وأحب الناس إلى ولا أراكم

تتهموني. قالوا صدقت، ما أنت عندنا بمتهم، قال فاكتموا عنى قالوا نفعل. ثم قال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم. فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس وكان من صنيع الله تعالى لرسوله ﷺ أن أرسل أبو سفيان بن حرب ورءوس غطفان إلى بنى قريظة، عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان، فقال لهم إنا لسنا بدار مقام هلك الخف والحافر، فأعدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه. فأرسلوا إليهم: إن اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثاً فأصابهم ما لم يخف عليكم، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمدا حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمدا، فإنا نخشى أن ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال، أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلادنا ولا طاقة لنا بذلك منه. فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة، قالت قريش وغطفان: والله أن الذي حدثكم نعيم بن مسعود لحق. فأرسلوا إلى بنى قريظة: إنا والله لا ندفع إليكم رجلا واحداً من من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا، فقالت بنو قريظة حين انتهت إليهم الرسل بهذا، إن الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق، ما يريد القوم إلا أن تقاتلوا، فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم. فأرسلوا إلى قريش وغطفان إنا والله ما نقاتل حتى تعطونا رهنا فأبوا عليهم وخذل الله بينهم][١]

وكان لفعل نعيم هذا ماله من الأثر في تفريق صفوف القوم.

غير أن إسرائيل ولفنسون، وغيره ممن سبقه من الكتاب من غير المسلمين، فإنهم لم يشاءوا أن يشيروا إلى قصة نعيم هذه، أو يعيروها إلا قليلاً من الاهتمام في أحسن الظروف.

---

(١) البداية والنهاية — ابن كثير — جـ ٤ — ص ١١١، ١١٢

ولقد كان اهتمامهم الأكبر بما عسى أن يكون النبي قد تحدث فيه مع بعض بني غطفان، حيث علم النبي أن غطفان حين جاءت إليه محاربة، لم يكن لها من حاجة إلا الأجر تأخذه، وقد وعدها حيى ثمار خيبر عاماً كاملاً، فرأى النبي أنه من الحكمة أن يستعمل نفس السلاح مع غطفان، ويفاوضها على ثلث ثمار المدينة إن هم رجعوا.

وأيا ما كان الأمر الذي صدر عن النبي، فإن مفاوضة غطفان على هذا النحو لو قد حدثت، لكان فيها خير للنبي ومن معه، وخير لغطفان.

أما خير هذه المحاولة بالنسبة للنبي والمسلمين، فإن أقرب آثارها أنهم سيجلون عن المدينة، فيتنفس المسلمون شيئاً من الصعداء، ويلتفتون إلى قريش شمال الخندق، وإلى بني قريظة جنوبه التفاتة فيها من التمكين من هؤلاء وهؤلاء قدر غير يسير، وأما الخير الذي سيعود على غطفان فهو أنهم سيقبضون ثلث ثمار المدينة دون إجهاد لأمتهم، ودون إراقة دماء من أفرادهم، وهذا أفضل لهم من أن يأخذوا كل ثمار خيبر مع فقدهم لبعض الرجال، وإهلاكهم للخف والحافر، وإجهادهم لما بقي من الرجال.

والشئ العجيب أن إسرائيل ولفنسون ومشرفه قد اضطربت بين يديهم العبارات، وجاء نسيج الأسلوب مهلهلاً، وظهر الفصام بين لغة الأداء لديهم، والمعاني التي يريدونها حين زهدوا في قصة نعيم، وعمدوا إلى حديث مصالحة النبي وغطفان يحملونه ما لا يحتمل، ويشبهونه بما لا يناظره من وقائع تاريخ الرومان.

ولسنا نريد أن نشغل بالك بما يلوي به هؤلاء أعناقه من روايات التاريخ، حتى يحقق أغراضاً قد خطط لها سلفاً.(١)

---

(١) راجع تاريخ اليهود- إسرائيل ولفنسون -مرجع سبق ذكره -ص ١٤٥ وما بعدها.

الله يكسر الطوق بطريقة قدرية :

أحكمت الحلقة حول المسلمين كما رأيت، وأحاط بهم الطوق كما علمت.

وشاء الله أن يقوم نعيم بن مسعود بدوره الذي قام به، وظهر أثره سريعاً في جيوش الأحزاب، وفي صفوف الحلفاء.

ولكن الله قد عجل بإجلاء جيوش الحلفاء دون أن يكون لبعضهم جعل، أو أجر يحصلون عليه.

وكانت الطريقة القدرية التي عجلت بإجلاء الحلفاء، هي هذا البرد الشديد، والرياح التي فاقت سرعتها حدود المعتاد، والظلمة الدامسة التي أعجزت جنود الحلفاء عن الحركة.... وعلى الجملة كانت التغيرات الكونية مع الرعب الذي وقع في القلوب، والوهن والضعف الذي أصاب القوم حين شك كل فريق منهم في نوايا صاحبه، أموراً قد جمعها الله على القوم فاتخذوا قرارهم بالرحيل، وخلفوا وراءهم ما لا يستطيعون حمله مما جاءوا به من مستلزمات الحياة والمعركة التي ظنوها رحلة رياضية في الصحراء، وأرادها الله كما عبروا عنها هم — هلك الخف والحافر، ونفد المال والطعام، وأجهد الرجال في غير طائل– وتنفس المسلمون الصعداء، وشكروا لله عز وجل إغاثته لهم على شدة الظمأ إلى الإغاثة.

وما كان لأحد من المؤرخين المعاصرين ولو كان يهوديا، أن ينكر هذه المعونة القدرية التي أمد الله بها نبيه، وهيأها لرسوله والذين معه، حيث قال قائلهم نقلاً عن المصادر العربية ما لا يقدر على مقاومته: [**وبعث الله عليهم الريح في ليال شاتية شديدة البرد فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح**

آنيتهم . . . ثم تهيأت قريش وغطفان للرحيل فانشمرت راجعة إلى بلادها . . .][1]

سعد بن معاذ جريح في المسجد :

عاد الحلفاء أو الأحزاب إلى بلادهم مطارين بما هيأ الله من قدره وأسبابه .

وانقلب المسلمون الى منازلهم ومعهم نبيهم بنعمة من الله وفضل ، لم يمسسهم سوء .

وكان معهم سعد بن معاذ يومئذ جريحاً قد أصابته رمية من يد بعض الأعداء ، وصحبته غصة لا يستسيغ معها طعاماً ولا شراباً بسبب ما فعله اليهود من بني قريظة .

ولقد حرص النبي أن يُمرض سعد في خيمة داخل المسجد ، كي يكون قريباً من النبي ، يعوده كلما شاء ، ويحادثه كلما أراد .

وتأمل سعد حاله وما هو عليه ، ثم رغب إلى ربه في ثلاث :

<u>احداها</u> : إن كان قد بقى للنبي من قتال مع قريش في هذه الجولة، أن لا يقبضه حتى يشارك النبي والمسلمين قتالهم ، فان أحب شيء لديه قتال قوم كذبوا الله وآذوا نبيه .

<u>والثانية</u> : أنه إن كان الله قد أراد أن ينصرف الأحزاب عن النبي ، أن يؤخر موته حتى يشفى صدره من بني قريظة .

<u>والثالثة</u> : أنه يتمنى على ربه بعد أن يحقق له الأوليين ، أن يميته متأثراً بجراحه التي أصابته في المعركة فيموت شهيدا .

انقلب النبي والمسلمون بنعمة ربهم وفضله ، وانقلب سعد إلى أماكن

---

(١) السابق - ص ١٤٦

تمريضه يناجي ربه بما يناجيه به ، والكل يحاول أن ينفض عن نفسه غبـــار أيام وليالٍ عجاف ، رأى المسلمون فيها ما رأوا من الشدة والبـــأس ، حتـــى كادوا ان يهلكوا لولا أن أدركهم فضل الله وعنايته .

النبي يأمر بالخروج إلى قريظة :

ومع إجهاد المسلمين الشديد الذي يحتاجون معه إلى راحـــة ، إلا أن الأسباب التـــي اجتمعت للنبـــي ﷺ والمسلمين معـــه ، قـــد أثبتـــت أن اليهود مـــن بنى قريظة حين فعلوا فعلتهم ، كادوا ان يعجلوا بالمسلمين تـــدور بهم الدوائر ، لو لا أن الله سلم .

ولم يقبل بنو قريظة رجاء وفد النبي إليهم أن يتراجعوا عن موقفـــهم الذي اتخذوه فى وقت عصيب ، مما أصاب سعداً بن معاذ ورفاقـــه بـــالضيق الشديد المصحوب بخيبة الأمل والرجاء في بنى قريظـــة أن يقـــدروه ، وأن يقبلوا شفاعته .

لقد اكتملت الأسباب الدافعة إلى غزوة بنى قريظة ، والتي لو اجتمـــع عشر معشارها لأمة من الأمم المعاصرة مع بعض حلفائها ، لأهلكـــت بعـــد فراغها من همومها حرث الخارجين ونسليم، ومع هذا كله فلقد كـــان النبـــي ﷺ راغباً في أن يلتقط المسلمون أنفاسهم بعد هذا العناء الشـــديد، قبـــل أن ينظروا في أمر بنى قريظة وما عساهم أن يفعلوا معهم .

أما بنو قريظة أنفسهم فقد أصابهم الغم والهم لفداحة مـــا ارتكبـــوا ، ولجلاء الأحزاب عن المدينة وتركهم مع النبي وجـــهاً لوجـــه ، ينظـــر فـــي خياناتهم غير المسبوقة ، والتي فاقت خيانة بنـــي قينقـــاع ، وبنـــي النضـــير مفترقين ومجتمعين .

مال النبي ﷺ إلى أن يلتقط المسلمون أنفاسهم ، وشاء ذلـــك لـــهم، ولكن الله شاء شيئاً آخر ومشيئته خير .

[روى الأمام أحمد والشيخان — مختصرا — والبيهقى والحاكم فـي صحيحه مطولا عن عائشة ، وأبو نعيم ، والبيهقى من وجه آخر عنها ، وابن عائذ عن جابر عبد الله ، وابن سعد حميد بن هلال ، وابن جرير عن عبد الله بن أبي أوفي والبيهقى وابن سعد عن الماجشون ، والبيهقى عن عبيد الله بـن كعب بن مالك، وسعيد بن جبير وابن سعد عن يزيد بن الأصم ، ومحمد بـن عمر عن شـيوخه : أن رسـول الله – ﷺ – لمـا رجـع عـن الخنـدق والمسلمون وقد عضهم الحصار ، فرجعوا مجهودين ، فوضعـوا السـلاح ، ووضعه رسول الله – ﷺ – ودخل بيت عائشة ودعا بمـاء فـأخذ يغسـل رأسه– قال ابن عقبة قد رجل أحد شقيه. قال محمد بن عمر : غسل رأسـه واغتسل، ودعا بالمجمرة ليتبخر ، وقد صلى الظهر ، قالت عائشـة : فسلم علينا رجل ونحن في البيت . قال محمد بن عمر : وقف موضـع الجنـائز ، فنادى عذيرك من محارب !فقام رسول الله ﷺ فزعا فوثب وثبة شـديدة ، فخرج إليه ، وقمت في أثره أنظر من خال الباب ، فإذا هو دحية الكلبى فيمـا كنت أرى وهو]نفض الغبار عن وجهه ، وهو معتم ، وقال ابـن إسـحاق : معتجر بعمامة ، قال الماجشون كما رواه أبو نعيم عنها ، سوداء من استبرق، مرخ من عمامته بين كتفيه ، على بغلة شهباء – وفى لفظ : فرس – عليـها رحالة وعليها قطيفة من ديباج قال الماجشون : أحمر – علـى ثنايـاه أثـر الغبار، وفى رواية : قد عصب رأسه الغبار ، عليه لامته ، فاتكأ رسـول الله ﷺ على عرف الدابة ، فقال : يا رسول الله ، ما أسرعتم ما حللتم ، عذيـوك من محارب ! عفا الله عنك ، وفى لفظ غفر الله لك ، أوقد وضعتـم السـلاح قبل أن نضعه ؟ فقال رسول الله ﷺ : " نعم قال : فو الله مـا وضعنـاه ، وفى لفظ : ما وضعت الملائكة السلاح منذ نزل بك العدو ، وما رجعنـا الآن إلا من طلب القوم حتى بلغنا حمراء الأسد – يعنى الأحزاب – وقد هزمهم الله تعالى، إن الله – تعالى – يأمرك بقتال بنى قريظة ، وأنا عامد إليهم بمن معي

من الملائكة لأزلزل بهم الحصون ، فاخرج بالناس " . **قال حميد بن هـــلال : فقال رسول الله ﷺ** " فإن في أصحابي جهدا فلـــو أنظرتـــهم أيامـــا، قـــال جبريل: انهض إليهم ، فوالله لأدقنهم كدق البيض على الصفا لأضعضعنـــها ، فأدبر جبريل ومن معه من الملائكة حتى سطع الغبار في زقاق بنى غنم مـــن الأنصار . قال أنس رضى الله عنه فيما رواه البخارى : كـــأني أنظـــر إلـــى الغبار ساطعا في زقاق بنى غنم موكب جبريل حين سار إلى بنى قريظـــة .. انتهى .

قالت عائشة : فرجعت ، فلما دخل قلت يا رســـول الله - مـــن ذاك الرجل الذي كنت تكلمه ؟ قال : " **ورأيته** " ؟ قلـــت نعـــم ، قـــالَ : " **لمـــن تشبهت** " ؟ قلت : بدحية ابن خليفة الكلبى ، قال : " **ذاك جبريل أمرنـــي أن أمضى إلى بنى قريظة**" قال قتادة فيما رواه ابن عـــائذ : إن رســـول الله ﷺ بعث يومئذ مناديا ينادى " **يا خيل الله أركبي** " وأمر رســـول الله ﷺ بـــلالا فأذن في الناس : " **من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا ببنى قريظة** "

وروى الشيخان عن ابن عمر ، والبيهقى عن عائشة، والبيهقى عـــن الزهري وعن ابن عقبة ، والطبرانى عن كعب بن مالك : أن رســـول الله ﷺ قال لأصحابه:" **عزمت عليكم ألا تصلوا صلاة العصر**" ووقع في مســـلم فـــي حديث عمر صلاة الظهر فأدرك بعضهم صلاة العصر، وفي لفظ الظهر فـــي الطريق، فقال بعضهم : لا نصليها حتى نأتي بنى قريظة، إنا لفـــي عزيمـــة ﷺ وما علينا من إثم، فصلوا العصر ببنى قريظة حين وصلوها بعد غـــروب الشمس، وقال بعضهم: بل نصلى، لم يرد منا أن ندع الصلاة، فصلوا، فذكـــر ذلك لرسول الله ﷺ فلم يعنف واحدا من الفريقين] (١)

---

(١) سبل الهدى والرشاد - حـــ٥ - ص ٧ وما بعدها .

النبي يدفع باللواء إلى على :

وبدأ رسول الله ﷺ **باللواء**[١] فدفع به إلى على بن أبي طالب رضى الله عنه.

والنبي لم ينشئ هذا اللواء إنشاء، إذ هو لم يعقد لواء خاصـا ببنـى قريظة، إنما هو اللواء الذي دفعه إلى على هو اللواء الخاص به يوم الخنـدق، قد عاد به النبي ولم يحل بعد.

وحمل على اللواء مبتهجا حين عهد النبي إليه به، ودفع في نفر مـن أصحاب رسول الله منهم مهاجرون وأنصار وفيهم أبو قتادة.

روي محمد بن عمر عن أبي قتادة قال: انتهينا إلى بنى قريظة، فلمـا رأونا أيقنوا بالشر، وغرز على الراية عند أصل الحصـن فاستقبلونا فـي صياصيهم يشتمون رسول الله ﷺ وأزواجه. قال أبو قتادة: وسكتنا، وقلنـا السيف بيننا وبينكم.

الرسول يخرج في أصحابه إلى بنى قريظة :

سبق على إلى بنى قريظة هو ومن معه، ثم نادى النبي في أصحابـه أن يخرجوا معه إلى غزوة بنى قريظة.

ولبس النبي لباس الحرب من السلاح والدرع والمغفر والبيضة، وأخذ قناة بيده وتقلد الترس، وركب فرسه وكان يسمى — اللحيف أو اللخيـف أو اللجيف — على اختلاف في ضبط هذا الاسم بين أن يكون بالجيم أو بالخـاء أو بالحاء، وهو مصغر أو هو على وزن فعيل بمعني فاعل كأمير.

---

(١) **اللواء**: خشبة أو سارية يلف على رأسها القماش كهيئة عمامة الرجل، ثم يعقـد من طرفيه ولا كذلك الراية.

وخرج النبي مع أصحابه لسبع بقين من ذي القعدة من العام الخامس للهجرة.

ووصل النبي في أصحابه إلى بنى قريظة، فلما رآه علي قادما، عاد باللواء إلى أبي قتادة، واستقبل النبي قائلا له: لا عليك ألا تدنو من هؤلاء الأخابيث، فإن الله تعالي كافيك اليهود، فقال له رسول الله ﷺ :" **لم تأمرني بالرجوع** ؟" فكتمه ما سمع، فقال:" **أظنك سمعت منهم لي أذى**"، فقال: نعم يا رسول الله ، قال:" **لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئا** ".

وتقدم رسول الله ﷺ حتى دنا من حصنهم وناقشهم وناقشوه، وسألهم عن سبه إياه فأقسموا له أنه لم يحدث من ذلك شيئ .

وهكذا طبع اليهود يخونون ويمكرون، ويتطاولون ويكذبون طالما قدروا، ويذلون ويخضعون إذا قدر عليهم.

هذه خلائقهم وتلك سيرتهم في التاريخ.

حصار اليهود :

وأمر النبي ﷺ أن يضرب الحصار حول بنى قريظة إلى أن يقضي الله بينهم وبين المسلمين، وظل الحصار فترة من الزمن قدرها بعض المؤرخين بخمس وعشرين ليلة، بعدها بدأت تضعف قوى بني قريظة، ويرفعون أيديهم كعادتهم في مثل هذه الظروف يطلبون مظلة سلام، وينتشدون من يكون بينهم وبين الرسول يفتح لهم باب الحوار، علهم يتمكنون من تبرير خيانتهم.

ونادوا يا محمد إنا سنلقى السلاح فألقوه، وإنا سنلجأ إلى الحوار، وسنرسل إليك رجلا منا يفاوضك، ووافقهم النبي ﷺ على وقف القتال، والإمساك عن التراشق بالنبال.

وأرسل اليهود إلى النبي رجلا منهم يقال له: نباش بن قيس، يعتقدونه محاورا جيدا، فجاء إلى رسول الله يطلب إليه أن يخرجهم على ما خرج عليه بنو النضير، يأخذون النساء والأموال ويتركون السلاح والأرض لأصحابها.

ورفض النبي هذا الغرض حيث إنه لا يكافئ خيانات اليهود من بني قريظة، فعاد نباش يعرض عرضا آخر، وهو: أن يجليهم النبي عن الأرض ويتركون السلاح والأموال، ويأخذون نساءهم وذراريهم.

ورأى النبي أنه لو وافقهم على ذلك يكونون قد كسبوا الجولة مرتين:

أولاهما: أنهم قد أحدثوا في صفوف المسلمين يوم الخندق ما أحدثوه، ولو أمكنهم الله من رقاب المسلمين ما تركوا منهم على الأرض حيا يتنفس.

علم النبي ذلك من خلائقهم التي ما يزال التاريخ يسطرها إلى اليوم، على نحو ما نراه ونراه على الأرض التي بارك الله فيها حول المسجد الأقصى.

وثانيتهما: أن النبي لو وافق نباش على مقترحه وعفا وأصلح، لم يأمنهم أن يخرجوا إلى سائر العرب يؤلبونهم مرة أخرى على النبي ﷺ وعلى المسلمين، ولم يكن النبي قد استفاد من تجاربه **(وحاشاه)**.

وقد علم النبي إيحاءات هذه الجزئية من تساهله مع بني النضير وعفوه عنهم، فما كان منهم إلا أن ألبوا عليه سائر العرب، وجمعوهم في معسكر واحد كاد يطيح بالمسلمين لو لا أن الله سلم.

وما حديث حيي بن أخطب عنا وعنك ببعيد.

رفض النبي مقترحات نباش كلها، وبين له أن الأمر لله، وأنهم لابد أن ينزلوا على حكمه، فعاد نباش إلى قومه بما توصل إليه من نتائج في مباحثاته مع رسول الله.

موقف كعب بن أسد وعمرو بن سعدى القرظيين:

عاد نباش إلى قومه وأخبرهم ما كان بينه وبين رسول الله ﷺ، وطلب إليهم أن ينظروا في أمرهم.

فنظر القوم في أمرهم وكان الحديث لكبيرهم أول الأمر وهو كعب بن أسد.

[يا معشر بنى قريظة، والله قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خلالا ثلاثا، فخذوا ما شئتم منها، قالوا: وما هي ؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه. فو الله لقد تبين لكم أنه نبي مرسل، وأنه الذي تجدونه في كتابكم فتأمنون به على دمائكم وأموالكم ونسائكم، والله إنكم لتعلمون أن محمدا نبى، وما منعنا من الدخول معه إلا الحسد حيث لم يكن نبيا من بنى إسرائيل، فهو حيث الله، ولقد كنت كارها لنقض العهد والعقد ولكن البلاء والشؤم من هذا الجالس يعنى حيى بن أخطب. ولقد كان حيى بن أخطب دخل معهم في حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان، وفاء لكعب بن أسد، بما كان عاهده عليه أتذكرون ما قال لكم ابن جواس حين قدم عليكم: تركت الخمر والخمير والتمير، وأجئت إلى السقاء والتمر والشعير، قالوا:وما ذاك ؟ قال: إنه يخرج بهذه القرية نبى، فإن يخرج وأنا حى أتبعه وأنصره، وإن خرج بعدى، فاياكم أن تخدعوا عنه، وأتبعوه، فكونوا أنصاره وأولياءه، وقد آمنتم بالكتابين، كليهما الأول والآخر، وأقرئوه منى السلام، وأخبروه أنى مصدق به. قال كعب: فتعالوا فلنتابعه ونصدقه، فقالوا: لا نفارق حكم التوراة أبدا، ولا نستبدل به غيره، قال: فإذا أبيتم على هذه فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالا مصلتين السيوف ولم نترك وراءنا ثقلا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك نهلك ، ولم نترك وراءنا نسلا نخشى عليه، إن نظهر

فلعمري لنجدن النساء والأبناء. قالوا: أنقتل هؤلاء المساكين ؟! فما خير العيش بعدهم ؟ قال: فإن أبيتم على هذه فإن الليلة ليلة السبت، وأنه عسى وأن يكون محمد وأصحابه قد أمنوا فيها فانزلوا، لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة، قالوا: نفسد سبتنا ونحدث فيه ما لم يحدث فيه من كان قبلنا إلا من قد علمت فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ! فقال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازما، فقال ثعلبة وأسيد ابنا سعية، وأسد بن عبيد ابن عمهم، وهم نفر من هذيل ليسوا من بنى قريظة، ولا النضير، نسبهم فوق ذلك وهم بنو عم القوم: يا معشر بنى قريظة، والله إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وأن صفته عندنا، وحدثنا بها علماؤنا وعلماء بنى النضير، هذا أولهم: يعنى حيى بن أخطب مع جبير بن الهيبان، أنه أصدق الناس عندنا، هو خبرنا بصفته عند موته. قالوا: لا نفارق التوراة. فلما رأى هؤلاء النفر إباءهم نزلوا تلك الليلة التي في صبحها نزلت بنو قريظة فأسلموا وأمنوا على أنفسهم وأهليهم وأموالهم.

وقال عمرو بن سعدى: يا معشر يهود، إنكم قد حالفتم محمدا على ما حالفتموه عليه، فنقضتم عهده الذي كان بينكم وبينه، فلم أدخل فيه، ولم أشركم في غدركم، فإن أبيتم أن تدخلوا معه فاثبتوا على اليهودية وأعطوا الجزية فوالله ما أدري يقبلها أم لا، قالوا: فنحن لا نقر للعرب بخرج في رقابنا يأخذونه، القتل خير من ذلك، قال: فإنى برئ منكم. وخرج في تلك الليلة مع ابنى سعية، فمر بحرس رسول الله ﷺ وعليهم محمد بن مسلمة، فقال محمد: من هذا؟ قال: عمرو بن سعدى، قال محمد، مر اللهم لا تحرمنى إقالة عثرات الكرام، وخلي سبيله، وخرج حتى أتي مسجد رسول الله ﷺ فبات به حتى أصبح فلما أصبح غدا فلم يدر أنى هو حتى الساعة،

فذكر شأنه لرسول الله ﷺ . فقال:" ذاك رجل نجاه الله بوفائه"] (١)

ومن موقف كعب وعمرو بن سعدى، وما عرضاه على اليهود من بنى قريظة، تعلم كما هائلاً من خلائق اليهود، تلزمهم جميعاً حتى أعنتوا الحق والعدل، وأرهقوا الشيخين من علمائهم على مشهد من خزي حيي وصغاره حين دارت على مكائده الدوائر.

ومن المضحكات المبكيات أن صاحب كتاب اليهود في بلاد العرب أخذ يعد إعنات اليهود لشيخيهم، وإرهاقهم للحق والعدل ضرباً من الشجاعة والثبات على المبدأ، ولو كان ثمن ذلك الموت(٢).

ونفض كعب يده من قومه بعد أن أوردهم موارد الهلاك حين أخذ بمشورة حيى بن أخطب، ولم ينفعه لا هو ولا قومه ما يبديه اليوم من الندم.

قصة أبى لبابة مع بنى قريظة :

طال الحصار على اليهود وهم ليسوا على قلب رجل واحد كعادتهم دائما، ولكنهم هذه المرة اجتمعوا على أن يعودوا إلى المفاوضات مرة أخرى، على أن يكون المفاوض هذه المرة أو المستشار رجلاً لهم بقومه صلة.

ووقع الاختيار على أبى لبابة وهو ابن المنذر الأوسى.

والأوس كما علمت كانوا حلفاء بنى قريظة في الجاهلية.

وعلماء التاريخ والسير يختلفون فيما بينهم حول دور أبى لبابة الذي انتدبه بنى قريظة لأدائه.

فمنهم من يقول إنهم قد ارتضوه حكماً.

ومن ذهب إلى هذا الرأي واهم، إذ الحكم الذي ارتضاه بنو قريظة هو سعد بن معاذ على نحو ما سنذكره بعد.

---

(١) سبل الهدي والرشاد — حـ٥ ص ١٣ وما بعدها.

(٢) انظر تاريخ اليهود في بلاد العرب- إسرائيل ولفنسون (مرجع سبق ذكره)

ومنهم من يرى أنهم قد انتدبوه مشيرا٠

وهذا هو الظاهر من قصته معهم٠(١)

وعلى كل حال فإن بنى قريظة حين اشتد بهم الحصار، هتفوا برسول الله ﷺ قائلين يا محمد أرسل إلينا بأبى لبابة نستشيره، فوافق النبي، وبعث إليهم بأبي لبابة بن المنذر فدخل عليهم الحصن، فاستقبله رجال اليهود يستعطفونه، ويذكرونه ماضي العشرة والعهد، كما استقبله النساء والذرارى يجهشون في وجهه ويبكون، حتى أثروا على أبي لبابة وسلبوا عواطفه٠

ثم قال له الرجال منهم: إن محمدا قد انتهى الحوار بيننا وبينه على أن نزل على رأيه وحكمه، ترى: أنقبل ذلك ؟ قال أبو لبابة: نعم، وأشار إلى رقبته كأنه يقول لهم لكنه الذبح٠

ويتحدث أبو لبابة عن نفسه بما يفيد أنه قد أدرك أنه خان الله ورسوله، وندم على ما فعل، وخرج من الحصن تبلل دموعه لحيته، ولم يذهب إلى النبي ﷺ، ولكنه سلك من الحصن طريقا يبلغ به إلى المسجد، وارتبط هناك إلى سارية مشهورة، واسطوانة معلومة من سرايا المسجد، وهي الإسطوانة المخلقة التي يقال لها إسطوانة التوبة، وعزم أن يظل على حاله لا يتحرر من قيده إلا حين تدركه الصلاة، أو تلاحقه حاجة الإنسان٠

وعلم النبي بحاله، وأمر الناس أن يتركوه حتى يقضى الله في أمره٠

وتاب الله عليه بعد أن أعلن أمام التاريخ وبين يدي ربه صدق توبته٠

وما نظن آية التوبة إلا قد نزلت فيه" **وآخرون اعترفوا بذنوبهم**

---

(١) راجع أسد الغابة في معرفة الصحابة — لابن الأثير(ت ٦٣٠هـ) تحقيق وتعليق محمد إبراهيم البنا، ومحمد عاشور — المجلد السادس — ط٠دار الشعب–ص ٢٦٥ وما بعدها٠

خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليـــهم إن الله غفـــور رحيم" (١)

قال أبو لبابة: يا رسول الله إن من توبتي أهجر أن دار قومـــي التـــي أصبت فيها الذنب، وأن أنخلع من مالي كله صدقة إلى الله وإلـــى رســـوله، قال:"**يجزئك الثلث يا أبا لبابة** "٠

أزمة اجتماعية طارئة :

أيقن بنو قريظة أنه لم يعد هناك سبيل إلى الحوار، وكأنهم استســلموا إلى أمر الله وأمر رسوله فيهم٠

غير أن هناك مشكلة اجتماعية قد طرأت، لابد من النظر فيـــها مـــن قبـــل رسول الله ﷺ٠

وهذه المسألة الطارئة هي أن الأوس أو بعضـــهم علـــى الأقـــل قـــد اجتمعوا إلى رسول الله يفاوضونه في شئ يتصل ببني قريظــــة، قـــالوا يـــا رسول الله : إن يهود
بنى قريظة كانوا حلفاء لنا في الجاهلية، وكان بينـا وبينهم ما علمت، وأنـــت قد وهبت بنى قينقاع حلفاء الخزرج إلى عبد الله بن أبى بن سلول، وفعلـــت ببنى النضير ما علمناه، وإنا شفعاء عندك أن تهبنا بنى قريظة يخرجون مـــن ديارهم على نحو خروج بنى قينقاع، أو خروج بنى النضير٠

وهنا أزمة حقيقية، فإن الأوسيين سينظرون اليوم إلى ما صنع رســول الله ﷺ للخزرجيين في حلفائهم، وينفسونهم عليه٠

والخزرجيون سينظرون إلى رفض شفاعة الأوسيين عند رســـول الله إذا ردت، على أن النبي فضل الخزرجيين عليـــهم، فيتعـــالون علـــى أبنـــاء الأوس٠

---

(١) التوبة : ١٠٢

إنها مشكلة حقا تدركها معي إذا كنت خبيرا بمجتمع العرب في الجاهلية.

ترى : كيف سيخرج النبي من هذه الأزمة الاجتماعية على سنن الاجتماع والعوائد العربية ؟.

أما أنا فقد نبهتك قبل إلى أن الرسول ﷺ حين اختار سعد بن معاذ وهو زعيم الأوس، وأمره أن يذهب إلى بنى قريظة يوم خيانتهم، كان هذا الاختيار من توفيقاته، أو من توفيق الله له، وهو توفيق يحيط به دائما ولا يخطئه.

كما أنى قد ذكرت لك أن سعداً قد أحفظه ما رأى من اليهود يوم خيانتهم، وردهم لرجائه ورجاء من معه، حتى سأل ربه يوم أن سأله وهو جريح، أن لا يميته حتى يشفي صدره من بنى قريظة.

اجتمع الأوسيون عند رسول الله يشفعون في بني قريظة، ويسألون النبي أن يهبهم لهم على مثال ما فعل للخزرجيين.

ولم يتردد النبي في موقفه، ولم تأخذه الحيرة فيما هو بصدده، ولكنه قد قال لهم: أيرضيكم أن يكون الحاكم عليهم، والحكم بيننا وبينهم سيدكم سعد ؟ فقالوا جميعاً: اللهم نعم، وعلم اليهود بما توصل إليه الأوس مع نبيهم، ففرحوا وهدأ الجميع، لأنهم قد أدركوا أنها انفراجة في الموقف. ما ظن اليهود أنهم بالغوها ولا بشق الأنفس.

قضية التحكيم :

عرض النبي ﷺ على الأوس ما عرضه حتى يستل من نفوسهم ما يعتمل فيها من المشاعر والقلق، فقال لهم: أرضيكم أن يكون الحكم فيهم رجل منكم فوافقوا، وقال النبي ﷺ :" **هو لسعد بن معاذ**".

ثم أرسل النبي في استدعائه وكان في المسجد يمرض، فجاء عزيـزا مكرما، يصحبه أناس من قومه يرجونه في بنى قريظة، فقال سعد مجيبا لـه - **آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم**-

وأنت عليم أن سعد في معركة الأحزاب أصابته طعنة فـي أكحلـه، كلما ربطوه له انتفخت يده، فعلم أنه ذاهب إلى الشهادة، فسأل ربـه أمـورا منها أن يبقيه حتى يشفي صدره من بنى قريظة، فاستمسك جرحه وتوقـف عن النزيف.

ذهب سعد يلبي دعاء النبي إلى أرض المعركة مع بنى قريظة، فـأمر النبيُ المسلمين أو قومه أن يقوموا لسيدهم وينزلوه منزله، ففعلوا، ثم توافـد إليه قومه وسألوه أن يحسن في مواليهم من يهود بنى قريظة، فقال لقومـه: عليكم عهد الله وميثاقه أن تلتزموا بحكمي وتنفذوه، قالوا: نعم، فحول وجهـه عن المكان الذي كان فيه رسول الله حياء منه، ثم قال: وحكمي نافذ على من هنا، فقال النبي:"**نعم**".

وأنا لا أرى ضرورة في أن يستشير سعد يهود بنى قريظة، ليعلم مـن جهتهم إن كانوا قد رضوا بحكمه أم لا، لأنهم أناس قد فعلوا فعلتهم ويجـب عليهم أن ينزلوا على حكم الله ورسوله والمسلمين جزاء خيانتهم.

هذا من جهة.

ومن جهه أخري فإن المسألة التي نحن بصددها، والتي جاءت قضيـة التحكيم حلا لها، وإنما هي بين النبي وبين الأوسيين من الأنصار.

ومع ذلك فقد روى ابن كثير هذه الرواية وعزاها، قال:[**وقـد قـال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن سعد بن إبراهيم سـمعت أبا أمامة بن سهل سمعت أبا سعيد الحذري قال: نزل أهل قريظة على حكـم سعد بن معاذ، قال: فأرسل رسول الله ﷺ إلى سعد فأتاه على حمار، فلمـا**

دنا قريبا من المسجد، قال رسول الله ﷺ :" قوموا لسيدكم أو خيركم"· ثم قال:" إن هؤلاء نزلوا على حكمك"، قال: نقتل مقاتلتهم ونسبي ذريتهم، قال: فقال رسول الله ﷺ:" قضيت بحكم الله" وربما قال: قضيت بحكم الملك وفي رواية الملك· أخرجاه في الصحيحين من طرق عن شعبة]·

ويعلل ابن هشام إعلان القرظيين أنهم قد نزلوا على حكم سعد بالإضافة إلى ما هو مشهور من صداقتهم له ولقومه، أن ذلك قد زامن حماسة على بن أبي طالب وكراهيته التسامح مع بنى قريظة، بعد ما صدر عنهم الذي صدر من الخيانات وسب رسول الله ﷺ·

قال ابن هشام [**حدثني من أثق به من أهل العلم أن على بن أبي طالب صاح وهم محاصرو بنى قريظة، ياكتيبة الإيمان وتقدم هو والزبير بن العوام، وقال: والله لأذقن ماذاق حمزة أو أقتحم حصنهم، فقالوا: يا محمد ننزل على حكم سعد بن معاذ]**

نزل الجميع على حكم سعد·

وحكم سعد فيهم أن ينفذ حكم الإعدام في المحاربة، وأن تكون الأموال غنيمة حرب، وأن يضم نساؤهم وذراريهم للمسلمين·

ووافق النبي سعدا في ترتيب الأحداث، أو وافق سعد النبي في حقيقة الأمر، وقال النبي ﷺ لسعد: ما علمت من أنه حكم بحكم الله من فوق سبع رقاع·

وكأن النبي ﷺ يشير بذلك إلى قول الله في سورة الأحزاب " **وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا* وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤها وكان الله على كل شئ قديرا** "[١]

(١) الأحزاب: ٢٦ ، ٢٧

حكم سعد بحكم الله، ونفذ المسلمون الحكم بيد الخزرجيين.

وقد تقاعس أول الأمر الأوسيون عن أن يشاركوا في تنفيذ الحكم، ولكنهم رأوا أن ذلك قد يسيئ النبيﷺ، فنشطوا وشاركوا المسلمين في تنفيذ حكم الله في هؤلاء الخونة[١]

حديث الزور:

ومن الأشياء التي تنسب إلى اليهود قد مائهم ومحدثيهم، ولا تخطئهم، أنهم يقلبون الحق زورا، والزور حقا حين يؤرخون للأحداث، أو يتصدى بعضهم لكتابة التاريخ.

والشئ من معدنه لا يستغرب ولا ينكر.

لكن الشئ المستغرب المنكر أن يوافقهم على زورهم أناس ليسوا منهم، ولا تربطهم بهم صلة.

والذي أقصده أن إسرائيل ولفنسون وهو يتحدث عن اليهود في بلاد العرب من خلال أطروحة أو بحث، تقدم به إلى نيل درجة علمية، وأشرف عليه عميد الأدب العرب الدكتور/ طه حسين، قد تحدث عن فعلة اليهود من بني قريظة، وعما صنع حيي من تأليب العرب على النبي، ودفع بني قريظة إلى الخيانة والثورة، ونبذ العهد إلى النبي والمسلمين في وقت عصيب، فمجد حيي بن أخطب ورفعه إلى مرتبة البطولة النادرة، وبرر له صنيعه وصنيع إخوانه، وجعل فعلته هذه قاعدة في الحروب، لا يغص بها إلا كل مارق، ولا يزهد فيها إلا كل جاهل.

أما حين أراد المسلمون أن ينتقموا لأنفسهم، وأن ينالوا من عدوهم بعد أن أمكنهم الله منهم، فإنه تطوع بالحكم على المسلمين وسعد أولهم بأنهم خونة سيئو الخلق، قليلو النخوة دون أن يقدم بين يدي أحكامه بمسوغ واحد.

---

(١)راجع البداية والنهاية حـ٤ ص ١٢١ وما بعدها.

وأنت خبير كما قلت أن هذا كله ليس بغريب على خلائق اليـــهود، لا يخطئ سجاياهم ولا تخطئه، وإنما الغريب المنكر هو أن يوافق المشرف على هذا البحث، وأن توافق اللجنة التي حكمت على هذا البحث.

نهاية المطاف في المدينة :

ولقد استراح المسلمون والنبي بعد أن أجلوا اليهود عن أرضهم مـــن الخيانات اليهودية، ومن غمزهم ولمزهم، ومن محاولة تفريق الصفوف بيـــن المسلمين.. إلى غير ذلك من أساليبهم السيئة، ومكايدهم التي لا تحتمل.

وما كان لبشر أن يتصور أن اليهود الذيـــن اغتصبـــوا الأرض فـــي المدينة، سيحاولون أو يحاول بعضهم أن يذهب إلى حفته بقدميه، أو يتســـبب في إحداث القلق الذي ينتهي به إلى الجلاء عن الأرض المغتصبـــة، إلا أن يكون الذي سيتصور ذلك قد فهم طباع اليهود فيما قد أورثه خبرة بـــالقوم، وبصرا بشئونهم وخلائقهم.

إلى التزوير مرة أخرى :

وقبل أن نبرح هـــذا المكان من البحث، أحب أن أعرض عليك لونـــا آخر من التزوير هو قريب من الأول والكل من نسق واحد.

وهذا اللون الجديد من التزوير هو ما قال اليهودي إسرائيل ولفنســـون في بحثه السابق، من أن المدينة المنورة قد أصبحت بعـــد اليـــهود خرابـــا، وباتت مجموعة من التلال، الأرض فيها قد أصبحت سبخة، والصناعة التـــي كانت نشطة قد اختفت، ولولا أن المدينة تمتاز بلون مـــن الجـــذب الدينـــي لاختفت من الخريطة، واتسعت بها رقعة الصحراء.

وكلام كثير هذا معناه.

والذي يقرأ التاريخ ويقف على سير الصحابة، يجد أن المدينـــة لـــم يختف منها شئ سوى صناعة السلاح، وهو لون من الحدادة كان اليهود قـــد

فتحوا له سوقا في المدينة، حين أشعلوا نار العداوة والبغضاء بين أبناء العمومة من الأوس والخزرج.

ونحن لا نستطيع أن نجزم بأن صناعة الحدادة التي أنشئت في بلاد العرب لصنع السلاح قد اختفت اختفاء تاما، واعتمد العرب في تسليح أنفسهم على صناعات أجنبية أم. لا.

لكن الذي يقبله المنطق هو أن يكون العرب قد اهتموا بهذه الصناعة في بلادهم، وإن كانوا لا يمارسونها بأنفسهم، حيث إن رجالهم وشبابهم كانوا قد تفرغوا للفتوحات في الإسلام، وتفرغوا للحروب التي أثارتها الإحن، والتي كان اليهود سببا فيها قبل الإسلام.

ويبقي ادعاء إسرائيل ولفنسون كسابقه، ادعاء ليس له ما يسانده من الحيثيات أو الصادق من المقدمات.

هذا ولقد حكي الكاتب عن أستاذه الدكتور/ طه حسين أنه قد قبل منه الدعوة، وارتضي أن تكون المدينة قد تأخرت، وإن كان قد استحيى أن يقبل منه أن يكون غياب اليهود هو السبب في تأخرها.

ما أشبه الليلة بالبارحة !!

فإنا لنجد اليوم من يقومون على قدم وثاق يساعدهم إعلام قوى، وضخ الأموال من الخارج بغير حدود داخل أرض اليهود، ومحاولة إضعاف المسلمين أمام اليهود.

إنا لنجد اليوم من يقومون على قدم وثاق ويقولون: لولا اليهود في هذه المنطقة من العالم لتحولت إلى خراب.

وقد سبقت هذه الدعوة دعوة أخرى فيها أن اليهود قد استلموا هذه المنطقة من العالم ليس فيها بشر، وليس فيها زرع ولا ثمر، ولا هي بقادرة على ذلك إلا بيد اليهود، الأمر الذي دفع أحد الكتاب المعاصرين إلى إخراج

سلسلة من الكتب، منها الصغير في الحجم، ومنها الكبير، وفي كلـــيا تجــد الحقيقة ناصعة بوثائقها وأدلتها. [١]

(١) راجع في هذا كله تاريخ اليهود في بلاد العرب، وانظر معـــه كتــب روجيـــه جارودى ذات الصلة من نحـــو ملــف إســرائيل و فلســطين أرض الرســالات، وغيرهما.

فتـح خـيبر

****

انتهي النبي من مشاكل اليهود في المدينة بعد أن رفضوا أن يعيشـــوا معه على أرضها التي قبل منهم أن يعيشوا معه عليها، مع أنهم ليســـوا لـــها بأصحاب وإنما هم عزباء قد أتوا إليها نازحين من بلاد أخري.

ولو أن خلائق اليهود قد اتسعت لتتقبل معـــاهدات الســـلام، وتحمـــل أصحابها على العيش مع جيرانهم دون أن يثيروا بينهم القلاقل، لعاش اليـهود مع النبي حياته، ثم عاشوا مع المسلمين بعده ما شاء الله لـــهم أن يعيشـــوا. ولكن خلائق اليهود مع جميع الأمم تبين عن طباع غريبة تحمل على ســلوك أشد غرابة ونكارة.

وقد يظن بعض الناس أن النبي قد استراح من اليهود حين لم يعد لـهم بالمدينة وجود، وهذا ظن غير سديد، فإن علاقة النبي باليهود لم تنته بعد.

السبب الحقيقي لمسير النبي إلى خيبر :

لم تنته علاقة النبي باليهود حيث بدأ النبي والمسلمون معه يفكـــرون في خيبر وما جاورهم من يهود وادي القرى، ومن يهود فدك وغيرهم مـــن هؤلاء اليهود الذين سكنوا منطقة الشمال بين النبي في المدينة وبلاد الشام.

وقد يتساءل البعض ما الذي دفع النبي ﷺ والمســـلمين معـــه إلـــى التفكير في اليهود الذين يسكنون بعيدا عنه، وليس بينه وبينهم علاقة ؟

وقد حاول الكثيرون أن يجيبوا على هذا التساؤل بجواب لا يرده أحـــد من الباحثين، ولا يقبله على قناعة.

ذلك أن هذا الجواب فيه من التعميم ما يجعله صالحا لكـــل معركـــة يخوضها النبي، لا تمييز لإحداها عن سائرها.

وهذا العامل الذي أشير إليه هو: أن النبي ﷺ إنما خرج إلى يهود خيبر يدعوهم إلى الإسلام، فإن هم قبلوا عصموا منه ومن أصحابه دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله، وإن هم أبوا خيرهم بين الجزية والقتال لأنهم أهل كتاب.

وهذا كلام كما قلت لا يرده أحد ولا يقبله عن قناعة، لأنه سبب عام يتصل بالدعوة، ويتصل بتبليغ الرسالة المحمدية.

غير أن هذا الوقت الذي خرج النبي فيه إلى خيبر وما سبقه من الأوقات، قد دل على أن النبي قد قبل من اليهود في المدينة أن يدخلوا معه في معاهدة سلم، ولم يعلنهم بالحرب بعدها حتى خانوه خيانة كانت أشد بشاعة من أن ينبذوا له صراحة بعهده ومعاهدته.

هذا السبب العام إذا نحن نقبله، لأن النبي ما جاء إلا لينشر دعوته، لكن لابد مع هذا السبب من سبب آخر مشخص ومميز، وخروج النبي ضد خيبر يكون ارتباطه بخيبر ارتباطا واقعيا، يقرأه المسلم فيفهم دلالته، وينتهي إلى مسامع غير المسلمين فيقرون به إن كانوا منصفين.

وأنا لا أزعم أني قد توصلت إلى هذا السبب من بطون التاريخ وأخطأه غيري، وإنما الذي أزعمه هو أن دوري هنا أنني سأضع خطا تحت هذا السبب الذي أراه مرتبطا بخروج النبي إلى خيبر، لا يخطئ الباحث فيه إذا ما تأمله بإنصاف.

وهذا السبب الذي أريد أن أبرزه هو: ما قام به يهود خيبر من مساعدة اليهود الذين أجلاهم النبي عن المدينة من بني قينقاع وبني النضير.

ولم يكن الدور الذي قام به يهود خيبر في مساعدة حيي بن أخطب دورا هينا.

وإني لأرى ويرى كل منصف معي، أن حيى بن أخطب ما كان يستطيع وحده أن يجمع العرب في حلف واحد، ويحزبهم ضد النبي يوم الخندق لولا مساعدة يهود خيبر له.

فهو مثلا لا يستطيع أن يحمل قريشا على قتال النبي، وقد رغبت قريش في تأجيل قتال النبي، ريثما تفرغ من ترتيب شئونها الاقتصادية، وتضميد جراحيا التي ازدادت بعد معركتي بدر وأحد.

لم تكن قريش إذا راغبة في الحروب على الأقل إلى حين، ولم يكن حيى بالرجل الذي يستطيع أن يغرى قريشا بأمر انصرفت عنه، ومن أجل ذلك رأيناه حين ذهب إلى قريش، لم يذهب إليها بثقله الذي يتوهمه، إنما ذهب إليها بثقل يهود خيبر وفدك ووادي القرى، وغيرهم من أبناء يهود. الذين أقاموا في شمال المدينة بينها وبين الشام.

وثقل هؤلاء اليهود عند قريش يرجع إلى ما كان بين قريش وبين هؤلاء اليهود من روابط وتعاون، وهي أمور حدثنا التاريخ عنها وليست أمورا افتراضية نفترضها افتراضا.

ولست أدرى لماذا تحمس يهود خيبر مع حيى إلى أن تكون نوازع الدم، والعصبية الدينية، والشعور المشترك بالغربة، والرغبة في فرض السيطرة المؤسسة على التميز الاقتصادي، ودعوى التميز الثقافي والديني، وهي أمور قد استغلها اليهود في ادعاء علو كعبهم على العرب، وهم يستغلونها في ادعاء علو كعبهم على جميع الأمم.

وأنت خبير أن هؤلاء اليهود يظهرون في كل عصر، وفي كل وسط بادعائهم مثل هذا التميز الذي يطلبون بسببه كل امتياز، أو ليس هم الذين يقولون:- نحن أبناء الله وأحباؤه؟- و أوليس هم الذين يدعون في كتبهم المقدسة **أنهم ليس عليهم في الأميين سبيل؟**- ويقصدون بـ - **الأميين** -

جميع الأجناس من غير اليهود، ثم أو ليسوا هم الذين يقولون:- إن الله عز وجل حين أخرجنا من الأرض بعد أن أخطأنا في موسى النبي، ندم وبكى على قرار إخراجنا؟- **(وحاشاه)**.

لجميع هذه الحيثيات وما يشابهها- فيما أرى- ارتبط يهود خيبر وما جاورهم من اليهود بحيي بن أخطب، وأنزلوه بينهم هو وأهله، وخرج معه لجمع الأحزاب والحلفاء ضد النبي زعماء خيبر الدينيين والعسكريين والسياسيين. قلت ما كان لقريش أن يستخفيا حيي بن أخطب وحده، بعد ما اتخذت قرارها بالعزوف عن حرب النبي ﷺ ولو إلى حين، غير أنه قد استطاع أن يؤثر عليهم حين انضم إليه زعماء القوم من خيبر ومن جاورها.

وما كان لحيي وحده أن يحمل غطفان ومن تبعهم، على أن يخفوا للاشتراك مع قريش وحلفائها في حرب رسول الله ﷺ، والقضاء عليه وعلى دعوته كما توهم حيي.

ما كان لحيي أن يقوم بهذا العمل وحده.

أما أولا: فلأن حييا لم يكن معلوما ولا معروفا لغطفان ولا لحلفائهم أهل نجد، وقصاراه أن يكون معروفا ومعلوما لأبناء جلدته من يهود خيبر.

أما ثانيا: فلأن غطفان لم يكن بينها وبين النبي ثارات ولاعداء، ولم تكن هناك مصالح على طريق المدينة يخشون النبي عليها.

أما ثالثا: فلأن غطفان لم يكن عندهم ولا عند حلفائهم مبرر من دوافع المصالح، يحملهم على أن يستجيبوا لحيي، لو قد جاءهم حيي منفردا.

واستنادا إلى هذه الحيثيات نقول: إن حييا لم يكن قادرا بنفسه على أن يحمل غطفان لتشارك في حرب النبي، وهي حرب ليست مأمونة العواقب، ولو نظرت فيها غطفان، لحملها النظر فيها على أن تحسب للدوائر حسابها.

والحقيقة التي لا شك فيها، أن الذين اهتدوا إلى السبب الحقيقي الـــذي حمل غطفان على الاشتراك في حرب النبي هـــم يـــهود خيـــبر، زعمـــاؤهم وعامتهم على السواء.

ذلك أن السبب الذي اهتدي القوم إليه، يدور كله حـــول المعونـــة إن شئت، أو يدور حول الأجر إن أردت، أو هو يدور حول الجعل إن أحببت.

إن المعونة أو الأجر أو الجعل هي التي يمكن أن تثير لعاب غطفـان، وتحملهم على الاشتراك في حرب لا يعرفون نتيجتها، ولا يدركون غايتـــها، ولا هم قد وقفوا على الدوافع والأسباب التي حركتها.

وذهب اليهود أو زعماؤهم من غطفان يعرضون عليهم الاشتراك فـي حرب النبي، فلما أرادت غطفان أن تزور عن هذه الحرب، وأن تديـــر إليـــها ظهرها، لجهلها بدوافعها وأغراضها، وبالنتائج المحتملة حين تدور رحاهـــا، لوح لهم يهود خيبر بالجعل أو الأجر أو المعونة، فتـــأثر بـــالعرض رجـــال غطفان، وزاد تأثرهم حين علموا أن المعونة هي: ثمار خيـــبر كلـــها عامـــا كاملا.

أرأيت إلى ما قلت لك من أن خروج النبي إلى خيبر، لابد أن يرتبـــط بسبب مشخص ينطبق على أهل خيبر انطباقا يحمل النبي علـــى أن يخـــرج إليهم ؟

ولم يقف أهل خيبر عند هذا الحد، ولكن علماءهم وزعماءهم جميعـــا قد عابوا في النبي وفي دينه وفي أصحابه.

فهم الذين قالوا لقريش: إن عبادة الأصنام والأحجـــار، وإن شـــريعة الربا وشرب الخمر، وإباحة الأعراض، أفضل بكثير من عقيـــدة الوحدانيـــة، والطهر في الأموال والعلاقات الاجتماعية، وارتفاع القيـــم الأخلاقيـــة التـــي تناسب الإنسان الذي كرمه الله عز وجل حسبما جاءت بها شريعة النبي ﷺ .

وهذه الشهادة كما رأيت من قبل قد عرضت اليهود إلى أن لامهم القرآن الكريم أشد اللوم، وأنكرته عليهم آياته أشد النكر، واتهمهم بعض كتاب اليهود المحدثين، ورماهم بأنهم خالفوا التوراة وتنكروا للأعراف، على نحو ما بيناه سلفا.

بل قل إن هؤلاء اليهود متمثلين في زعمائهم، قد عابوا النبي ﷺ وأصحابه، اتهموهم بما ليس فيهم، قاصدين إلى إعادة تشكيل العقل العربي ضد هؤلاء الناس، حتى يتوقف مد الدعوة الإسلامية، وتلك عادتهم في كل زمان، وبالأخص في هذا الزمان الذي نعيش فيه.

وأنت خبير يا صاحبي أن إعادة تشكيل العقل البشري في مجتمع من المجتمعات، له عند اليهود مدارس لها مناهجها، ولها أسسها التي تعتمد عليها، حتى وصل بها الحال في هذا الزمان إلى أن أنشأت لها كليات وجامعات، يقوم بالتدريس فيها أساتذة تتوفر لهم فيها جميع الإمكانات.

ولم يكن حيي يستطيع وحده أن يقوم بخطة إعادة تشكيل العقل العربي ضد النبي ودعوته، وإشاعة القصص المزورة والملفقة التي تنسب للنبي وأصحابه سجايا وأخلاق ليست لهم، كي ينفر الناس منهم، ويبتعدوا عنهم.

وإني سأحاول أن أعرض بين يديك نماذج، أو نموذجا واحدا، يظهر لك منه ما صورته لك لتعلم أن المسألة من جانب النبي والمسلمين، لم تكن شهوة حرب وقتال، وإنما كانت محاولة للدفاع عن النفس أولا، وفتح الطريق أمام الدعوة يدخل فيها من يشاء، وينصرف عنها من يريد من غير مقاومة أو تشويش، ومن غير لعب وعبث في عقول الناس أفرادا أو جماعات.

قصة أبي رافع سلام بن أبي الحقيق اليهودي :

وهذا وإن قصة أبي رافع لتعتبر المثل التطبيقي الـــذي يشـــرح لنـــا السبب الحقيقي، الذي خرج النبي مدفوعا به إلى يهود خيبر.

وبيان ذلك أن أبا رافع قد قام ضد النبي والمسلمين بأسوأ مما قام بـــه صديقة كعب بن الأشرف من قبل.

ذلك أن كعب بن الأشرف وأبا رافع اشتركا في خصلة هـــي إيـــذاء المسلمين والنبي، مدفوعة بكراهيتهما للنبي ودعوته، وللمسلمين الذين اتبعـــوه في أمره.

وكل من الرجلين أظهر لقريش الاستعداد للعون على حـــرب النبـــي والنيل منه.

غير أن أبا رافع إنفرد في زمانه هو ومن معه، بأنهم قد ذهبوا إلـــى قريش يحرضونها على حرب النبي، ويعدونها بأنهم سيجمعون لها رجالا مـــن عرب ويهود يشدون من أزرها، للقضاء على النبي دفعة واحـــدة، بواســـطة جيش جرار ليس للنبي ولا للمسلمين به طاقة.

ولقد تميز أبو رافع ومن معه بهذه الميزة، واختصوا بهذه الخاصيـــة، ولم يتوان واحد منهم عن تنفيذ ما وعد قريش به على نحو ما علمنا، الأمـــر الذي وضع المسلمين في حرج شديد، ولولا أن الله سلم وحفظ دينـــه ونبيـــه والمسلمين معه، ما كان لأمر الإسلام قائمة.

وأمر كهذا يختص به أبو رافع ويهود خيبر، لا يجوز أن يمـــر فـــي التاريخ بغير عقوبه، كما أنه لا يمكن للنبي أن يأمن علـــى حياتـــه ودعوتـــه ومستقبله ومستقبل أصحابه، مع وجود هذه الخيانات الصادرة عن أنـــاس قـــد أقاموا على أرض احتلوها.

والحل الوحيد هو إجلاء المحتل عن الأراضي التي احتلها، وعودة الأرض إلى أصحابها، أو الإبقاء عليه، ولكن تحت سيطرة أصحاب الأرض الأصليين وضمن حكمهم، حتى لا يتمكنوا من العربدة أو تأليب الناس عليهم.

وهذا ما أدركه النبي أثناء حرب الأحزاب، وأسرع من أجل ذلك للقضاء على بنى قريظة كما علمت.

أما يهود خيبر بقيادة أبي رافع ورفاقه، فلم تهدأ ثائرتهم، بعد فشلهم في تأليب الأحزاب ضد النبي، بل أرسلوا بالإيذاءات تترى للنبي وأصحابه، وهددوه وتوعدوه، حتى اضطر النبي ﷺ إلى إهدار دم أبي رافع، على نحو ما أهدر دم كعب من قبل.

وأنت خبير بأن جميع الدساتير والنظم لا تحمي إنسانا قد ارتكب من الجرائم حتى أهدر دمه.

فلما أهدر النبي دم أبي رافع، بادر الخزرجيون وذهبوا إلى النبي ﷺ يسألونه: هل أهدرت دم أبي رافع يا رسول الله ؟ فأجابهم النبي: أن نعم، فطلبوا إليه أن يأذن لهم في قتله، كما أذن من قبل لإخوانهم الأوسيين في قتل نظيره كعب بن الأشرف.

وهنا أحب أن أذكرك وأذكر نفسى بقضية هامة، هي قضية العصبية والغيرة، لتعلم وأعلم معك أن الإسلام ما جاء ليقضي على العصبية والغيرة في نفوس أتباعه قضاء تاما، ولكن الإسلام جاء فأقر العصبية مع تغيير اتجاهها، فلم يقبل الإسلام مثلا أن تكون العصبية للعرق والدم والنسب والقرابة على العموم بحق أو بباطل،لأن العصبية هنا غير مأمونة العواقب.

ولم يأت الإسلام ليقر العصبية للمهنة وأربابها، أو للبيئة الاجتماعية والمنتمين إليها بحق أو بغير حق، لأن العصبية هنا أيضا لا تؤمن عواقبها.

وإنما جاء الإسلام يقر العصبية ويجعلها للدين وحده.

فأنا أتعصب لديني دون أن أحمل هذا الدين مسئولية أخطائي في الفهم، أو مسئولية أمور ادعيتها وهو منها براء.

ودين بغير أناس يتعصبون له، هو دين ضائع لا محالة، وأصحابه لا وزن لهم بين الأمم، ولا بين معتنقي الديانات أو متبعي المذاهب.

وأنا الآن بعد هذا البيان أعود بك وبنفسي إلى الخزرجيين في حالة من حالات الغيرة، وفي حالة من حالات العصبية المشروعة، إنها غيرة على الدين، وإنها عصبية له يمدح بهما صاحبها ولا يذم.

قال الخزرجيون لرسول الله ائذن لنا في قتل أبي رافع، فقد فاز إخواننا من الأوسيين بقتل كعب بن الأشرف، وارتفعت رءوسهم بعد أن أماطوا أسباب الأذى عن إخوانهم المسلمين. وإنا لنريد أن نكون مثلهم فنحظى بقتل أبي رافع، فأذن لهم النبي في ذلك.

ولقد خرج لهذه المهمة خمسة كلهم من الخزرجيين، إلا خزاعي بن أسود هو حليف لهم من أسلم، والأربعة الباقون هم: عبد الله بن عتيك، ومسعود بن سنان وعبد الله بن أنيس، وأبو قتادة الحارث ابن ربعي.

ولقد أمر النبي ﷺ على هؤلاء رجلا منهم هو عبد الله بن عتيك.

وانطلق الجميع إلى أرض خيبر، وكان لابد أن يصطنعوا له الحيلة، إذ المواجهة غير ممكنة.

فلما وصلوا إلى حصنه تشاوروا فيما بينهم ماذا يفعلون ؟

واختلفت الروايات فيما انتهي إليه رأيهم، ولكنها قد أجمعت كلها على أن مهمتهم قد انتهت بنجاح، حيث قتلوا عدو الله في بيته.

وبينما هم عائدون إذ كسرت ساق قائدهم وهو عبد الله بن عتيك، حيث كان رجل سيئ البصر، فظن في مؤخرة السلم إلى أسفل أنه قد انتهي به الدرج، ولم يكن كذلك، فحين قفز انكسرت ساقه، فحمله القوم وأبطأوا كي يعرفوا أن مهمتهم قد تمت بنجاح، فلما تأكدوا من ذلك حملوه وذهبوا به إلى

رسول الله ﷺ وأخبروه الخبر، وتنازعوا أمامه كل يدعي أنه قتل أبا رافع، ونظر النبي في أسيافهم واستخرج أحدها وقال: هذا الذي قتله، وتقدم عبد الله بن عتيك يشكو علته وألمه فأمره النبي أن يبسط ساقه، ومر عليها بيده ودعا له، فالتأمت ساقه وذهب عنها ما يجده منها٠

وكان لقتل أبي رافع سلام بن أبي الحقيق أثر في نفوس المسلمين، ووقعه فيما هم مقبلون عليه من غزو خيبر، حيث إن ابن أبي الحقيق كان يتمتع بعلاقات مع جيرانه يستطيع أن يضمهم إليه، إذا ما أراد النبي أن ينزل به العقوبة التي تلائم خيانته وخيانة قومه، ومن مصلحة المسلمين التخلص منه قبل الدخول إلى المعركة، وهذا ما حدث والحمد لله٠

ألا ترى في قصة سلام بن أبي الحقيق المثل الكافي الذي يؤكد لك السبب الحقيقي وراء غزو النبي لخيبر ؟

أما أنا فأجد فيه مثلا توضيحيا فوق العادة يقنع كل من كان له قلب، أو ألقي السمع وهو شهيد٠

عزم النبي على غزو خيبر :

وعلى كل حال فقد انقضت السنة الخامسة من الهجرة بأقتابها وأحلاسها، وما فيها من مواقع وأحداث ومشاق وآلام، ودخلت السنة السادسة للهجرة، وقد شهدت من الأحداث الكثير، لكن أهمها هذا الصلح الذي أبرم بين المسلمين وبين قريش، وهو صلح استاء المسلمون حين وقع النبي مبادئه، حيث ظنوا في أول أمرهم أنهم قد وقعوا بنودا هي في صالح القرشيين وليست في صالحهم، ولم يعلموا أن هذه البنود كانت بداية الفتح العظيم الذي وقع بعد ذلك في السنة الثامنة من الهجرة، على ما هو مشهور من وقائع التاريخ٠

انقضت السنة السادسة وما كان قد بقي من السنة الخامسة، ولم يأمن النبيﷺ غدر يهود خيبر، فهم يستطيعون مثلا أن يذهبوا إلى قريش ويحملوها على نبذ عهودها للنبي، على نحو ما نبذت طوائف اليهود عهودها للنبي، وهم يستطيعون أن يجمعوا إلى قريش جنودا من سائر العرب، وينضم إليهم يهود خيبر هذه المرة، ويغضبون جميعا غضبة واحدة على النبي في حرب نظامية لا يكون فيها النبي وجنوده كفءا للغزاة من الخارج، ثم هم يستطيعون أن يستأجروا أناسا لاخلاق لهم يدفعون بهم زرافات ووحدانا في غارات غير نظامية على المدينة، تحدث بين المسلمين رعبا أو تنشئ مجتمعا قلقا في أقل القليل.

من أجل ذلك كله ووكثير غيره، اتخذ النبي قراره في العام السابع من هجرته بالخروج إلى يهود خيبر، ويفعل الله به وبهم ما يشاء.

مسير النبي إلى خيبر:

ومع مطلع العام السابع للهجرة وفي المحرم منه، أذن النبي في الناس أنه خارج إلى خيبر.

وتجهز الناس إلى الخروج.

وجاء المنافقون إلى رسول الله الذين كانوا قد استأذنوه يوم الأحزاب أن يعودوا إلى بيوتهم، يستأذنونه اليوم في في الخروج معه إلى خيبر.

وأطلع الله النبي على نيات القوم وما يحرصون عليه، ويطمعون في تحصيله من الغنائم، فأعلن النبي في القوم أنه لا يجوز لأحد أن يصحبه إلا على نية الجهاد.

وخرج رسول الله ﷺ ومن معه، بعد أن أمر على المدينة سباع ابن عرفطة، وهو سباع بكسر السين، وأبوه عرفطة بعين مهملة مضمومة فراء ساكنة ففاء مضمومة، فطاء مهملة.

أمر على المدينة سباع بن عرفطة على الصحيح.

وخرج معه من أمهات المسلمين أم سلمة وهي: هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم: القرشية المخزومية.

وجد الناس في المسير يحدو للإبل حداتها فتنشط الإبل، وتجد في السير بالسائرين.

وكان خروج النبي ليلا، وقد طلب له من الأنصار غلاما يخدمه، ويستعين به على قضاء حوائجه، ففاز بالخدمة أنس بن مالك رضي الله عنه.

وأخذ النبي طريقة شمالاً، فلما أصبح بينه وبين خيبر ستون كيلو مترا توقف عند جبل يسمي جبل نمار، وطلب إليه دليلاً يعرف الطريق اسمه حُسيل، وأمره قائلاً:" **يا حسيل: امض أمامنا حتى تأخذ بنا صدور الأودية حتى تأتي خيبر من بينها وبين الشام، فأحول بينهم وبين الشام وبين حلفائهم من غطفان**".

فقال حسيل: أنا أسلك بك، فانتهي به إلى موضع له طرق، فقال: يا رسول الله إن لها طرقاً تؤتي منها كلها.

فقال رسول الله ﷺ :" **سمها لي** "،- وكان رسول الله ﷺ يحب الفأل الحسن والاسم الحسن، ويكره الطيرة، والاسم القبيح-

فقال: لها طريق يقال لها حَزن، وطريق يقال لها: شاش، وطريق يقال لها حاطب.

فقال رسول الله ﷺ :" **لا تسلكها** ".

قال: لم يبق إلا طريق واحد يقال له: مَرْحَب.

فقال رسول الله ﷺ :" **اسلكها** ".

لم يشأ النبي ﷺ أن يدخل خيبر من جنوبها، وهو أقرب إليه وأسلك، بيد أن الاستراتيجية العسكرية تأبى دخول خيبر من جنوبها، إذ إنه لا يفوتك

أن لأهل خيبر أصدقاء في شمالهم، هم أهل غطفان وحلفاؤهم، ولهم في أقصى الشمال في الشام إخوان وأصدقاء من بنى جلدتهم، وهم يهود مثلهم نزل معظمهم بأذرعات، ومن كان خبيرا بأخلاق اليهود يعلم بأن لهم مقدرة على الخيانة، واللعب بعقول الناس، ولا بأس أن يأتوا إلى النبي برجال من بلاد الشام يستأجرونهم، أو يغررون بهم، وهم لا يرون على أخلاقهم من بأس إذا هم ارتكبوا هذه الشناعات.

ولكي يقضي النبي على هذه الأمور المحتملة، وينحي عن المسلمين وسوسة الشيطان بها، رفض أن يدخل خيبر من جنوبها، وطلب إلى دليل القوم أن يدخل خيبر من شمالها، وهذا يستلزم أن ينتحي الجيش كله جانبا بمحازاة الساحل في الغرب، ثم يصعد به إلى أن تكون خيبر تحته، فيدخلها من شمالها على نحو ما هو موضح في الخريطة المرفقة.

الطبيعة الحربية لأرض خيبر :

ومن يتأمل الخريطة القديمة لأرض خيبر يوم أن فتحها المسلمون، يجد أن أهلها قد قسموها إلى مناطق ثلاث، في كل منطقة منها عدد هائل من الحصون والمستعمرات، حولها أسوارها، وعليها أبوابها تغلق دونهم إذا ما دخلوها، وفوق الأسوار أماكن دفاعية، والكل فوق مرتفعات أو نواشز من الأرض، مما يجعلهم يتمكنون من الغزاة تمكنا يضمن لهم الغلبة في كل حال.

وهذه المناطق الحربية الرئيسية تمتد من الغرب إلى الشرق في خط يشبه أن يكون مستقيما إلى الداخل وهي

١- **منطقة نطاة**: وهي منطقة حصينة فوق ربوة من الأرض أو تل ناشز منها، وتضم هذه المنطقة مجموعة من الحصون والمستعمرات.

٢- **منطقة الشق أو الشقيق**: وهي منطقة كذلك محصنة تقع فوق تل يعرف بهذا الاسم تل الشق ولها توابع من الحصون والمستعمرات الحصينة والمنيعة٠

٣- **منطقة الكتيبة أو الكتيب**: وهي أكثر المناطق عمقا في الداخل، ولها كذلك توابع وملحقات من الآطام أو الحصون٠

وهذه المناطق الهامة أو الاستراتيجية، قد عمد اليهود إلى إنشائها وتقسيمها على هذا النحو فوق الربوات، لعلمهم أنهم غرباء مغتصبون لهذه الأرض، وأن أصحابها قد تصحو نفوسهم يوما فيطلبون أرضهم، ويحاولون إجلاء اليهود عنها، وفي هذه الحال يجد اليهود أنفسهم في قرى محصنة، تحميهم الجدر، وتعصمهم المرتفعات، وتمكنهم مواقعهم من رقاب أعدائهم رميا بالنبال، أو قذفا بالرماح، أو رشقا بالأحجار٠

وحين قرر النبي أن يدخل إلى القوم بدأ بمنطقة النطاة، يدخل إليها من شمالها بادئا المسير غربا ومتجها إلى الشرق٠

دعاء النبي ﷺ :

روى ابن إسحق عن أبي **مغيث**[١] بن عمرو، ومحمد بن عمر عن شيوخه، قالوا: إن رسول الله ﷺ لما أشرف على خيبر، قال لأصحابه:" **قفوا** " فوقفوا٠

فقال:" **اللهم رب السموات السبع وما أظللن ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما أذرين فإنا نسألك من خير هذه القرية وخير أهلها، ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها، أقدموا بسم الله** "٠

وكان يقولها لكل قرية يريد دخولها٠

(١) مغيث: وهو بغين معجمة وثاء مثلثة عند ابن إسحاق، وبعين مهملة مفتوحة ففوقية مشددة فموحدة عند الأمير٠

ورواه النسائي وابن حبان عن صهيب.

منزل النبي بخيبر:

دعا النبي كما رأينا حين وصل إلى خيبر، ثم أمر الناس أن يدفعوا حتى دخل منطقة نطاة، ونزل بسوق اليهود في هذه المنطقة.

وما كان اليهود قبل يعلمون أن النبي يمكن أن يفكر في غزوهم بما لهم من القوة والمنعة، ولما يمتلكونه من السلاح وأدوات الحرب، ولما لهم من رهبة في صدور الناس، ولأن الناس يجاملونهم لغناهم.

ما كان اليهود يفكرون يوما في أن النبي ﷺ يهم أو ينشط إلى محاربتهم.

وحين وقع الخلاف بينهم وبينه، حين جمعوا عليه العرب، وعاب فيه وفي أصحابه زعماؤهم، أصبح حديث النبي والمسلمين مطروحا للجدل والمناقشة بين أبناء خيبر، خاصة بعد أن فشل الأحزاب في هزيمة المسلمين أو النيل منهم.

ولما كان يهود خيبر مغترين بقوتهم، حاولوا أن يشيعوا هذه القوة باستعراضها أمام الناس كل يوم، عليها يسير بها الركبان، ويتسامع بها الناس، فتصل إلى المدينة، فتقضي على كل احتمال للتفكير في غزو خيبر من قبل النبي، ومن أجل ذلك كان أهل خيبر يبدءون يومهم باستعراض عسكري يضم عشرة آلاف مقاتل.

وما كان هذا العمل ليفت في عضد النبي، أو ينال من إرادته حين قرر أن يغزو خيبر.

ونزل النبي كما رأينا بسوق خيبر ليلا.

ولقد كانت عادته إذا نزل ليلا بأرض قوم لم يأمر بالغارة عليهم حتى يصبح، ولذا أمر النبي بالأذان حين انفجر الفجر، وصلى بالناس والغلس شديد، وقرأ بهم ما شاء الله أن يقرأ من القرآن الكريم.

وليس بصحيح ما ظن البعض أن النبي قد صلي الصبح بخيبر قبل انفجار الفجر، وإنما يذهب إلى ذلك من أصابه الوهم على غير دليل يسانده.

وحين نزل النبي منزله هذا اندفع بفرسه في زقاق خيبر يستكشفها على الأقل، هذه المنطقة التي نزل بها وهي منطقة نطاة على هذه الربوة التي عرفت بها.

وحين نزل النبي منزله هذا في سوق اليهود، تقدم إليه الحباب ابن المنذر يسأله سؤالا يذكرنا بأسئلة المسلمين للنبي يوم بدر.

[قال محمد بن عمر رحمه الله ، وجاء **الحباب**[١] بن المنذر رضي الله عنه فقال: يا رسول الله إنك نزلت منزلك هذا، فإن كان من أمر أمرت به فلا نتكلم، وإن كان الرأى تكلمنا. فقال ﷺ "**هو الرأى**" فقال: يا رسول الله. دنوت من الحصون، ونزلت بين ظهري النخل و**النز**[٢] ، مع أن أهل النطاة لي بهم معرفة، ليس قوم أبعد مدي سهم منهم، ولا أعدل رمية منهم، وهم مرتفعون علينا، ينالنا نبلهم، ولا نأمن من بياتهم، يدخلون في خمر النخل فتحول يا رسول الله ﷺ إلى موضع برئ من النز ومن الوباء نجعل الحرة بيننا وبينهم حتى لا ينالنا نبالهم ونأمن من بياتهم ونرتفع من النز، فقال رسول الله ﷺ :" **أشرت بالرأى، ولكن نقاتلهم هذا اليوم**".

ودعا رسول ﷺ محمد بن مسلمة رضي الله عنه فقال:" انظر لنا منزلا بعيدا من حصونهم بريئا من الوباء، نأمن فيه من بياتهم، فطاف محمد حتى أتي **الرجيع**[٣]، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله وجدت لك منزلا، فقال رسول الله ﷺ :" **على بركة الله** ".

القاتل الصامت :

نزل النبي بساحة القوم ليلا، وما شعر بالنبي أحد، وبات اليهود ليلتهم في

---

(١) الحباب : بضم الحاء المهملة، وموحدتين.

(٢) النز : ما يتحلب من الأرض من الماء. (٣) الرجيع : واد قرب خيبر.

سكون وصمت حتى قال الرواة: أنهم في ليلتهم تلك لم يصح لـــهم عند مطلع الفجر ديك، فلما أشرقت الشمس قام اليهود إلى أعمالـهم، فرأوا المسلمين، فنزل بهم هذا النازل الصامت وهو الرعب الشـديد يملأ القلوب، وهو نازل لو أحل بقوم أهلكهم ودمرهم.

ومن أخص خواص النبي محمد ﷺ أمور: منها هذا النازل الصامت الذي هو الرعب، ينصره الله به على أعدائه مسيرة شهر.

استيقظ اليهود صباحهم هذا، وخرجوا من حصونهم يحملون مساحيهم ومكاتلهم وكرازينهم، وسائر أدوات عملهم في الزراعة، فلما وقعت عيونــهم على النبي وقواته من المسلمين سقط في أيديــهم، وقـذف الله فــي قلوبــهم الرعب، وهنا كبر النبي ﷺ واستبشر قائلا وهو يرفـــع يديــه:" **الله أكــبر، خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين**".

أحل بالقوم الرعب واستشعروه، وظل يسكن في قلوبهم أثناء المعارك التي جرت بينهم وبين النبي، حتى كتب الله لنبيه النصر على أعدائه.

وقائع المعركة :

ظل النبي في قومه لا يأمر بهجوم، بل أمر قومه أن لا يرفـــع أحـد منـهم السلاح إلا أن يأذن له، وبصرهم أن الله عز وجل لو فتح عليهم بغــير قتـال لكان أفضل لهم ولأعدائهم، كما أمرهم أن يبقوا جلوسا معهم أسلحتهم، فـــإن استنفرهم القوم إلى قتال نشطوا له بعد [illegible] لهم.

ولعلك مازلت تذكر معي مشورة الحباب بن المنذر، وأن النبـــي قـد رفض أن يتحول يومه هذا، وقد أرسل أحد جنوده فوقف لـــه علــى مكـان مناسب اعتزم التحول إليه في الغد.

أما يهود خيبر فقد نشطوا إلى القتال واستعدوا له ورتبـــوا أمورهــم، فوضعوا الأبناء والأموال والنساء في حصني الوطيح والسلالم، وهما حصنان

أبعد ما يكون من أرض المعركة المحتمل أن تنشب بينهم وبين المسلمين، إذ هما في المنطقة الثالثة وهي منطقة الكتيبة، وكلاهما في الجنوب منها٠

وقد وضعوا أسلحتهم وما يلزم لهم من أدوات الحرب في حصن ناعم، وهو حصن في منطقة نطاة وهي المنطقة الأولي، لكنه قريب من منطقة الشق٠

أما الجنود والمحاربة ومعيم قائدهم سلام بن مشكم، فقد نزلوا في حصن نطاة٠

ولقد جرت بين اليهود وحلفائهم محادثات واتفاقات على ما يقول المؤرخون، حيث قد اتفقوا مع غطفان على أن يكونوا معهم على النبي، مقابل جعل أو أجر يجعلونه لهم٠

هذا وإن بعض الكتاب يزعمون أن اليهود قد استقر رأيهم على أن يستعينوا بإخوانهم من يهود وادي القري، ومن يهود فدك، وما أمكن الاستعانة به من يهود الشام، ولا يستعينون بأحد من العرب٠

ولعلك تذكر معي أن النبي قد فطن إلى احتمال وقوع ذلك، فنزل إليهم من الشمال حتى يحول بينهم وبين غطفان، وبين من يحتمل أن يعينهم من اليهود٠

وسواء ساعدهم أهل غطفان أو انصرفوا عنهم٠

وسواء كان انصراف أهل غطفان فرقا من النبي وخوفا من المسلمين، أو رغبة في الحصول على جعل ومكافأة وعدهم النبي بها، إن هم تخلوا عن مساعدة اليهود٠

سواء كان هذا أو ذلك، أو كان غير هذا وذاك، فإن المعركة قد وقعت بالفعل، وبقي أن نتابعها إلى آخرها٠

١ - المعركة في المنطقة الأولي :

وقف النبي والجيش معه على مشارف المنطقة الأولي، وهي منطقة نطاة لا يأمر الناس بقتال، ولا يحفزهم لسفك الدماء، وإنما ينتظر رد فعل القوم لعليهم يطلبونه إلى سلام، أو ينتدبونه إلى صلح.

لكن اليهود قد اجتمعوا في حصن النطاة إلى زعيمهم سلام بن مشكم يحفزهم للقتال، ويستحسهم على النزال، مع علمه أنه لا يستطيع أن يخرج معيم، فقد كان يصارع المرض الذي نزل به لا يملك له دفعا.

وخرج اليهود بجيوشهم إلى النبي، ودار القتال أولا حول حصن نطاة، وهو الحصن الذي ضم المحاربين كما رأيت.

ولم يبدأ النبي القتال إلا بعد أن توجه إلى ربه يدعوه ويسأله النصرة، ويبشر المسلمين ويحمليم على القتال، ويعدهم رضوان الله إن هم أخلصوا في ذلك.

وكان مما قال النبي في دعائه وأوصي به، مارواه الطبراني في الصغير عن جابر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال يومئذ:" **لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله تعالى العافية، فإنكم لا تدرون ما تبتلون به منهم، فإذا لقيتموهم فقولوا: اللهم أنت ربنا وربهم، ونواصينا ونواصيهم بيدك، وإنما تقتلهم أنت، ثم الزموا الأرض جلوسا، فإذا غشوكم فانهضوا، وكبروا"**

وكان لواء النبي ﷺ يومئذ أبيض، وقد دفع به إلى على بن أبي طالب.

أما الرايات فلم يكن النبي قد اتخذها قبل يوم خيبر، فحين أمر الناس أن يتخذوها في هذا اليوم كانت رايته يومئذ سوداء، من بعض الأقمشة التي كانت تمتلكها أم المؤمنين عائشة.

وقد دفع الرايات في هذا اليوم إلى الحباب بن المنذر، وسعد ابن عبادة.

أما شعارهم الذي كانوا يعملون تحته فهو - **يا منصور أمت** -

أما النبي فقد لبس لبس القتال، لبس درعين ومغفر ووضع عليه البيضة، وأخذ معه ترسه وقناته، وركب فرسا يقال له -الظرب- ثم أمر الناس بالقتال، فقاتلوا أشد القتال وأعنفه، وقاوم اليهود أشد المقاومة وأعنفها يومئذ الأول، والنبي في مكانه من سوق القوم، تصل إليه نبالهم كما قال الحباب، ويضايقهم نوعا ما من المضايقة تسرب الماء إلى الأرض التي نزلوا بها، واختمار اليهود بالنخيل أثناء القنص.

وانقضى اليوم الأول، وتحول النبي بجيشه بعده إلى الرجيع، وهي مكان مرتفع عن المكان الذي كانوا قد نزلوا به، يحمي المسلمين من سهام اليهود ونبلهم لبعده عنهم، ويحميهم من نز الماء، ويكشف لهم الرماة الذين اختمروا بالنخيل، لارتفاعه.

محاصرة الحصون بالمنطقة الأولي :

ولقد كان أول حصن حاصره النبي عامة وبمنطقة النطاة خاصة هو: **حصن ناعم.**

قاتل المسلمون حول هذا الحصن ونبيهم معهم، ولم يروا فيه كبير عنت حتى سقط في أيديهم.

غير أن المسلمين قد أصابتهم الحمي وانتشرت في أفرادهم، لا يعرفون لها سببا، إلا أن بعضهم قد عزاها لهذه المنطقة التي نزلوا فيها لسوء المناخ بها، أو لهذه الثمرة التي أكلوها منها قبل نضجها.

ولسنا بصدد بيان سبب هذه الحمي، وانتشار هذا الوباء، لكن النبي قد أمرهم أن يبردوا الماء في القرب ليلا ويصبه الواحد منهم عليه صبا بين

الفجرين الكاذب والصادق، ويدعوا الله أن يرفع عنهم البلاء، ففعلوا وذهبت عنهم الحمي ببركة النبي ﷺ .

ثم ذهب المسلمون بعد ذلك إلى حصار **حصن الصعب بن معاذ ابن النطاة**.

وكان المسلمون حين حاصروا هذا الحصن قد أجهدوا اجهادا شديدا من الجوع، حتى شكت أسلم إلى رسول الله ﷺ ، واعتذر النبي ﷺ إذ ليس عنده ما يطعمهم، ولكنه دعا ربه أن يفتح عليهم هذا الحصن، وأن يرزقه من الغنائم ما يتبلغون به فقال:" **اللهم فافتح عليهم أعظم حصن فيها، أكثرها طعاما، وأكثرها ودكا**" ولم ينقض هذا اليوم الذي دعا النبي ربه فيه إلا وقد فتح عليه.

وفي هذا اليوم بدأ النبي يرمي بسهمه والناس ينظرون، فما أخطأ سهمه رجلا منهم .

وقد طلب بعض اليهود المبارزة، طلبها منهم رجل يقال له: -**يوشع**- فخرج إليه - **الحباب بن المنذر** -، وبعد اختلاف الضربات بينهما حمل عليه الحباب فقتله، ثم طلبها من بعده آخر يقال له:- الزيال- فبرز له- عمارة بن عقبة الغفاري- وحمل عليه فقتله بضربة في هامته، وهو يقول له: خذها وأنا الغلام الغفاري.

وسمع المسلمون هذه الكلمة من الغلام فظنوها فخرا يسقط الأجر، فقالوا: أضاع ثوابه، وأسقط أجر جهاده، وعلم النبي بقولتهم تلك فبين لهم أن الفخر في موطن الجهاد أمام العدو لا يسقط الأجر، إذ فيه رفع للقوى المعنوية وهو أمر مطلوب، حيث قال النبي تعليقا على ما قالوه:" **ما بأس به يؤجر ويحمد**".

وما هي إلا ساعات شد المسلمون فيها على اليهود حتى سقط الحصن بين أيديهم، وفتحت أبوابه لهم، ووجد المسلمون فيه طعاما وشرابا، ما كان

المسلمون يتوقعون أن اليهود يختزنون مثله في مستعمراتهم، فطعموا وشربوا وذهب عنهم الجهد، غير أن منادى النبي قد نادى في القوم أن يأكلوا ويشربوا ويعلفوا دوابهم، ولكن لا يحملون معهم شيئا٠

ثم انصرف النبي ﷺ من هذا الحصن إلى حصن منيع في هذه المنطقة على رأس قلعة، عرف فيما بعد باسم حصن الزبير لوقوعه في سهمه٠

وحاصرا النبي هذا الحصن فترة من الزمن، وقد امتنع عليه دون أن يعرف المسلمون السبب، فهيأ الله لهم يهوديا جاء إلى النبي يطلب إليه أن يؤمنه، ويطلعه على استعصاء هذا الحصن، فأمنه النبي على نفسه وماله وأهله، وقال له: إن القوم لهم ماء أصوله خارج الحصن وهو يجرى في دبول تحت الأرض حتى يصل إليهم، وهم يشربون كل يوم وقت السحر، فلو أقاموا على ذلك أياما لم يتضرروا ولن تخلص إليهم، فإن أردت أن تخلص إليهم فأمسك عنهم الماء يصحرون إليك٠

أما النبي فقد أخذ بهذه المشورة وأمسك الماء عنهم، فخرجوا إليه وقاتلوا أشد القتال، وجرح من المسلمين من جرح، وقتل من اليهود من قتل، واستشهد من المسلمين من استشهد ثم فتح الحصن٠

وكان هذا هو آخر حصون منطقة النطاة وهي أكثر مناطقهم منعة وأشدها بأسا٠

٢- المعركة في المنطقة الثانية :

ثم انتقل النبي ﷺ إلى المنطقة الثانية وهي منطقة الشق، وحاصر فيها حصنين عظيمين واحدا بعد الآخر٠

أما الحصن الأول فهو: حصن أبي، وقد أمكن الله للنبي منه، حيث نزل النبي على قلعة يقال لها:- **سموان**- وطلب اليهود المبارزة فخرج

إليهم أناس منهم- **الحباب وأبو دجانة**- كل رجل منهم خرج لرجل من اليهود ، ولم يطل أهل الشق النفس في القتال والمبارزة، حيث قد سبق النبي إليهم القاتل الصامت الذي هو الرعب فملك عليهم قلوبهم، واستسلم أهل الحصن ودخله النبي، وفر أهله منه من فوق الجدر كأنهم الظباء، ودخلوا هم والفارون من منطقة النطاة معهم إلى **الحصن الثاني، وهو حصن النزال،** فأغلقوه عليهم وحاصرهم النبي فيه إلى أن سقط الحصن ودخله النبي.

٣ -المعركة في المنطقة الثالثة:

ولقد انحصر اليهود وانكمشوا في المنطقة الثالثة وهي منطقة: **الكتيبة**، وسوف يكون القتال فيها أشد ضراوة لأنها معركة النهاية، حين تحسم لصالح أحد الفريقين يكون هو الذي استقرت له الغلبة.

وكان أهم حصونها حصنا يسمي **حصن القموص**، وأمر النبي المسلمين أن يحاصروه، وكان النبي ﷺ قد أخذه شئ من الوجع فلم يخرج معهم، وخرج اليهود للمسلمين يقاتلونهم وقاتل المسلمون تحت لواء النبي يحمله أبو بكر الصديق، وعادوا يومهم لم يفتح عليهم، فدفع النبي اللواء في اليوم الثاني إلى عمر بن الخطاب وقاتل المسلمون معه قتالا شديدا، ولكنه لم يفتح لهم.

[فأخبر رسول الله - ﷺ - بذلك فقال:"**لأعطين الراية غدا رجلا يفتح الله عليه، ليس بفرار، يحب الله ورسوله، يأخذها عنوة**" **وفي لفظ** "**يفتح الله على يديه**" قال بريدة : فبتنا طيبة أنفسنا أن يفتح غدا، وبات الناس يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله -ﷺ- كلهم يرجو أن يعطاها، قال أبو هريرة قال عمر : فما أحببت الإمارة قط حتى كان يومئذ.

قال بريدة : فما منا رجل له من رسول الله – ﷺ – منزلة إلا وهـو يرجو أن يكون ذلك الرجل، حتى تطاولت أنالها، ورفعـت رأسـي لمنزلـة كانت لي منه، وليس منة.

وفي حديث سلمة، وجابر : وكان على تخلف عـن رسـول الله ﷺ لرمد شديد كان به لا يبصر فلما سار رسول الله ﷺ قال : لا، أنا أتخلـف عن رسول الله ﷺ!! فخرج فلحق برسول الله ﷺ قال بريـدة : وجـاء على- رضي الله عنه حتى أناخ قريبا، وهو رمد، قد عصب عينيه بشـق برد قطري، قال بريدة : فلما أصبح رسول الله ﷺ صلى الغداة، ثـم دعـا باللواء، وقام قائما. قال ابن شهاب : فوعظ الناس، ثم قال :" **أين علـى** "؟ قالوا : يشتكي عينيه، قال:" **فأرسلوا إليه** " قال سلمة: فجئت به أقوده، قـالوا كليم: فأتي به رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ " **مـالك** ؟" قـال : رمدت حتى لا أبصر ما قدامي. قال:" **ادن مني** " وفي حديث علـى عنـد الحاكم: فوضع رأسي عند حجره، ثم بزق في ألية يده فدلك بها عيني، قالوا: فبرأ كأن لم يكن به وجع قط، فما وجعهما على حتى معضي لسبيله، ودعـا له وأعطاه الراية، قال سيل فقال على: يا رسول الله أقاتليم حتـى يكونـوا مثلنا. فقال:" **انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم. ثم ادعهم إلى الإسـلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى وحـق رسـوله. فـوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم**" وقـال أبـو هريرة: إن رسول الله ﷺ قال لعلى:" **اذهب فقاتلهم حتى يفتح الله عليك ولا تلتفت**" قال: علام أقاتل الناس؟ قال:" **قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إلـه إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالـهم إلا بحقها، وحسابهم على الله**" فخرجوا، فخـرج بـها والله يـأيح يـهرول هرولة. حتى ركزها تحت الحصن فاطلع يهودي من رأس الحصن فقـال:

من أنت ؟ قال: على، فقال اليهودي غلبتهم والذي أنزل التوراة على موسى، فما رجع حتى فتح الله تعالى على يديه.

قال أبو نعيم : فيه دلالة على أن فتح على لحصنهم مقدم في كتبهم بتوجيه من الله وجهه إليهم، ويكون فتح الله – تعالى– على يديه][١].

وحول هذا الحصن كانت المعارك ضارية بين المسلمين واليهود، سقط فيها كثير من الرموز اليهودية الذين كانت أسماؤهم موضع زهو اليهود وفخرهم.

ومن هؤلاء :- **الحارث أخو مرحب**- قتله على بن أبي طالب، ورجل عملاق طويل يقال:- **عامر**- يخافه الناس لشجاعته، وطول قامته، وامتلاء جسمه، لما رآه النبي قال:" **أترونه خمسة أذرع**" خرج إليه على بن أبي طالب، وعلى هو ما نعلم من قصر قامته فعالجه في أرجله حتى طرحه وأجهز عليه، ثم - **ياسر**- وهو فارس آخر برز إلى المسلمين يفتخر بنفسه، فخرج إليه على بن أبي طالب، فرده عنه ابن عمته الزبير بن العوام، يقسم عليه أن يتركه له، ففعل وقتله الزبير، وخرج فارس آخر مشهور بينهم باسم - **مرحب** - واختلف الناس في قاتله، ولكنه قتل على كل حال.

ولما سقط هؤلاء جميعاً خارت قوي اليهود.

ولقد حدثت حادثة أثناء المعركة، بل حوادث تدخل على المسلمين شيئاً من السرور وسط هذا الدم المنثور.

ومن هذه الحوادث أن عبداً كان يرعى غنماً لأبناء اليهود وقد عاد بها، فلما رأي وجه النبي استراح له، وعرض عليه النبي الإسلام فأسلم، ولكنه قال للنبي: إن معي غنيمات لرجال مختلفين من أبناء اليهود، وكان بودي لو بلغت بالأمانات

إلى أصحابها، فقال النبي له:" **اتركها وانظر أين تذهب**"فتركها وأبصرها،

(١) سبل الهدي والرشاد جـ٥ - ص ١٩٤ وما بعدها.

فإذا بها عندما دخلت الحصن تفرقت بها السبل، أو تفرقت هي في طرق شتى، حتى ذهبت كل واحدة منها إلى مستقرها عند مالكها، والعبد ينظر متعجبا ٠

ثم قال يا رسول الله : كيف يكون حالي عند ربي وأنا رجل كريه الثياب، كريه الريح، كريه اللون، فبشره النبي أن الله لا يفاضل بين الناس على أساس من اللون أو حسن الهيأة، وخرج العبد فور إسلامه في صفوف المسلمين فعادوا به قتيلا، وتركوه على مقربة من النبي ﷺ [فقال رسول الله ﷺ :" **أدخلوه الفسطاط** " وفي لفظ " **الخباء**" فأدخلوه خباء رسول الله ﷺ حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ دخل عليه، ثم خرج فقال:" **لقد حسن إسلام صاحبكم، لقد دخلت عليه، وإن عنده لزوجتين له من الحور العين** "٠

ولقد حديث أنس: فأتي عليه رسول الله ﷺ وهو مقتول، فقال:" **لقد حسن الله وجهك، وطيب ريحك، وكثر مالك، لقد رأيت زوجتيه من الحور العين ينزعان جبته يدخلان فيما بين جلده وجبته**"٠

وعند ابن إسحاق " **ينفضان التراب عن وجهه**"، ويقولان:" **ترب الله وجه من تربك وقتل من قتلك**"][1].

ومن بركات بعض الصحابة وكراماتهم في هذا اليوم ما حدث لعلي بن أبي طالب أمام هذا الحصن – **حصن القموص** – حيث اشتد القتال وحمي الوطيس وأقبل على براية النبي يتقدم الصفوف، فاعترضه يهودي فضربه فسقط الترس من يده، فحمل على باب الحصن ترس به عن نفسه وهو ثقيل يجهد الرجال، واندفع يقاتل والمسلمون معه، حتى فتحوا الحصن، وجعل على بن أبي طالب الباب قنطرة يحملها على ظهره والمسلمون

(١) السابق -حـ٥ ص٢٠٢ ٠

يصعدون عليها إلى داخل الحصن، فلما انتهوا رمي به.

واستجاب الله لدعوة النبي، وفتح حصن القموص على بن أبي طالب وكان من أمنع الحصون.

هذا ولم يبق أمام النبي بعد ما فتحه من الحصون السالفة الذكر إلا حصنين هما:- **الوطيح والسلالم** فانتقل النبي إلى هذين الحصنين، وضرب الحصار حولهما أربعة عشر يوما، ولم يحدث عندهما قتال، ولم يخرج أحد منهما إلى النبي ﷺ، حتى أوشك النبي أن يضربهما بالمنجنيق من خارجهما، فلما رأى اليهود جدية الموقف طلب عظميهم وهو - **كنانة بن أبي الحقيق** إلى النبي أن يدخل معهم في المفاوضات لحقن الدماء، فقبل النبي ذلك، فأرسل اليهود إليه رجلا مفاوضا يقال له **شماخ**- فبرز إلى النبي فقال: أأنزل إليك أكلمك ؟، فقبل النبي منه ذلك، فنزل إلى النبي وتفاوضا وتم الصلح بينهم وفتح الحصنان أمام النبي بغير قتال.

وانتهت بذلك حرب خيبر بعد أن قتل فيها كثير من زعمائهم ورموزهم، الذين طالما خانوا الله ورسوله ودبروا للمسلمين، وألبوا عليهم العرب واليهود.

إقرار النبي اليهود بخيبر زراعا لا ملاكا :

حين طالب اليهود النبي أن يصالحوه، عرضوا عليه أن يخرجهم من دياره التي احتلوها، وأرضه التي اغتصبوها، على كل رجل وامرأة حلته وحلتها من الملابس، وأن يؤمنهم على دمائهم ونسائهم وذراريهم، وأن يأخذوا من الطعام ما يبلغون به، أو يبلغ بهم مقاصدهم، ويتركوا له بعد ذلك السلاح والأرض لا يريدون منها شيئا، فهي ليست أرضهم، وإنما هي أرض العرب، نزح اليهود إليها، وأخذوا منها على طول السنين ما أخذوه، فلما كفرت اليهود بأنعم الله ، ما عاد ينبغي لهم أن يقيموا على هذه الأرض.

صالح النبي اليهود على شـــرطهم، وسـلم اليـهود الأرض للنبـي وأصحابه.

وبعد أن هدأت الأمور قليلا ووضعت الحـرب أوزارهـا، عـرض زعماء اليهود على النبي، أن يعيد إليهم الأرض يزرعونـها علـى نصـف محصولها، يأخذونه أجرا لهم على عملهم، علـى أن تكـون ملكيـة رقبـة الأرض لأصحابها من المسلمين العرب، الذين هم أصحابها الأصليون.

وقبل النبي أن يدخل معهم في هذا اللون من التعاقد لأمور أهمها:

١- أن غلمان المسلمين أقل عددا وجهدا من أن يقوموا على فلاحـة هـذه الأرض المتسعة.

٢- وأن النبي ﷺ وأصحابه قد كلفهم الله عـز وجـل، وعـهد إليـهم أن يؤسسوا دولة الإسلام الوليدة، وأن ينشروا هذا الدين الجديد، ويمكنـوا لـهذه الرسالة التي جاء بها النبي ﷺ في أم القرى، وما حولها من أقطار الأرض، وهي مهمة تستغرق وقت النبي والمسلمين معه.

٣- ولقد كانت المهمة الأولي للنبي ﷺ مع يهود خيبر، أن يغير معتقدهـم الذي ورثوة من أن الأرض قد أصبحت ملكا لهم بتقادم الزمـن، وسـلطان القدرة والاقتدار، فينزع هذا المعتقد من نفوسهم ويعود بـهم إلـى العلاقـة الحقيقية بينهم وبين الأرض، على نحو ما هي في كل دساتير الدنيا وقوانيـن الشرائع على اختلاف مشاربها، وهو أن تعود الأرض إلى أصحابـها، وأن يكون الغرباء فيها أجراء لهم ما يقابل عملهم من الأجر دون أن تكون لـهم ملكية الرقبة.

وقد فعل النبي ذلك .

٤- على أن النبي ﷺ قد أراد كذلك أن يبين لليهود من أهل خيبر، أنـــه إذا دخل معهم في علاقة مستقبلية، فإنها تكون على شرط المتعـــاقدين يلزمـــهما جميعا ويلتزمان به، ينفسخ التعاقد إذا أخل بالشرط أحد الطرفين.

ولا يعني العقد مادام مشروطا أن تكون الآثار المترتبة عليه مؤبـــدة إلى آخر الدهر، مستمرة إلى آخر الزمن.

٥- كما أن النبي ﷺ نظر إلى اليهود وهو يعرف خلائقهم وســـجاياهم، فعلم أن طباعهم ستغلبهم يوما، وسيعودون إلـــى الخيانـــة، لا يقـــدرون أن يتخلصوا من نوازعها في قلوبهم، أو دوافعها في سويداء أفئدتهم.

من أجل هذه الحيثيات وكثير غيرها، قبل النبي أن يدخل في علاقـــة مع اليهود قد طلبها اليهود أنفسهم، مع أن شرط الصلـــح الـــذي اشـــترطوه وألزموا به أنفسهم، كان يقضي بأن يخرج اليهود مـــن الأرض ويتركوهـــا لأصحابها يقومون على رعايتها يرعون مصالحها.

وتحرير العلاقة على هذا النحو الجديد فيه نظرة مصلحية، ونظـــرة إنسانية على السواء.

أما النظرة المصلحية فإن النبي والمسلمين من مصلحتـــهم أن تكـــون هناك يد عاملة تقوم بفلاحة الأرض مقابل أجر، وأصحاب الأرض يـــأخذون مقابل ملكيتهم لهذه الأرض بلا ضرر ولا ضرار.

وأما النظرة الإنسانية فمنشؤها طابع النبي نفسه، ذلك أنه مع علمـــه بخلائق اليهود وسجاياهم، لم يشأ أن يخرجهم ويأتي بغـــيرهم مـــن العـــرب، كأبناء غطفان أو من جاورهم، ثم يتعاقد معهم على فلاحة الأرض، إذ اعتـــبر النبي أن هؤلاء اليهود مـــاداموا قد اعـــترفوا بملكيـــة الأرض لأصحابـــها. ودخلوا في صلح مع النبي بمقتضاه أنهم يكونون قد التزموا بعدم إثارة القلاقل ضد المسلمين، فلا بأس أن يتولوا زراعة الأرض فهم أولي بها من غيرهم.

وأبرم النبي معهم العقد على نحو ما ذكره المؤرخون، وبينوا موافقة النبي على هذه العلاقة٠

وكان من أهم الشروط التي ألزمهم النبي بها شرطان:

أحدهما: أنهم يفلحون الأرض ويزرعونها على نصف ثمرها٠

وثانيهما: أن هذه العلاقة ليست مؤبدة، وإنما هي معلقة على مشيئة الله٠

غير أنه معلوم ضمناً أن اليهود إن عادوا إلى الخيانة مرة أخرى، لم يكن لهم مجال للتعاقد، أو بالأخرى تجديد التعاقد مع النبي٠

اليهود تغلبهم طباعهم:

ولقد انصرف النبي عنهم بعد أن أبرم معهم عقودهم، وكان في كل عام يرسل إليهم قبل نضوج الثمرة من يقدرها لهم، لما يعلمه من أنهم يقولون:" **ليس علينا في الأميين سبيل ويستبيحون سرقة المحصول**"٠

وكان الذي يذهب إليهم في كل عام يُخَرِّص[1] المحصول لهم قبل جمعه هو:- **عبد الله بن رواحة**- رضي الله عنه، وهو رجل خبير بالزراعة، ذو بصر بالمحاصيل٠

أما اليهود فكانوا لا يريدون ذلك المسلك، ولا يرتضون هذا الأسلوب، لأنه يقطع عليهم الطريق إلى مطامعهم، ويغلق أمامهم أبواب اختلاساتهم٠

والشيء العجيب أنهم قد عرضوا على- **عبد الله بن رواحة** - أن يشتروا ذمته بالرشوة، وهو مسلك يهودي معروف، فلعنهم - **عبد الله رواحة**- وحقر مسلكهم، وبين لهم أن هذا المنحى لا يستغرب من أمثالهم، ثم قال لهم : إن الذى أرسلني إليكم لأحب إليّ من نفسي، وإنكم مني لأبعض

(١) **يخرّص** : يقدر و يقوم ويحرز٠

أهل الأرض، ومع ذلك فلا يحملني حبي إياه ولا بغضي لكم على أن أختان نفسي، أو أخالف العدل، فمص كل يهودي شفته وقالوا له: بالعدل قامت السموات والأرض.

وحين انتقل النبي إلى الرفيق الأعلى وآلت الخلافة إلى أبي بكر، أقرهم أبو بكر على ما كانوا عليه أيام النبي ﷺ.

فلما جاء عهد عمر أقرهم عمر أول الأمر على ما كانوا عليه.

فلما طال بهم الزمن بدأ طبعهم يغلبهم، فلجأوا إلى الخيانة المركوزة في أخلاقهم لا تفارقهم، وكانت هذه الواقعة.

ذهب إليهم عبد الله بن عمر لينظر سهمه الذي كان له عندهم عند فتح خيبر، فخانوه وألقوا به [من فوق بيت ففدعوا يديه، ويقال بل سحروه بالليل وهو نائم على فراشه، فكوع حتى أصبح كأنه في وثاق، وجاء أصحابه، فأصلحوا من يديه، فقام عمر خطيبا في الناس، فقال: إن رسول الله ﷺ عامل يهود خيبر على أموالها، وقال: نقركم ما أقركم الله، وإن عبدالله بن عمر خرج إلى ماله هناك فعدي عليه من الليل، ففدعت يداه. وليس لنا هناك عدو غيرهم، وهم تهمتنا، وقد رأيت إجلاءهم. فمن كان له سهم بخيبر فليحضر حتى نقسمها، فلما أجمع على ذلك، قال رئيسهم، وهو أحد بني الحقيق: لا تخرجنا ودعنا نكون فيها كما أقرنا أبو القاسم وأبو بكر، فقال عمر لرئيسهم: أتراني سقط عني قول رسول الله ﷺ "كيف بك، إذا ارفضت[1] بك راحلتك تؤم الشام يوما، ثم يوما؟" وفي رواية: أظننت أني نسيت قول رسول الله ﷺ " كيف بك إذا خرجت من خيبر يعدو بك قلوصك[2] ليلة بعد ليلة" فقال: تلك هزيلة من أبي القاسم، قال: كذبت،

(١) ارفضت: أي سال عرقها، بمعنى أسرعت.

(٢) القلوص: بفتح الأول وضم الثاني- الشابة - من الإبل ذات الصحة والنشاط والجمع قُلُص، وقِلاص، وقلائص.

وأجلاهم عمر، وأعطاهم قيمة مالهم من التمر: مالاً، وإبلاً، وعروضاً من أقتاب وحبال، وغير ذلك][1].

زواج النبي ﷺ بصفية بيت حيى :

ودعني أعود بك بعد هذا الاستطراد اليسير إلى أرض خيبر من جديد أمام الواقعة التي انتهت بفتحها.

وما ذلك إلا أني أريد أن أستكمل معك بعض الأمور التي حديث، اختار منها ما أراه ضروريا للإشارة إليه والتركيز عليه.

ومن أوائل ما أريد أن أبرزه قصة صفية مع النبي ﷺ.

وصفية هذه هي ابنة حيى بن أخطب حكيم يهود بني النضير، خرجت مع أبيها وقومها إلى أرض خيبر، وذهب بعض قومها إلى الشام كما علمت.

وكان ما كان من قصة أبيها وشأنه مع النبي والمسلمين الذي انتهى بقتله جزاء خيانته في غزوة بنى قريظة.

أما صفية فقد تزوجت في بيت ابن أبي الحقيق، وهو بيت مشهود له في خيبر، وكان زواجها فيه من – **كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق**– عاشت معه قدر ما عاشت إلى أن غزا المسلمون خيبر، وإذا بها تخبر زوجها ذات صباح، أنها قد رأت فيما يرى النائم أن قمراً قد وقع حجرها، وطلبت منه أن يعبر لها رؤياها، فقال لها مغضباً: إن هذا صدى لشئ في عقلك الباطن مشغول به، وما هذا الشئ إلا أنك تفكرين في الزواج من أبي القاسم ملك العرب وتتمنين ذلك، ولطمها لطمة
شديدة أثرت في إحدى عينيها، ولقد بقي هذا الأثر في عينها إلى أن وقعت في يد المسلمين.

---

(٣) سبل الهدي والرشاد– حـ٥ ص ٢٠٧ وما بعدها.

فلما حازها النبي وطرح عليها ثوبه، علم المسلمون أن هـذه سـوف يكون لها شأن، **فلما سألها النبي عن هذا الأذى في عينها قصت عليه القصـة، ثم ذهب الله بهذا الأذى عنها.**

أما زوجها الذي هو- **كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق**- فقد أُتي بـه إلى النبي بعد سقوط حصن- **القموص**- فسأله عن ممتلكات قومه باعتبـار ه سيدهم، وطلب إليه أن يصدقه فوافق على ذلك، ولكن لم يفعل بـل عمـد أن يغش رسول الله ﷺ ويحتال عليه.

ولقد جاء بعض اليهود إلى النبي ﷺ يقول له: إني قد رأيت كنانة كل ليلة يطوف بهذه الخربة، ومـا أرى إلا أن يكون لها شأن معـه، فـأتي بـه النبي ﷺ وسأله عن شأنه مع هذه الخربة، فأنكر أن يكون له شأن معها، فقال له النبي: وماذا لو اكتشفنا أن لك معها شأنا أنقتلك ؟ قال: نعم. فـأمر النبـي بالخربة فنبشت فوجدوا تحت سطحها أموالا كثيرة لخيبر، فأتي به النبـي ﷺ فسأله أن يدله على باقي الأموال فأبي.

ولقد كـان قتل أخـا لمحمد بن مسلمة فدفع بـه إلـى محمـد بـن مسلمة وأباحه أن يقتله بأخيه ففعل.

وظلت صفية مع الأسرى لا يعرف أحد ما شأنها، حتى هـم القـوم بالرحيل، وقد وقعت في سهم رسول الله ﷺ من الغنائم، فنظـر النبـي فـي شأنها، فوجدها من علية القوم، وقد وقعت أسيرة، وهي مكلومة بفقـد أبيـها وفقد زوجها، وفقد بعض أقربائها، فتحركت النخوة في نفس رسول الله، وهـي نخوة عالية كما هي عادته في مواقفه، فرأى أن يرحم عزيـزة قـوم ذلـت بالأسر، وحزنت لفراق أبيها، فما كان من النبي إلا أن أعتقها ثم تزوجها.

وهذا عمل قد حظي بإعجاب الكتاب والمؤرخين من المسلمين ومـن اليهود على السواء.

ففي حياة محمد كان هذا الجبر بتلك العبارات قال:[**فلمـــا خلصـــت صفية إلى المسلمين وصارت بين الأسرى، قيل للنبي:" صفية ســـيدة بنـــى قريظة والنضير لا تصلح إلا لك" فأعتقها وتزوجها مقتفيا بذلك أثر الفـاتحين العظماء الذين كانوا يتزوجون من بنات عظماء الممـــالك التـــي يفتحونـــها ليخففوا من مصابهم ويحفظوا من كرامتهم]**.(١)

وبهذا الحماس نفسه أظهر الكثيرون من المنصفين رأيهم علـــى هـــذا النحو، وأبانوا عن إعجابهم بفعل النبي ﷺ واتخاذه هذا الموقف من صفيـــة، مع علمه الأكيد بخلائق اليهود التي لا يؤتمنون معها على شئ.

ودونك هذا الكاتب الذي سبقت الإشارة إليه، وهو إسرائيل ولفنســـون مع تحامله على المسلمين، فإنه لم يستطع هنا إلا أن يظهر إعجابـــه بموقـــف النبي مع صفية، وإن كنا لا نعلم ما ينطوي عليه قلبه.(٢)

مع الموقف العالي من النبي ﷺ وجدنا المسلمين قـــد خـــافوا علـــى النبي ﷺ من هذا الزواج، خاصة أخواله من بنى النجار.

فلقد حدث التاريخ أن النبي حين بنى بصفية على الطريق بين خيـــبر والمدينة، بقي أبو أيوب خالد الأنصاري وهو من بنى النجار، يطـــوف ليلتـــه تلك حول خيمة النبي ﷺ مخافة أن تكون صفية قد دبرت له مع قومها شيئاً.

فلما أصبح النبي وخرج إلى الناس، وجد أبا أيوب فسأله عـــن شـــأنه قائلاً مالك ؟! قال: خفت عليك من هذه المرأة وقـــد قتلـــت أباهـــا وزوجـــها وقومها. وقد كانت حديثة عهد بكفر.

أما صفية فقد حولها الله إنسانة أخرى فأســـلمت وحســـن إســـلامها، وأخصت للنبي إخلاصاً شديداً يليق بوضعها الجديد أمًّا للمسلمين.

---

(١) حياة محمد- محمد حسين هيكل- مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٥٤هـــ الطبعة الثانية- ص ٣٧٩.

(٢)راجع تاريخ اليهود في بلاد العرب (مرجع سبق ذكره).

ولقد ظلت على وفائها هذا لا تعلن عنه بألفاظها، وإنما تعبر عنه بالأفعال إلى أن جاء وقت مرض رسول الله ﷺ، واجتمع نساؤه حوله، فقالت صفية: يا رسول الله إني قد تمنيت أن ما بك من الوجع ينتقل إليّ، فغمزتها صويحباتها، ورأى النبي زوجاته وما فعلن بها، فأمرهن أن يغسلن أفواههن، فسألنه ومنْ ماذا يا رسول الله ؟ فقال من غمزكن لصاحبتكن، فوالله إنها لصادقة.

هذا وإن صفية في حياة النبي كانت تتعرض أحياناً لبعض الألفاظ التي تؤلمها كأن يقال لها: إن أباك يهودي وأمك لكذلك، وكانت تألم من ذلك ألماً شديداً، وتشكو للنبي ألمها، وكان يقول لها: لو عدن إلى هذا الحديث قولي لهن: إني ابنة نبي وعمي نبي، وزوجي نبي، فمن التي حيز لها مثل الذي حيز لي، فأنا ابنة هارون، وعمي موسى، وزوجي محمدﷺ .

أرأيت إلى هذا النبل الرشيد، والخلق العالي السديد في تصرفات خاتم المرسلين.

يهودية تحاول خيانة النبي بشاة مسمومة :

يحدث التاريخ كثيراً عن خيانات اليهود مع النبي، فما من فرصة تتاح للخيانة أمام يهودي إلا وينتهزها.

حتى نساؤهم هن الأخريات قد طبعن على الخيانة، حتى وكأن الخيانة مكون أساسي من مكونات شخصية اليهودي، لا تخطئه ولا يخطئها.

وهذه قصة زينب بنت الحارث، وزوجة سلام بن مشكم قد خططت بعد أن وقع الصلح بين المسلمين واليهود لاغتيال النبيﷺ، فاحتالت إلى صفية بنت حيى أم المؤمنين، وقالت لها: إنها تريد أن تقدم للنبي طعاماً إكراماً له حتى وافقت صفية، فأتت لها زينب بشاة كانت قد أعدتها للأكل، ولكنها وضعت السم في كل جوانبها، وركزت على الذراع، حيث إنها قد سألت صفية أو سألت القوم عن أى مكان في الذبيحة يحب النبي أن يأكل

منه، فلما قالوا لها إنه يحب الكتف أو الذراع يأكل منها، ركزت هي على كتفي الشاة فوضعت فيهما سمًا كثيرا، وأقبل النبي إلى مقام صفية ومعه بشر ابن البراء، فقُدمت الشاة إليهما، فأخذ النبي قطعة من الذراع، وتناول بشر قطعة من الشاة.

أما بشر فقد أنكر طعم اللحم في فمه، ولكنه- **كما قال** - لم يشأ أن يرمي باللحم من فيه حتى لا ينغص على النبي أكلته.

وأما النبي فقد أنكر كذلك الطعام كما أنكره بشر فلفظه ولم يسغه، فلفظ بشر ما بقي في فمه، وأخبر النبي أنه قد ابتلع بعض اللحم وساغه، فأخبر النبي أن هذه العظم في يده قد أخبرته بأنها مسمومة، وأن نعيه سيكون فيها.

ولقد تأثر بشر بالقطعة التي ابتعلها حتى انتقع لونه وصار مثل الطيلسان، وأمهلته المنية وعضه المرض، فكان لا يستطيع أن يتحرك في فراشه إلا اذا حركوه حتى مات.

ولقد دعا النبي زينب فور اكتشاف خيانتها وسألها عن الشاة هل وضعت فيها السم ؟ قالت ومن أخبرك ؟ قال: هذه العظمة في يدي، فقالت: نعم، قال: وما حملك على ذلك، قالت: أنت رجل قتلت أبي وزوجي وعدداً من أقاربي، فقلت بعد أن وقع الصلح بيننا وبينك، وهدأت الأعصاب وزالت الريب أحتال عليك بالسم، فإن كنت ملكاً استرحنا منك، وإن كنت نبيًا فلن يضرك، فعفا عنها رسول اللهﷺ لكنه بعد أن مات بشر متأثراً بطعمته، قتلها النبي به على ما يزعم بعض الرواة.

وكثير من الرواة على أن النبيﷺ قد أصابه هذا السم، وظل يلاحقه ويعاوده، حتى مات متأثراً به فمات شهيداً ﷺ .

وأيا ما كان الأمر، فإن فعلة زينب هذه لدليل آخر ينضــــاف إلــــى مئات الأدلة التي ذكرناها بين يديك، لنؤكد بها جانباً مـــن جوانـــب أخـــلاق اليهود، لم يحوجه الواقع المشهود إلى دليل.

والشئ العجيب أنه ما من مرة يحدث التاريخ فيها عـــن حـــدث مـــن أحداث خيانة اليهود، ويطلع عليه إسرائيل ولفنسون إلا وهو يحاول أن يجـــد له مخرجا، وأن يصطنع له مبرراً، ويوافقه المشرف على الرسالة فـــي كـــل موقع، إلا إذا وجد نفسه وقد أريق جميع ماء وجهه، فيحتفظ ببعض هذا المـــاء ريثما يجد القناع الذي يستر به هذا الوجه إن أراد يستفرغ جميع ما فيه مـــن الماء.

" وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون "

يهود فدك ووادي القرى وتيماء

****

قاتل اليهود في منطقة خيبر، وأوشكت خيبر أن تسقط في يد النبي وتفتح للمسلمين.

ولم تكن خيبر وحدها هي المنطقة الوحيدة المكتظة باليهود شمال المدينة، ولكنه كان إلى الغرب منها، أو بالتحديد في شمالها الغربي كانت منطقة **وادى القرى** يسكنها اليهود.

وعلى نفس المستوى كانت هناك منطقة أخرى شمال خيبر تسمى **تيماء**، كان يسكنها أيضا يهود.

أما في شرق خيبر فكانت هناك منطقة أخرى تسمى **فدك** بسكون الدال أو فتحها، كان يسكنها يهود كذلك.

ومع تعدد مناطق اليهود في أطراف خيبر، فإنه يجب أن نعلم أن يهود خيبر كانوا أكثر اليهود منعة وقوة وشدة بأس، فحصونهم على الروابي والمرتفعات، ومنطقتهم التي يقيمون فيها قسموها إلى ثلاثة أقسام حربية، وكل قسم منها يضم من الحصون والآطام ما لا يقوى على اقتحامه إلا من وفقه الله لذلك.

ولقد أصبح اليهود بمنعتهم ويسارهم وشدة بأسهم مضرب الأمثال في جزيرة العرب كلها، حتى إن قريشاً قد راهنت على هزيمة النبي على أيديهم، حين علمت أن النبي سائر إليهم.

مصالحة يهود فدك :

وجاء النبي إلى يهود خيبر ودخلها على بركة الله ، وسقطت في يديه المنطقة الأولى بحصونها المنيعة، ثم سقطت في يده المنطقة الثانية وهي منطقة الشق، واستسلمت له بعد أن سقط حصنها الأول، وزحف إلى المنطقة

الثالثة، فلما لم يبق منها إلا حصني الوطيح والسلالم ٠أرسل إلى يهود فـدك حين أصبح على مقربة منهم كما ترى يستطلع رأيهم في شأنهم، ويخيرهم في أمرهم، فإن هم أسلموا عصموا الدماء والأموال، وإن هم صالحوا نزلوا علـى صلحه، وإن هم أبوا إلا النزال لم يكن مفر من ذلك٠

حين أصبح النبي على مقربة من فدك، دعا إليه رجـلاً يقـال لـه- **محيِّصة**- وأمره أن يذهب إلى فدك يخيرهم في شأنهم٠

وذهب- **محيصة**- إليهم وبقي معهم يومين كاملين، يحتالون بـه ولا يتخذون في شأن أنفسهم قراراً حاسما قائلين: إن يهود خيبر سيكفوننا محمـدا وأصحابه، ففيهم الرجال الذين لا يشق لهم غبار، وفيـهم المنعـة، ولديـهم السلاح والعتاد٠

فلما رأى- **محيصة**- ما بالقوم من قدرة على الحلية وتردد في اتخـاذ القرار، أخبرهم أنه عائد إلى رسول الله ٠

وترامت الأخبار إلى فدك بأن خيبر قد سـقطت، وأن رموزهـا قـد قتلت، وأنهم قد صالحوا رسول الله ﷺ ، وصالحهم رسول الله ٠

حينئذٍ أرسلت فدك إلى النبي من يصالحه ويتفاوض معه٠

فأرسلوا إليه وفداً منهم برياسة- **نون بن يوشع**-٠

وأقبل الوفد على رسول الله ٠ وعرض عليه عروضاً كلها لم تكن فـي مصلحة المسلمين٠

وبعد دراسة ومحاورات انتهى الأمر بالنبي وبيهود فدك، إلى أن يقبـل النبي ﷺ أن يقيم يهود فدك في أرضهم، على أن يأخذوا نصف هذه الأرض ملكية وحيازة وانتفاعاً، ويتركوا نصفها الآخر للنبي ملكية وحيازة وانتفاعاً٠

ولقد تم الصلح على هذا النحو، فأصبحت أرض فدك التـي حصـل عليها النبي خاصة بالنبي، إذ المسلمون ما أوجفوا عليها بخيل ولا ركاب٠

وبقي اليهود في فدك على ما يخصهم من الأرض حياة النبي، وأيـــ أبي بكر إلى أن تم إجلاؤهم مع إخوانهم من اليهود في وقت متأخر على مــ سنحدثك عنه بعد.

خروج النبي إلى وادى القرى :

وعاد النبى من خيبر متجها غربا حتى وصل إلى وادى القرى ، وقــد وصلها والشمس قبيل الغروب فحط رحاله وألح فى عرض الإســـلام علـــى وادى القرى يرغبهم فيه ، ويقول لهم : إنـــهم إن أســـلموا حقنـــوا دمـــاءهم، وحرزوا أموالهم، وحسابهم على الله، فأبوا عليه ذلك، وارتفعـــت أصواتـــهم بالصياح خلف الحصون، ورموا المسلمين بالنبل من وراء الجدر، ولم يكـــن المسلمون قد عُبئوا، ولا هم قد استعدوا للقتال.

فلما أصبحوا عبأ النبي قواته، وقسم المحاربة وصفهم، ودفع الرايـــات إلى من اختارهم منهم.

وكانت الرايات يومئذ مع !- **سعد بن عبادة، والحباب ابن المنـــذر، وسهل بن حنيف، وعباد بن بشر**-

ولم يشأ النبي أن يأمر بقتال حتى يلح عليهم أن يتابعوه على دينـــه، إذ هو ﷺ صاحب المبدأ القائل:" **لأن يهدى الله بك رجلا خير لك مـــن الدنيـــا وما فيها** "

ومع إلحاح النبي وهو يعرض الإسلام على القوم، رفض اليـــهود أن يدخلوا مع النبي في دينه، وطلبوا المبارزة، ووافق النبي على المبارزة، ولـــم يأمر بالتحام الجيشين، فأخرجوا إليه رجلاً يبارز، فأخرج إليه النبي- **الزبـــير بن العوام**- فقتله، فأخرجوا إليه رجلاً آخر فقتله- **الزبير**-، فـــأخرجوا إليـــه ثالث فقتله- **على**- ثم أخرجوا إليه رابع فبرز إليه- **أبو دجانة**- فقتلـــه، ـ ـ الخامس قتله- **أبو دجانة**- أيضا.

وهكذا ظلوا يخرجون إليه رجلا بعد رجل حتى قتل منهم أحد عشـــر رجلا.

وانقضى اليوم الأول على هذا النحو.

وكلما أتي ميعاد الصلاة صلى النبي بالناس، ثم أعاد العــرض علـــى اليهود أن يدخلوا معه في الإسلام.

فلما أقبل الليل وتوقف القتال، هدأت الأعصاب قليلا، وتشاور اليـــهود فيما بينهم، فما أن أقبل الصبح إلا وقد عرض اليهود علـــى النبـــي الصلـــح. فصالحهم على نحو ما صالح عليه أهل خيبر.

صالحهم على أن تكون الأرض له، وهـــم يكونـــون فيـــها زراعـــا بأجرهم، ليس لهم شئ من ملكية الرقبة.

وأمضي النبي الصلح معهم على ذلك.

يهود تيماء :

أما يهود - **تيماء**- وهم الذين كانوا يقيمون قريبا مـــن يـــهود وادى القرى وعلى الشرق منهم، حين علموا برسول الله ﷺ وما فعل مع إخوانـــهم من يهود وادى القرى، أرسلوا إليه يطلبون أن يصالحـــهم، وأن يعقـــد بينـــه وبينهم عقد سلام، فقبل منهم النبي ذلك.

ولما لم يكن النبي قد ذهب إليهم، ولم يكونوا هم قد شاكسوه في شئ.

ولما لم يكن اليهود قد قبلوا بالدخول في الإسلام، رأى النبـــي ﷺ أن يقرهم على أرضهم، وأن يقبل منهم الجزية لا يزاحمهم في شئ، ولا ينغـــص عليهم حياتهم في أمر من الأمور.

وهكذا رتب الله لنبيه أمره مع اليهود في شبه جزيرة العـــرب كلـــها، حتى يأمن من خيانتهم التي هي طبعهم، وحتى لا يخشي من هذه الخيانـــات، إن هو انصرف إلى دعوته ودولته، ينشر الأولى ويرسي على العدل أصـــول الثانية.

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

عودة النبي ﷺ إلى المدينة ظافراً منصوراً

****

فلما انتهي النبي ﷺ من شأنه مع اليهود، قفل ﷺ راجعاً إلى المدينة المنورة.

وكان المسلمون من حول نبيهم ﷺ فرحين بالنصر، يلتفون حول نبيهم، فإذا ما تغيرت بهم السبل فنزلوا وادياً أو صعدوا مرتفعاً، كانوا يكبرون ويرفعون أصواتهم بالتكبير، والنبي ﷺ ينصحهم قائلاً لهم: " **إربعوا[1] على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا، إنكم تدعون سميعا قريبا، وهو معكم**".

ولما وصل النبي على مقربة من المدينة في منطقة تسمى- **الجرْف**- علّم النبي أصحابه أدباً من آداب الإسلام كانت الظروف تقتضيه في بيئة العرب في هذه الحقبة من الزمن.

ذلك أن الرجل إذا سافر وترك أهله، فأهله قد يستعينون بمن يؤنس وحدتهم، ويذهب بوحشتهم من أهلها وذويها.

وهي قد تكون على حال من نفسها لا تناسب إستقبال الزوج القادم بعد فترة من الزمن.

وهذه وأمثالها أمور قد تسيئ الرجال، وتحدث في نفوسهم شيئا من النفرة من زوجاتهم.

فعلمهم النبي أحد آداب الإسلام، وهو أنه لا يجوز للرجل أن يطرق بيته من سفره ليلاً، ونهاهم النبي جميعا عن ذلك.

---

(١) **إربعوا** : أى أرفقوا بأنفسكم وأمسكوا عن الجهر.

ولقد استجاب المسلمون ووقفوا عند حدود نهي رسول الله ، إلا رجلا منهم غلبه أمره، فذهب إلى بيته ليلا فوجد ما يكره، ولم يعنفه النبي ﷺ على مخالفتة تلك، ولم يعنف الرجل أهله.

ولما تقدم النبي إلى حدود المدينة رأى جبل أحد مشرفا فقال ﷺ معلقا:"**هذا جبل يحبنا ونحبه، اللهم إني أحرم ما بين لا بتي المدينة**".

ودخل المسلمون جميعا في رابعة النيار فرحين مسرورين.

واكتملت فرحتهم بقدوم هؤلاء الذين كانوا قد هاجروا إلى الحبشة، حيث قدموا إلى المدينة رجالهم ونساؤهم، يتقدمهم - **جعفر ابن أبي طالب** -.

وقد فرح النبي بمقدمهم جميعا، وكان فرحه بقدوم جعفر أشد، فهو القائل:- **لا أدرى بأيها أفرح بـ - فتح خيبر - أم بـ - قدوم جعفر**-

ولله في تصريف الأمور شئون.



الجلاء الأخير

****

أقر النبي ﷺ اليهود من خيبر وفدك ووادي القرى وتيماء في أرضهم ولم يخرجهم عنها.

وكان إقرارهم في أرضهم بعد أن انتزع من صدورهم فكرة أنهم يريدون أن يفرضوا على الناس اعتقاد أن الأرض أرضهم، وأنهم أصحابها لا يجوز لأحد أن يجليهم عنها، مهما صدرت عنهم من الخطايا، ومهما صدر عنهم من التجاوزات.

كما أقرهم النبي في أرضهم، بعد أن رفع عن العرب واليهود جميعاً الوهم القائل: بأن يملكون ناصية القوة وحدهم، وهم الذين يقدرون على أن يسوقوا العالم أمامهم، لا ينازعهم في ذلك أحد ولا يردهم عنه ذو بأس أو قوة.

ولقد أقر النبي اليهود في أرضهم بعد أن أقنعهم وأقنع العرب معهم من غير المسلمين، أو حتى من بعض المسلمين، أن اليهود ليسوا هم أصحاب الحضارة، وليسوا هم القادرين على تشكيل عقول الناس وإعادة صياغتها، وليس لهم من ذلك كله إلا دعاوى عريضة، وكلمات مطاطة يوهمون الناس بها أنهم سادتهم، وأن لهم المرجعية في كل ذلك دون سواهم.

لقد أقر النبي اليهود في أرضه بعد أن اعترف كبراؤهم له بالنبوة، وبعد أن أقروا له بالرسالة وتناثر من أفواههم كلمات تفيد أن النبي ﷺ وبعض صحابته قد ورد لهم ذكر في التوراة بأسمائهم أو صفاتهم، أو بالقرائن الموضحة لهم وضوحاً يعلمه اليهود لا يخطئهم ولا يخطئونه، فهم يعلمونه علماً يفوق علمهم بنسبة أبنائهم إليهم وانحدارهم منهم.

ولقد كان إقرار النبي لليهود أمراً تقضيه المصلحة وتحتمه عوامل النخوة والرجولة·

أما أن المصلحة تقتضي هذا الإقرار، فما قد علمت من أن النبي مكلف هو وأصحابه بتأسيس الدعوة بالدولة، أو الدولة بالدعوة وبنشرها في الأرض، وهي مهمة سيعترضها المعترضون من أعدائها الأمر، الذي يجعلها تحتاج إلى رجال يفرغون للحرب والقتال·

وتلك مهمة كما ترى ستصرف المسلمين عن الزراعة واستصلاح الأراضي الشاسعة، التي ردت إليهم من اليهود الذين كانوا قد اغتصبوها·

وهناك مصلحة تعود إلى اليهود، فاليهود طائفة من البشر ليس لهم في العالم كله وطن، ذلك أننا إذا تأملنا كل موقع على ظهر المعمورة يكون اليهود فيه، لوجدناهم قد اغتصبوه من زمن قريب أو بعيد، فما هم في الجملة إلا أناس قد حكم الله عليهم أن يتيهوا في الأرض ليس لهم فيها قرار·

ومن أجل هذا فإنه من مصلحة اليهود أن يبقوا عند النبي يعالجون الأرض، طبقاً لبنود عقد يحرر أو كلام يقال يلتزم به الطرفان، بمقتضاه يكون لمالك الأرض بعض الثمار ولمن يفلحها البعض الآخر·

أما الجانب الإنساني فهو أن هؤلاء القوم من اليهود أصبح لهم بهذه الأرض نوع ارتباط، خاصة هذه الأجيال التي ولدت ونشأت عليها·

ومادام هناك إقرار بملكية الأرض لصاحبها، فإنه لا بأس أن يقر مالك الأرض الذين قد وُلدوا عليها ولا يخرجهم منها، فيقطع بينهم وبين ذكرياتهم ويحرمهم من إرواء أشواقهم وعواطفهم·

غير أنه لمن الواجب أن نقول إن النبي ﷺ لم يقر اليهود جميعاً على نظام واحد، إذ منهم من قاتله كيهود خيبر، وأبي أن يدخل معهم في معاهدة سلام فخسر بذلك ملكيته للرقبة، فأقر النبي على الأرض مزارعة، له نصف الثمرة وللمالك الذي هو النبي والمسلمين نصفها·

ومن اليهود من قبلوا الصلح ولم يوجف النبي عليهم بخيل ولا ركاب، فقسم الأرض بينه وبينهم صلحاً على أن يكون لهم نصفها وللنبي النصف الآخر، يعملون له فيه بجزء يتفق عليه من الثمرة.

أما أهل وادي القرى فقد رفضوا الإسلام والصلح، وأبوا إلا النزال على نحو ما حدثناك، فلما هزموا خسروا ملكية الرقبة للأرض، وقبلوا أن يكون حالهم فيها كحال أهل خيبر، فصالحهم النبي على ذلك.

أما يهود أهل تيماء فهم القوم الذين لم ينتظروا قدوم النبي إليهم، وإنما أرسلوا إليه وهو في مكانه يطلبون الصلح.

وهؤلاء قد أمنهم النبي على أهليهم وأموالهم، ولم يكلفهم إلا دفع الجزية فقط طبقاً لشريعة الله في أهل الكتاب إذا دخلوا معنا في عهد وذمة.

اليهود في عهد عمر:

ولقد بقي اليهود في أرضهم لا يزعجهم شئ، ماداموا على عهدهم ووقوفهم عند نصوص معاهدات السلام وعقود العمل التي أبرمها النبي معهم.

لكن اليهود دائماً هم اليهود، الخيانة جزء من مكونات شخصياتهم، وقد أبانوا عن بعضها أيام رسول الله لكن على شئ من الحذر.

وما موقفهم من عبد الله بن رواحة أيام النبي عنا وعنك ببعيد، ألم يحاولوا أن يشتروا ذمته ؟!

ومع هذه المحاولة فقد علمهم ابن رواحة أن المبدأ الذي فرضه الله يعلو فوق كل اعتبار، فهو قد أخبرهم أن من أرسله إليهم وهو رسول الله ﷺ لأحب إليه من أهل الأرض جميعا، وأن اليهود عموماً لأبغض إليه من جميع المخلوقات حتى أكثرها ضرراً، ومع ذلك فإنه لا يحمله حبه لرسول الله ولا بغضه لليهود على أن يجاوز العدل لأن الله قد أمر بالتزامه.

وتراجع اليهود قائلين لابن رواحة: نعم ولقد أخبرنا موسى عليه السلام أن – **بالعدل قامت السماوات والأرض**–

في طبع اليهود إذاً أنهم خونة والخيانة في كل حال مكون من مكونات شخصاتهم.

وأخلاق اليهود كأخلاق أدْون الحشرات تغلبها طباعها.

في القصص الشعبي هذه القصة التي مؤداها أن عقرباً أراد أن يعبر مجرى مائياً وهو لا يستطيع أن يعبره، فطلب إلى ضفدعة أن تعبر به وجعل لها، جُعلا فقالت الضفدعة المسالمة: أنا أعبر بك على غير جُعل لكني أخاف خيانتك فتلد غنى، فقال لها: كيف أصنع ذلك وأنا في الماء إذ يمكنك أن تلقي بي من فوق ظهرك فأفقد حياتي، فقالت له مستسلمة: على بركة الله، فلما كانا معاً في وسط جدول الماء لدغها العقرب، فقالت له متألمة: لماذا فعلت ذلك ؟ أو ليس فيه مخالفة للعهد والوعد، و أو ليس مخالفة الوعد جريمة وتسفل ؟ قال: نعم أعلم هذا كله، ولكن الخيانة طبعي ولا أملك له دفعا.

قصة من القصص الشعبي تصلح لشرح ما عليه اليهود من سجايا وطباع. ولكن طباعهم كانت تبدو أيام النبي على شئ من الحذر.

ولم تطل أيام أبي بكر حتى يدرك شيئاً منها أو يرى بعضها.

أما أيام الفاروق فقد طالت ورأى عمر بعض خياناتهم.

لقد رأى عمر بن الخطاب بعض هذه الخيانات وقد صنعت بابنه عبد الله.

ودونك هذه القصة كما يرويها المؤرخون ذكرتها من قبل إجمالاً، وأنقلها الآن بين يديك نصاً:

في كتاب سبل الهدى والرشاد قال:[**روى البخاري والبيهقي عن ابن عمر، والبيهقي عن عروة وعن موسى بن عقبة: أن خيبر لما فتحها رسول الله ﷺ سألت يهود رسول الله ﷺ أن يقرهم فيها على نصف ما خرج**

منها من التمر، وقالوا: دعنا يا محمد نكون في هذه الأرض. نصلحها، ونقوم عليها، ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها، وكانوا لا يفرغون أن يقوموا عليها، فأعطاهم رسول الله ﷺ خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع ونخل، وشئ ما بدا الرسول الله ﷺ ، وفي لفظ، قال رسول الله ﷺ:"تقركم فيها على ذلك ما شئنا"، وفي لفظ:" ما أقركم الله ".

وكان عبد الله رواحة يأتيهم كل عام فيخرصها عليهم، ثم يضمنهم الشطر، فشكوا إلى رسول الله ﷺ شدة خرص ابن رواحة، وأرادوا أن يرشوا ابن رواحة، فقال: يا أعداء الله ، تطعموني السحت ؟ والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إليَّ، ولأنتم أبغض إليَّ من عدتكم من القردة والخنازير ولا يحملني بغضي إياكم وحبي إياه على أن لا أعدل عليكم فقالوا: بهذا قامت السموات والأرض، فأقاموا بأرضهم على ذلك .

فلما كان زمان عمر، غشُوا المسلمين، وألقوا عبد الله بن عمر من فوق بيت ففدعوا يديه، ويقال: بل سحرود بالليل وهو نائم على فراشه، فكوع حتى أصبح كأنه في وثاق، وجاء أصحابه، فأصلحوا من يديه، فقام عمر خطيباً في الناس، فقال: إن رسول الله ﷺ عامل يهود خيبر على أموالها. وقال: نقركم ما أقركم الله، وإن عبد الله بن عمر خرج إلى ماله هناك فعُدى عليه من الليل، ففُدعت يداه، وليس هناك عدو غيرهم، وهم تهمتنا، وقد رأيت إجلاءهم. فمن كان لهم سهم بخيبر فليحضر حتى نقسمها، فلما أجمع على ذلك، قال رئيسهم، وهو أحد بني الحُقيق: لا تخرجنا ودعنا نكون فيها كما أقرنا أبو القاسم وأبو بكر، فقال عمر لرئيسهم: أتراني سقط عني قول رسول الله ﷺ " كيف بك، إذا ارفضَت بك راحلتك تؤم الشام يوماً، ثم يوماً ؟".

وفي رواية: **أظننت أني نسيت قول رسول الله ﷺ " كيف بك إذا خرجت من خيبر يعدو بك قلوصك ليلة بعد ليلة" فقال: تلك هُزيلة من أبي القاسم، قال: كذبت، وأجلاهم عمر، وأعطاهم قيمة ما لهم من التمر: " مالاً. وإبلاً، وعروضاً من أقتاب وحبال، وغير ذلك"]**.

وفي مرويات الحديث والسير أن رسول الله ﷺ قال:" **أخرجوا اليهود من جزيرة العرب**".

هذا ما حدث في خيبر

أما فدك فقد كان لهم مع عمر شئ آخر حين قرر إجلاءهم.

وهذا الشأن يناسب ما فعله النبي ﷺ مع القوم حين صالحهم.

وأنت خبير أن النبي قد شطر الأرض معهم له نصفها خاصة ولليهود نصفها الزرع، والتربة ملكية رقبة وانتفاع وحيازة.

فلما جاء عمر بن الخطاب كان عليه إن أراد أن يجليهم عن الأرض، أن يدفع لهم ثمن الجزء الذي يملكونه، فشكل عمر بن الخطاب لجنة مكونه من ثلاثة نفر هم:- **أبو الهيثم – مالك بن التيهان، وفروة بن عمرو بن جبار. وزيد بن ثابت** – وقام هذا النفر الثلاثة بتقويمها لهم النخل والأرض. فأخذها عمر ودفع إليهم نصف قيمة النخل بتربتها، فبلغ ذلك خمسين ألف درهم أو يزيد.

وكان ذلك المال جاء من العراق.

وأجلاهم إلى الشام.

ثم ذهب عمر بن الخطاب غرباً إلى وادي القرى، وأجلا ما بها من يهود على نحو ما فعل مع يهود خيبر.

أما يهود تيماء فلم يخرجهم عمر من أرضهم، حيث ظن الفاروق أنهم في حدود الشام وليسوا في حدود جزيرة العرب.

والنبي حين أمر بإجلاء اليهود إنما أمر بإجلائهم من جزيرة العـــرب فقط ٠

وهكذا خرج اليهود بوصفهم تنظيماً سياسياً أو تكتلاً اجتماعيـــاً مـــن جزيرة العرب، لم يسمع أحد بعد ذلك الموقف أن لهم فيه تكتلاً يذكر ٠

وهذا لا يعني أن عمر قد قضي على آحاد اليهود في جزيرة العـرب، إذ إن من بعض العرب من اعتنق الديانة اليهودية ولو على ندرة، ومن بعض اليهود من أقاموا في بعض نواحي جزير، العرب من غير أن يكون لهم تكتـلى اجتماعي، أو أثر سياسي يُخشى منه٠

وتلك الأيام نداولها بين الناس٠

وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون٠

كلمة قبل أن نفترق

******

حـ شاء الله عز وجل أن نطوف مع اليهود ما نطوف في هذه الأيام التي استغرقت فترة من الزمن، كان عليّ فيها أن أكبت مشاعري حتى لا تؤثر على توخي الصدق في القول وتتبع المنهج العلمي في الحديث.

أقول: كان على أن أجاهد نفسي في كبت مشاعري، إذ اليهود في الفترة التي أكتب فيها قد داسوا جميع القيم الإنسانية، وخالفوا جميع الأعراف، ورصفوا تحت أقدام الأجيال الشوارع بعهودهم ومواثيقهم، وعمدوا إلى صدور الأطفال ورءوسهم من غير اليهود فضربوها بالرصاص الحي، ثم عمدوا إلى المنازل والناس نيام فضربوها بالمروحيات، وقذفوها بأثقل القنابل منها ما هو محرم استعماله، ومنها الجديد الذي لم يستعمل قبل.

وهذا كله وكثير غيره فيه من الاستفزاز للمشاعر والدين ما يفوق القدرة العادية على التحمل.

ولما لم أكن أملك من الأمر شيئاً، رأيت أن أدفن نفسي في تاريخ النبي مع اليهود أستخرج ما أهيل التراب عليه منه - **عن قصد أو غير قصد** - فأقرأ فيه ما يشاء الله أن أقرأ وأستخرج منه سجايا اليهود وأخلاقهم، والعناصر التي تلتئم منها السجايا اليهودية والأخلاق الصهيونية.

والشئ العجيب أني - **من غير أن أقصد إلى مقارنة** - وجدت أن ما كان لليهود أيام النبي من سجايا وأخلاق، تبرز واضحة جلية فيما يفعله اليهود الآن على مستوى العالم، ومع المسلمين حول الأقصى بشكل خاص.

فقلت في نفسي: لابد أن أعرض لتاريخ اليهود وخياناتهم للنبي والمسلمين، بشئ من التأليف والكتابة بين البسط والاختصار، تقرأه الدنيا من حولنا خاصة أصحاب الديانات، فيعلمون ما لليهود من طباع وما لهم من

أخلاق سيكونون عليها حياتهم كلها، ولن يستقيم اليهود أبداً مع صاحب دين، حيث قال الله لخاتم المرسلين:" **ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم**".(١)

وما كان للنبي أن يتبع ملتهم وما كان لهم أن يهتدوا.

أما أنا فإني أعتزم الآن أن أجمع ما نشرت من أوراقي، وأضم ما بثثته من الوثائق حيث قد سئمت الكتابة عن اليهود، وأوشك هذا السأم والملل أن يتعدى مسائل النفس إلى المعدة، فتحملني على أن أسمح لها أن تفرغ ما فيها لا لشئ، إلا أن البغضاء قد بدت من أفواه اليهود، فظهرت على شئ من الحال المستقذرة تحمل على الغثيان، وتقبض المعدة قبضا شديداً لا تقبل بعده أن تنبسط.

ولولا هذا الجانب الآخر من هذه العلاقات، وهو النظر في بعض أجزاء تاريخ النبي، ما كان لي ولا لغيري أن نقوى على مواصلة السير مع تاريخ اليهود ننظر فيه.

أستميحك عزيزي عذراً أن أجمع ما نشرت من أوراقي على رغبة مني.

وأن أستودعك الله، وأنا لوداعك كاره.

وإني لأرجو أن ألتقي بك على صفحات كتاب آخر إن شاء الله.

فإلى أن يأذن الله بهذا اللقاء أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم أعمالك.

والحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات.

---

(١) البقرة ١٢٠

فهـــرست

الموضوعات	رقم الصفحة

الموضوعات	رقم الصفحة

الموضوعات	رقم الصفحة



كتب للمؤلف

١) نظرية الشخصية فى فكر الامام الغزالى مخطوطة بمكتبة كلية أصول الدين.

٢) مشكلة الألوهية بين ابن سينا والشهرستانى مخطوطة بمكتبة كلية أصول الدين

٣) مصارع المصارع مخطوطة محققة بمكتبة كلية أصول الدين.

٤) نظرية النبوة فى الإسلام.

٥) الأخلاق فى إطار النظرة التطورية.

٦) عقيدتنا وصلتها بالكون والحياة.

٧) الجانب الألهى فى فكر الأمام الغزالى عرض وتحليل.

٨) النبوة والتنبؤ قراءة جديدة فى مسائل العقيدة.

٩) الإعتبار ببقاء الجنة والنار.

١٠) الحقائق الجلية فى الرد على إبن تيميه فيما أورده فى الفتوى الحموية

١١) مسليمة فى مسجد توسان (الظهور الجديد وراء المحيطات)

١٢) البهائية وسائل وغايات.

١٣) القاديانية ومصيرها فى التاريخ.

١٤) العلمانية بين الحقيقة والخيال.

١٥) الإسلام واستمرار المؤامرة الجزء الأول: الدفاع عن السنة.

١٦) الإسلام واستمرار المؤامرة الجزء الثانى: السنة فى مواجهة أعد

١٧) الإسلام واستمرار المؤامرة الجزء الثالث: ضلالات منكرى السن

١٨) الصراع بين الثقافة الإسلامية والثقافات الأخرى.

١٩) الهجرة بين سنن الله الجارية وسننه الخارقة.

٢٠) اللعاب الأخير فى مجال انكار سنة البشير النذير.

٢١) المرأة والولاية.

٢٢) حوار مع الدكتور/ مصطفى محمود - فى الشفاعة.

٢٣) الإسلام والعقيدة

٢٤) شيطان منكرى السنة يعبث بمواقيت الصلاة

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

١٩٦٢٠لسنة٢٠٠٠

مطبعة رشوان